

الإصدار الثالث

إعجاز القرآن الكريم

عند الإمام ابن عاشور

في تفسيره التحرير والتنوير

«عرضًا ودراسة»

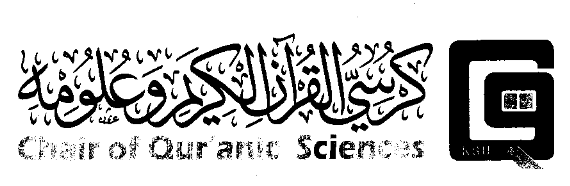
تأليف

محمود بن علي بن أحمد البعداني









الإصدار الثالث

إعجاز القرآن الكريم

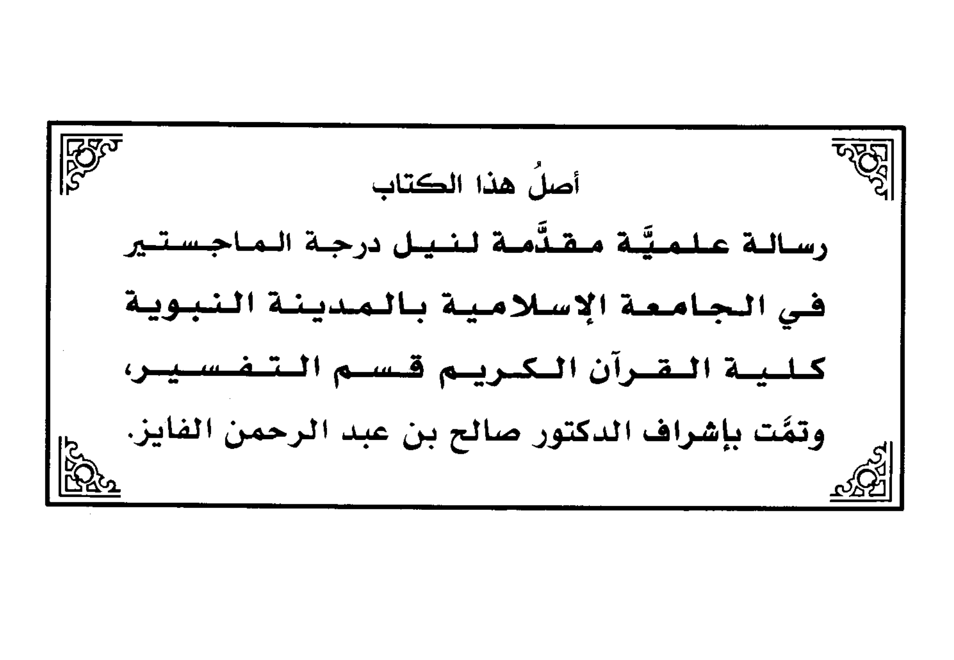
عند الإمام ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير

«عرضاً ودراسة»

تأليف

محمود بن علي بن أحمد البعداني

كرسي القرآن الكريم وعلومه
جامعة الملك سعود



أصلُ هذا الكتاب

رسالة علميَّة مقدَّمة لنيل درجة الماجستير

في الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

كلية القرآن الكريم قسم التفسير،

وتمَّت بإشراف الدكتور صالح بن عبد الرحمن الفايز.

ح كرسي القرآن الكريم وعلومه بجامعة الملك سعود، ١٤٣٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
البعداني، محمود علي أحمد
إعجاز القرآن الكريم عند الإمام ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير عرضًا ودراسة./ محمود علي أحمد البعداني.- الرياض، ١٤٣٥هـ
٤١٥ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٦ - ٥٨٨٣ - ٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - ابن عاشور، محمد الطاهر، ت١٣٩٣هـ ٢ - القرآن - إعجاز أ.العنوان
ديوي ٢٢٩,٩ ١٤٣٥/٧٤٠٧

الطبعة الأولى
١٤٣٥هـ

يهتم الكرسي بنشر البحوث المتميزة والجادة
في التفسير وعلومه تحقيقًا ودراسة

جامعة الملك سعود - كلية التربية - قسم الثقافة الإسلامية - مبنى ١٥
هاتف: ٠٠٩٦٦١١٤٦٧٤٧٤٤ - جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٣٥٥٢١٣ - ص.ب. ٢٤٢١٩٩ الرياض ١١٣٢٢
بريد إلكتروني: quranchair@ksu.edu.sa - الموقع: http://c.ksu.edu.sa/quranchair
تويتر: @quranchair

منافذ البيع
الرياض: ٤٤٥٦٢٢٩ / ٠١١ - مكة المكرمة: ٠١٢/٥٧٦١٣٧٧ - المدينة النبوية: ٠١٤/٨٤٦٧٩٩٩

المُقَدِّمَة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وآله وصحبه إلى يوم الدين، وسلَّم تسليمًا مزيدًا.

وبَعْدُ:

فالناظرُ في علوم القرآن الكريم يجدُ مِن أعلاها قدرًا، وأشرفها موضوعًا، **علم إعجاز القرآن الكريم**، وكيف لا يكون كذلك وهو العلم المعني ببيان أسرار التعبير القرآني، والكشف عن أوجه عظمته، وعلمٌ هذا شأنه حقيقٌ أن تنفق فيه الأعمار، وتقضى فيه ساعات الليل والنهار، بحثًا، ودرسًا، ومطالعةً لأسراره وكنوزه، رجاء الاندراج في سلك متدبِّري القرآن الكريم، التَّالين له على بصيرةٍ، والعالِمين بدقائق ألفاظه، ومعانيه.

وانطلاقًا من ذلك كان هذا البحث المقدَّم إلى قسم التفسير بالجامعة الإسلامية ـ بالمدينة النبوية ـ لنيل درجة العالمية (الماجستير) بعنوان:

إعجاز القرآن الكريم
«عِنْدَ الإمَامِ ابْنِ عَاشُورٍ فِي تَفْسِيرِهِ التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ»
«عَرْضًا وَدِرَاسَةً»

والله سبحانه أسأل التوفيق للعلم النافع، والعمل الصالح، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

- **أسباب اختيار الموضوع:**

لاختياري هذا الموضوع أسبابٌ متعددةٌ من أهمها:

١ ـ صلته بالقرآن الكريم، وشرف العلم يكون بشرف المعلوم، وغير خافٍ أن من أشرف المعلومات ما يبيِّن ويظهر فضل كتاب الله تعالى على غيره.

٢ ـ محاولة الاستفادة من جهود عالمٍ جَمَعَ بين اللغة والتفسير في موضوع كإعجاز القرآن، الذي لا تتضح معالمه إلا بالجمع بين هذين العلمين.

٣ ـ توضيح إسهامات الطاهر بن عاشور في هذا العلم، إذ إن الطاهر رَحِمَهُ اللَّهُ جعل من أهم أغراض تفسيره الكلام على إعجاز القرآن.

٤ ـ تقوية مَلَكة التدبر والفهم لآيات القرآن الكريم، والوقوف على جانبٍ من جوانب إعجازها.

٥ ـ الوقوف على كلام العلماء في هذا الموضوع الهام، ومعرفة جهودهم فيه.

- **الدِّراسات السابقة في الموضوع:**

حاولت التعرف على ما كُتب في هذا الموضوع، فلم أجد من أفرد موضوع إعجاز القرآن عند ابن عاشور بدراسةٍ مستقلةٍ ـ والله أعلم ـ، ومن هنا شرعتُ في إعداد هذه الخطة، والله المستعان.

المؤلف

خطة البحث

جعلتُ البحثَ في مقدمةٍ، وتمهيدٍ، وبابين، وخاتمة.

المقدِّمة

- **وتشتمل على:**

الافتتاحية، وأسباب اختيار البحث، والدراسات السابقة، وخطة البحث، ومنهج الباحث.

التمهيد
نبذةٌ عن إعجاز القرآن

- **ويشتمل على ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: تعريف إعجاز القرآن.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: تعريف الإعجاز في اللغة.

المطلب الثاني: تعريف الإعجاز في الاصطلاح.

المبحث الثاني: نشأة علم إعجاز القرآن.

المبحث الثالث: أهم المؤلفات في إعجاز القرآن.

* * *

الباب الأول

حياة ابن عاشور، ومنهجه في الاستدلال لإعجاز القرآن، وذكر مصادره فيه

- **ويشتمل على فصلين:**

الفصل الأول: حياة ابن عاشور

- **ويشتمل على مبحثين:**

المبحث الأول: سيرة ابن عاشور الذاتية.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: اسمه، وشهرته، ونسبه، ومولده، ووفاته.

المطلب الثاني: أسرته، ومكانته الاجتماعية.

المطلب الثالث: عقيدته، ومذهبه الفقهي.

المبحث الثاني: سيرة ابن عاشور العلمية.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نشأته العلمية، وشيوخه.

المطلب الثاني: وظائفه العلمية، وتلاميذه.

المطلب الثالث: مؤلفاته المطبوعة، والمخطوطة.

الفصل الثاني: منهج ابن عاشور في الاستدلال لإعجاز القرآن، ومصادره في الإعجاز

- **ويشتمل على مبحثين:**

المبحث الأول: منهجه في الاستدلال على إعجاز القرآن.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: استدلاله بالنصوص الشرعية.

المطلب الثاني: استدلاله باللغة العربية.

المبحث الثاني: مصادره في إعجاز القرآن.

الباب الثاني
مباحث إعجاز القرآن عند ابن عاشور

ويشتمل على تمهيد، وخمسة فصول:

التمهيد.

- **ويشتمل على مبحثين:**

المبحث الأول: أهمية معرفة علم إعجاز القرآن.

ويشتمل على خمسة مطالب:

المطلب الأول: دلالة إعجاز القرآن على مصدره الرباني.

المطلب الثاني: دلالة إعجاز القرآن على صدق الرسالة.

المطلب الثالث: إعجاز القرآن من المقاصد الأصلية للقرآن.

المطلب الرابع: دلالة إعجاز القرآن على فضل الإسلام.

المطلب الخامس: أثر إعجاز القرآن في زيادة الإيمان.

المبحث الثاني: صعوبة الخوض في علم إعجاز القرآن.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: صعوبة حصر وجوه الإعجاز.

المطلب الثاني: كيفية إدراك أوجه إعجاز القرآن اليوم.

الفصل الأول: التحدي بالإتيان بمثل القرآن

- **ويشتمل على سبعة مباحث:**

المبحث الأول: معنى التحدي، والمراد به.

المبحث الثاني: ثبوت التحدي بالتواتر.

المبحث الثالث: مراتب التحدي.

المبحث الرابع: وقوع التحدي بالسور دون الآيات.

المبحث الخامس: دخول الجن فيه.

المبحث السادس: وقوع التحدي بالإعجاز العلمي.

المبحث السابع: القدر المتحدى به.

الفصل الثاني: القول بالصرفة، وأثره في إعجاز القرآن

- **ويشتمل على ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: تعريف الصرفة.

المبحث الثاني: القائلون بالصرفة.

المبحث الثالث: إبطال القول بالصرفة.

الفصل الثالث: الإعجاز اللغوي

- **ويشتمل على تمهيد، وستة مباحث:**

التمهيد: وفيه:

المطلب الأول: تعريف الإعجاز اللغوي.

المطلب الثاني: أهمية الإعجاز اللغوي.

المطلب الثالث: الدليل على الإعجاز اللغوي.

المطلب الرابع: أبرز التفاسير المعتنية بالإعجاز اللغوي.

المبحث الأول: الإعجاز البلاغي.

المبحث الثاني: الإعجاز اللفظي.

المبحث الثالث: الإعجاز بترتيب الآيات.

المبحث الرابع: الإعجاز الأسلوبي.

المبحث الخامس: الإعجاز في الأمثال القرآنية.

المبحث السادس: الإعجاز القصصي.

الفصل الرابع: الوجوه الأخرى في إعجاز القرآن

- **ويشتمل على خمسة مباحث:**

المبحث الأول: الإعجاز بالحقائق العلمية، والعقلية.

المبحث الثاني: الإعجاز بأخبار الغيب.

المبحث الثالث: الإعجاز بنزول القرآن مفرقًا.

المبحث الرابع: الإعجاز بعدم الملل عند سماعه.

المبحث الخامس: الإعجاز بالروعة، والهيبة عند سماعه.

الفصل الخامس: العلوم المتعلقة بإعجاز القرآن

- **ويشتمل على أربعة مباحث:**

المبحث الأول: علم اللغة العربية.

ويشتمل على مطلبين:

المطلب الأول: علوم البلاغة، وعلاقتها بإعجاز القرآن.

المطلب الثاني: لهجات العرب، وعلاقتها بإعجاز القرآن.

المبحث الثاني: علم القراءات، وعلاقته بإعجاز القرآن.

المبحث الثالث: علم التفسير، وعلاقته بإعجاز القرآن.

المبحث الرابع: مسائل من علوم القرآن، وعلاقتها بإعجاز القرآن.

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الحروف المقطعة أوائل السور، وعلاقتها بإعجاز القرآن.

المطلب الثاني: المتشابه، وعلاقته بإعجاز القرآن.

المطلب الثالث: أسباب النزول، وعلاقتها بإعجاز القرآن.

الخاتمة: وفيها ملخص البحث، وأهم نتائجه.

الفهارس العلمية: **وتشتمل على**:

أ ـ فهرس الآيات.

ب ـ فهرس الأحاديث.

ت ـ فهرس الأعلام.

ث ـ فهرس المصطلحات العلمية.

ج ـ فهرس المصادر، والمراجع.

ح ـ فهرس الموضوعات.

• المنهج المتبع في البحث:

منهجي في هذا البحث هو المنهج المتبع في البحوث العلمية، **والمتمثل في**:

١ ـ عزو الآيات الكريمة إلى مواضعها في السور مع كتابتها بالرسم العثماني.

٢ ـ تخريج الأحاديث الواردة في ثنايا هذا البحث، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما، أكتفي بالتخريج منهما، وإن كان في غيرهما ذكرتُ تخريجه والحكم عليه من أقوال أهل العلم.

٣ ـ الترجمة للأعلام غيرِ المشهورين الواردِ ذكرهم في ثنايا البحث.

٤ ـ بيان المصطلحات العلمية التي يُحتاج إلى بيانها.

٥ ـ منهج تناول المادة العلمية في البحث كالتالي:

- جمع المادة العلمية للبحث من خلال تفسير التحرير والتنوير.
- ترتيب المادة العلمية حسب الخطة المقدمة.
- مناقشة المسائل العلمية الواردة في ثنايا هذا البحث بإيجاز، وذكر الراجح من أقوال العلماء فيها.

• نقل كلام ابن عاشور في كل موضوعٍ من موضوعات البحث مقدِّمًا له على غيره، ملتزمًا عدم تكرار النقل إلَّا إذا كان فيه إضافةٌ للموضوع.

٦ ـ الالتزام بعلامات الترقيم، وضبط ما يحتاج إلى ضبط.

٧ ـ وضع الفهارس العلمية المساعِدة.

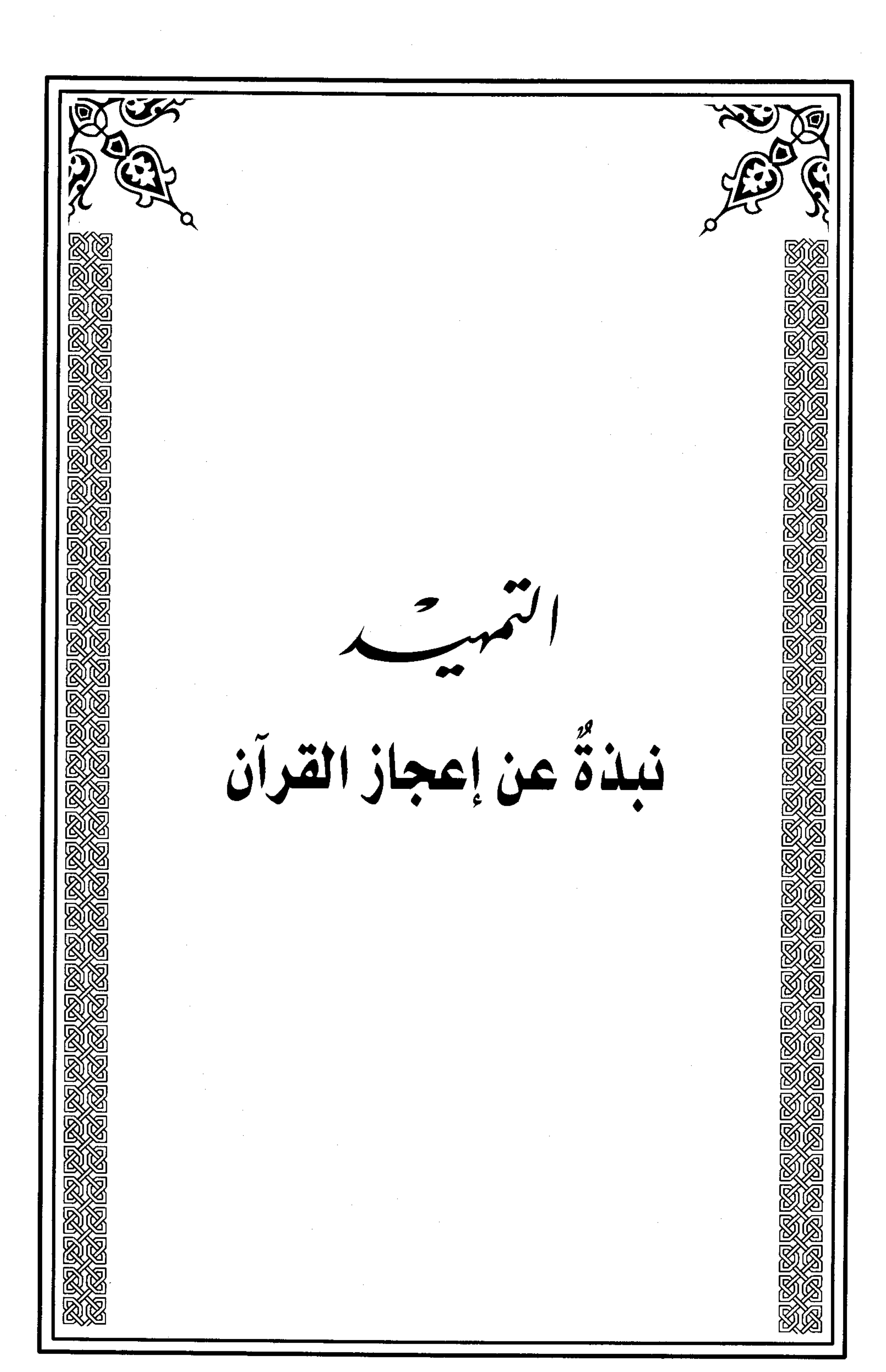
• كلمة شكر:

أحمدُ الله تعالى على ما منَّ به وأنعم من تيسير الدراسة في مدينة النبي ﷺ، كما أشكر الجامعة الإسلامية التي أتاحت لي إكمال دراستي الجامعية والعُليا فيها.

وأشكر مشرفي الفاضل الدكتور صالح بن عبد الرحمٰن الفايز حفظه الله تعالى على ما بذله من جهد في متابعة هذه الرسالة حتى تمَّت، وأشكر المناقشَين الكريمين الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن صالح العبيد، والدكتور محمد بن عبد العزيز العواجي حفظهما الله تعالى، على تفضُّلهما بقراءة هذه الرسالة، جزاهما الله خير الجزاء.



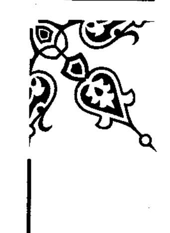
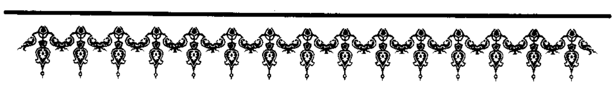




التمهيد

نبذةٌ عن إعجاز القرآن




المَبْحَثُ الأَوَّلُ

تعريف إعجاز القرآن

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

تعريف إعجاز القرآن في اللغة

إعجاز القرآن مركَّب من لفظين، أما لفظ إعجاز، فيدور على معنى الضعف، ومؤخرة الشيء، ولذا فقد قال ابن فارس رَحِمَهُ اللهُ: (العين والجيم والزاء أصلان صحيحان يدل أحدهما على الضعف، والآخر على مؤخرة الشيء)[(١)]، **والعجز** أصله التأخر عن الشيء، وحصوله عند عجز الأمر؛ **أي**: مؤخره، وصار في التعارف اسمًا للقصور عن فعل الشيء، وهو ضد القدرة.

والإعجاز مصدر، (ومعنى الإعجاز: الفوت، والسَّبق، يقال: أعجزني فلان؛ **أي**: فاتني، وأعجزني فلان: إذا عجزت عن طلبه وإدراكه)[(٢)].

وأما القرآن، فهو في اللغة: مصدر قرأ بمعنى تلا، أو بمعنى جمع، فعلى المعنى الأول يكون مصدرًا بمعنى اسم المفعول؛ **أي**: المتلو، وعلى المعنى الثاني يكون مصدرًا بمعنى اسم الفاعل؛ **أي**: بمعنى جامع لجمعه الأخبار والأحكام، ويمكن أن يكون بمعنى اسم المفعول؛ **أي**:

---

(١) مقاييس اللغة (٤/ ١٨٩)

(٢) تهذيب اللغة (١/ ٣٤٠) بتصرف.

مجموع لأنه جُمع في المصاحف والصدور[١]، وفي لسان العرب: (ومعنى القُرآن معنى الجمع، وسُمِّي قُرْآنًا لأنه يجمع السُّوَر فيَضُمُّها)[٢]، وقيل: إنه اسم عَلَم غير منقول، وُضِعَ أول ما وضع اسمًا لكتاب الله تعالى[٣].

المطلب الثاني

تعريف إعجاز القرآن في الاصطلاح

هناك تعريفات متعددة لإعجاز القرآن الكريم، وسوف نستعرض بعضًا من هذه التعريفات، فمنها: قول الكفوي[٤] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (إعجاز القرآن: ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طور البشر، ويعجزهم عن معارضته)[٥].

وقال الزرقاني[٦] رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه: (إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به)[٧].

وقال بعض الباحثين: (معنى إعجاز القرآن هو عدم قدرة الكافرين على معارضة القرآن، وقصورهم عن الإتيان بمثله، رغم توفر ملكتهم

---

(١) **انظر**: أصول في التفسير (ص٩).

(٢) لسان العرب (١/ ١٢٨)، **وانظر**: مناهل العرفان (١/ ١١).

(٣) **انظر**: تهذيب اللغة (٩/ ٢٧١).

(٤) **الكفوي**: أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء، قاضٍ حنفي، توفي في إستانبول سنة ١٠٩٤م، **انظر**: الأعلام (٢/ ٣٨)، معجم المؤلفين (٣/ ٣١).

(٥) الكليات (ص١٤٩).

(٦) **الزرقاني**: محمد بن عبد العظيم الزرقاني، ولد في مطلع القرن الرابع عشر الهجري، وتوفي سنة ١٣٦٧هـ، **انظر**: الأعلام (٦/ ٢١٠)، مقدمة مناهل العرفان دراسة وتقويم (١/ ٤٣ ـ ٤٨).

(٧) مناهل العرفان (٢/ ٢٣٨).

البيانية، وقيام الداعي على ذلك، وهو استمرار تحدِّيهم، وتقرير عجزهم عن ذلك)[١]، وهذا وصف لإعجاز القرآن وليس تعريفًا جامعًا مانعًا.

وممَّا قيل في تعريف الإعجاز إنه: إظهار صدق النبي ﷺ في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب عن معارضته في معجزته الخالدة، وهي القرآن، وعجز الأجيال بعدهم عن ذلك[٢].

والتعريفات كثيرة، وليس الغرض استقصاؤها، ولكني أقف مع ما سبق وقفات:

١ ـ من العلماء من يُعَرِّف إعجاز القرآن بناء على الوجه المترجِّح عنده في إعجاز القرآن، كما صنع الكفوي إذ عرَّف إعجاز القرآن بأنه: ارتقاؤه في البلاغة إلى أن يخرج عن طور البشر.

٢ ـ ممَّا سبق في التعريف اللغوي للإعجاز يتبين أن معنى الإعجاز في اللغة يدور على الضعف، ومؤخرة الشيء، ولكن هذا العجز لا يلزم منه سبق تحدٍّ، بمعنى أن اللغة العربية ليس فيها ما يجعل كل إعجاز مسبوقًا بالتحدي كي يسمَّى إعجازًا، وإنما غاية ما هنالك أن الإعجاز في اللغة يعني عدم إمكان اللحاق، وسبق من عداه، وهذا شيء، والتزام التحدي شيء آخر، وعليه فمن يُعَرِّف الإعجاز ويلحظ فيه ذكر التحدي ينظر كذلك إلى الإعجاز اللغوي، والله أعلم.

٣ ـ من أجود التعريفات التعريف الأخير، **وهو الذي يُعرِّف الإعجاز بأنه:** إظهار صدق النبي ﷺ في دعوى الرسالة بإظهار عجز العرب

---

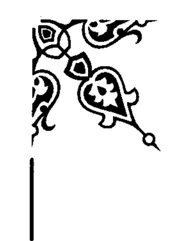
(١) إعجاز القرآن البياني، ودلائل مصدره الرباني (ص١٧).

(٢) الواضح في علوم القرآن (ص١٥١).

عن معارضته في معجزته الخالدة وهي القرآن، وعجز الأجيال بعدهم عن ذلك.

وذلك أن هذا التعريف خلا من الملاحظات السابقة، وينطبق على أنواع الإعجاز، والله أعلم.







المَبْحَثُ الثَّانِي

نشأة علم إعجاز القرآن

كان العرب زمان النبي ﷺ يعلمون من أنفسهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، ولذا فإنه مع تعدد آيات التحدي إلا أنهم أحجموا عن هذا الأمر.

يقول الخطابي(١) رَحِمَهُ اللهُ: (والأمر في ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندلَّ عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر، من لدن عصر نزوله إلى الزمن الراهن الذي نحن فيه، وذلك أن النبي ﷺ قد تحدَّى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه وانقطعوا دونه، وقد بقي النبي ﷺ يطالبهم به مدة عشرين سنة، مظهرًا لهم النكير، زاريًا على أديانهم، مسفِّهًا آراءهم وأحلامهم، حتى نابذوه وناصبوه الحرب فهلكت فيه النفوس، وأريقت المُهج، وقُطعت الأرحام، وذهبت الأموال)(٢).

واستمرَّت هذه الحال في زمن الصحابة رضوان الله عليهم، وكبار التابعين، وفي أواخر زمن التابعين كثر اختلاط العرب بالأمم الأخرى أيام الفتوحات، فضعف اللسان العربي، (وبدأ الناس يفكرون بطريقة عقلية مجردة عن التذوق الجمالي وإدراك المعاني بالسليقة

---

(١) **الخطابي**: حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب أبو سليمان الخطابي المولود سنة ٣١٩هـ، والمتوفى سنة ٣٨٨هـ، **انظر**: البداية والنهاية (١١/ ٣٩٤)، وسير أعلام النبلاء (١٧/ ٢٣).

(٢) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢١).

الصافية)[١]، وحينها ظهرت المذاهب الكلامية، وفي أواخر القرن الثاني ظهر الكلام في إعجاز القرآن، وذلك في بيئة كلامية احتدم فيها الجدل، واستعرَّت فيها الخصومة[٢]، وكان من آثار اختلاط العرب بغيرهم من الأمم أن نقلت بعض الأقوال التي كانت تقولها بعض الفرق في كتبها؛ كقول بعض الهنود في كتاب لهم يقال له «الفيدا»: إن البشر صُرفوا عن معارضته، فجاء النظَّام[٣] فقال في القرآن الكريم مثل ذلك القول[٤]، وكان من أوائل من ردَّ عليه الجاحظ[٥]، فقد أَلَّف كتاب «نظم القرآن» يرد فيه هذا القول[٦].

وأما أول من استعمل كلمة إعجاز بهذا المعنى المتعارف عليه عند العلماء، فمن «الصعب جدًّا أن نحدد الزمن أو المكان الذي استعملت فيه كلمة إعجاز أول مرة بهذا المعنى»[٧]، ولكن من المؤكد أن هذه الكلمة لم تكن شائعة قبل منتصف القرن الثالث، ويدل لذلك أن بين أيدينا كتابًا أُلِّف في ذلك القرن، وأشار إلى إعجاز القرآن بلفظ الآية، وهو كتاب «الدين والدولة في إثبات نبوة محمد ﷺ»، من تأليف: علي بن ربن الطبري[٨]،

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن (ص٤٦).

(٢) **انظر**: فكرة إعجاز القرآن (ص٣٩ ـ ٤٠)، مباحث في إعجاز القرآن (ص٤٦).

(٣) **النظام**: أبو إسحاق إبراهيم بن سيَّار الضُّبعي البصري، توفي سنة ٢٢٧هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٠/٥٤١)، الوافي بالوفيات (٦/١٢ ـ ١٩).

(٤) **انظر**: المعجزة الكبرى، للشيخ محمد أبو زهرة (ص٧٨ ـ ٧٩)، الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره (ص٥٢).

(٥) أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي، ولد سنة ١٦٣هـ، وتوفي سنة ٢٥٥، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١١/٥٢٦)، الأعلام (٥/٧٤).

(٦) **انظر**: مداخل إعجاز القرآن (ص٦٩).

(٧) فكرة إعجاز القرآن (ص٧) بتصرف.

(٨) **الطبري الطبيب**: علي بن سهل بن ربن أبو الحسن، ولد بطبرستان، وتوفي سنة ٢٤٧هـ، **انظر**: الأعلام (٤/٢٨٨).

وكان نصرانيًا متعمِّقًا في النصرانية، فاعتنق الإسلام، فأنكر عليه النصارى إسلامه، فألَّف كتابه في الرد عليهم، وإثبات نبوة محمد ﷺ، ولما تعرَّض لتقرير دلائل نبوته ﷺ ذكر القرآن الكريم، ووصفه بالآية[(١)].

ثم توالت التآليف في إعجاز القرآن؛ ككتاب «إعجاز القرآن» للواسطي[(٢)]، والذي يعتبر أول كتاب بعنوان «إعجاز القرآن»، ولكنه من الكتب التي فُقدت[(٣)]، وكتابُ القول في بيان إعجاز القرآن» للخطابي رحمهم الله تعالى.

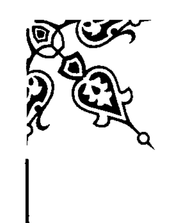
وبهذا فإن مرحلة النشأة لعلم إعجاز القرآن الكريم تكون قد استقرت، وانتقل هذا العلم إلى مراحل أخرى من التأصيل والتمثيل، والله أعلم.



(١) **انظر**: فكرة إعجاز القرآن (ص٧)، إعجاز القرآن البياني، ودلائل مصدره الرباني (ص٨١ ـ ٨٢).

(٢) **الواسطي**: أبو عبد الله محمد بن زيد بن علي، توفي سنة ٣٠٦هـ، **انظر**: الأعلام (٦/ ١٣٢).

(٣) **انظر**: إعجاز القرآن الكريم (ص٣٩).


المبحث الثالث

أهم المؤلفات في إعجاز القرآن

مرَّ التأليف في إعجاز القرآن بمراحل متعددة، ويمكن تقسيمها إلى ثلاث مراحل[١]:

* **المرحلة الأولى**: مرحلة الإشارة إلى إعجاز القرآن الكريم ضمن مؤلفات في علوم أخرى:

ومما يدخل في هذه المرحلة من الكتب:

- نظم القرآن[٢]، وهو من أهم المؤلفات، وأول ما أُلّف في هذا الفن، وإن كان مفقودًا، وغالب مؤلفات الجاحظ الأخرى فيها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم.
- تأويل مشكل القرآن[٣].

* **المرحلة الثانية**: مرحلة الرسائل والمؤلفات الصغيرة:

ومما يدخل في هذه المرحلة:

- كتاب «إعجاز القرآن»[٤].
- القول في بيان «إعجاز القرآن»[٥].

---

(١) **انظر في هذا التقسيم**: إعجاز القرآن الكريم للدكتور فضل عباس (ص٣٣).

(٢) مؤلفه الجاحظ .

(٣) مؤلفه ابن قتيبة، وقد طبع طبعات منها طبعة دار الكتب العلمية.

(٤) للواسطي، وهو مفقود.

(٥) مؤلفه الخطابي، وهو مطبوع ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، =

• النكت في «إعجاز القرآن»(١).

وإنما كانت هذه المؤلفات ممَّا يندرج ضمن هذه المرحلة لأنها أجزاء صغيرة لا تصل إلى حجم الكتب التي كُتبت في المرحلة التي تلتها، وإن كانت مما يتضمَّن علمًا غزيرًا.

* **المرحلة الثالثة**: مرحلة الكتب:

• إعجاز القرآن(٢).

• دلائل الإعجاز(٣).

• معترك الأقران في إعجاز القرآن(٤).

والكتب المؤلفة في الإعجاز بعد ذلك كثيرة جدًّا، وخاصة في عصرنا هذا، وإنما أردت ذكر كتبٍ بنى عليها جُل من كتب في الإعجاز، والله أعلم.



= حققها وعلق عليها محمد خلف الله، والدكتور محمد زغلول سلام، طبع دار المعارف بمصر.

(١) مؤلفه أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، والكتاب مطبوع ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، حققها وعلق عليها محمد خلف الله، والدكتور محمد زغلول سلام، طبع دار المعارف بمصر.

(٢) للباقلاني، وقد طبع عدة طبعات من أجودها طبعة دار المعارف التي حققها العلَّامة أحمد صقر.

(٣) ألفه الشيخ عبد القاهر الجرجاني، ومن أنفس تحقيقاته تحقيق العلَّامة محمود شاكر، طبعته مطبعة المدني بالقاهرة.

(٤) مؤلفه الإمام السيوطي، وهو مطبوع طبعته دار الكتب العلمية في بيروت.

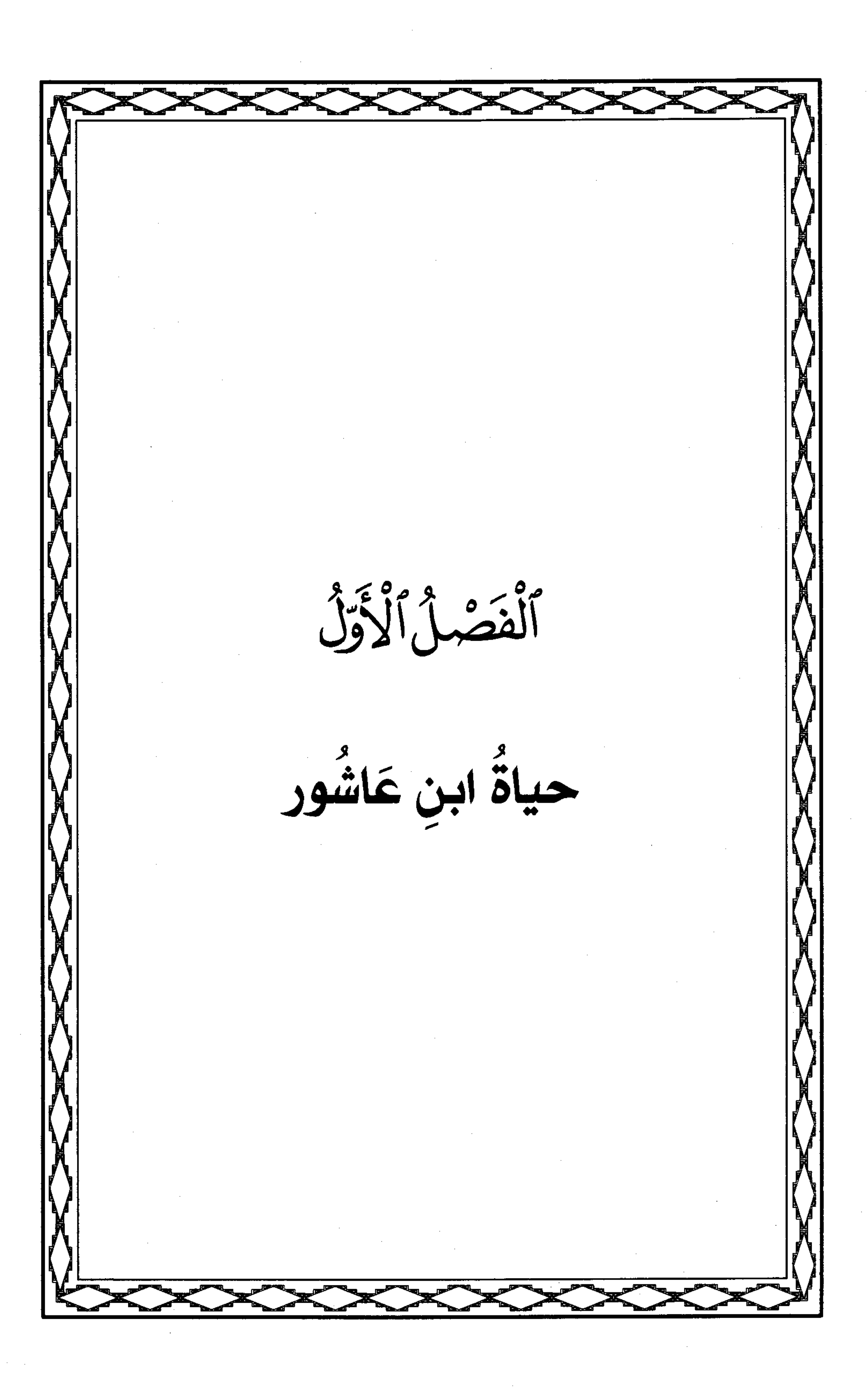




البَابُ ٱلْأَوَّلُ

حياةُ ابنِ عاشور، ومنهجُه في الاسْتِدْلَالِ لإعجازِ القرآنِ، وذكرُ مصادرِه فيه

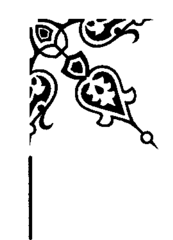




ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ

حياةُ ابنِ عَاشُور







المَبْحَثُ الأَوَّلُ

سيرةُ ابنِ عاشُور الذاتيةُ

إنَّ تناول حياة العلماء الشخصية بالدراسة والتأمل، مما يُعين على معرفة أسباب نبوغهم في العلم، ويساعد على التأسي بالصفات الحميدة التي برزت في حياتهم.

ولذا كانت هذه الدراسة لسيرة العلَّامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ الذاتية، نتأمل فيها جانبًا من الجوانب لا بد للباحث من الإلمام به، وهو يتناول بالدراسة شيئًا مما يتعلق به رَحِمَهُ اللَّهُ، **ويشتمل هذا المبحث على ثلاثة مطالب:**

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

اسمه، وشهرته، ونسبه، ومولده، ووفاته

هو الشيخ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن مَحمد (بفتح الميم) بن عاشور المشتهر بالطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ[1].

وقد حرصت الكتب التي عنيت بترجمة الشيخ محمد الطاهر رَحِمَهُ اللَّهُ ببيان نسبه لما في معرفة هذا النسب من الاطلاع على سبب من أسباب تمكن الشيخ محمد الطاهر في كثير من العلوم، ألا وهو تعدد العلماء من أجداده رحمهم الله تعالى.

---

(١) **انظر:** من أعلام الزيتونة (ص٣٥)، شيخ الإسلام (ص١٥٣)، محمد الطاهر (ص٢٢).

وقد تواطأت المصادر التي ترجمت للعلَّامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ على تسميته بمحمد الطاهر اسم مركب[(١)]، ولم أجد فيما اطَّلعت عليه من مصادر ترجمته مَن سمَّاه باسم محمد مفردًا مما يفيد أن اسمه من الأسماء المركبة.

• مولده:

ولد العلَّامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ في ضاحية المرسى[(٢)]، وكان مولده في قصر جده لأمه الوزير محمد العزيز بو عتور رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان مولده في شهر جمادى الأولى سنة ١٢٩٦هـ الموافق لشهر سبتمبر/ أيلول سنة ١٨٧٩م.

ولم تحدد المصادر التي اطَّلعت عليها يوم مولده، وإنما ذكرت الشهر والسنة التي ولد فيها رَحِمَهُ اللَّهُ[(٣)].

• وفاته:

تُوفِّي العلَّامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ يوم الأحد ١٣ رجب سنة ١٣٩٤هـ، الموافق ١٢ أغسطس/ آب سنة ١٩٧٣م في مسقط رأسه في بلدة المرسى، وعمره آنذاك أربع وتسعون سنة، ودفن في مقبرة الزلَّاج في مدينة تونس[(٤)].

---

(١) **انظر**: السابق.

(٢) **المرسى**: بلدة تقع شمال العاصمة التونسية على بعد عشرين كيلو مترًا منها، **انظر**: محمد الطاهر (ص٢٥)، من أعلام الزيتونة (ص٣٧).

(٣) **انظر**: من أعلام الزيتونة (ص٣٧)، شيخ الإسلام (ص١٥٣)، محمد الطاهر (ص٢٥).

(٤) **انظر**: من أعلام الزيتونة (ص٦٨)، شيخ الإسلام (ص١٦٩)، محمد الطاهر (ص٨٧).

المَطلَبُ الثَّاني
أسرته، ومكانته الاجتماعية

أولًا: أسرته:

تعتبر أسرة العلَّامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ من أبرز الأسر التونسية، ويعود أصل هذه الأسرة إلى مَحمد بن عاشور، وهو من أشراف الأندلس، خرج والده من الأندلس فرارًا من التنصير، وسكن في مدينة سلا من أرض المغرب الأقصى، وفيها ولد له ولده مَحمد.

وقد قدم مَحمد إلى تونس سنة ١٠٦٠هـ بعد عودته من الحج، وله من العمر ثلاثون سنة، واستقر بها، وتزوج منها، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ عالمًا عاملًا صالحًا، وتوفي سنة ١١١٠هـ[١].

وقد برز في هذه الأسرة علماء عدة، وليس من غرضي أن أعرف بكل واحدٍ منهم، ولكن غرضي التعريف بقرابة العلَّامة محمد الطاهر بن عاشور، وأكتفي هنا بذكر أجداد العلَّامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ من جهتي الأب، والأم، ثم زوجته، وأبناؤه، **وذلك كما يلي**:

*** جده من جهة الأب:**

هو العلَّامة محمد الطاهر بن محمد بن الشاذلي بن عبد القادر المولود سنة ١٢٣٥هـ، والمُتوفَّى سنة ١٢٨٤هـ، أديب وقاض ومُفتٍ مالكي، توفي والده وهو صغير، فتعهده أخوه بالتربية والتعليم، قرأ بجامع الزيتونة.

فأخذ عن علمائه كابن ملوكة[٢]، ومحمد بيرم الثالث[٣]، وإبراهيم

---

(١) **انظر**: محمد الطاهر (ص٢٢).

(٢) محمد بن صالح بن مجدي بن ملوكة التونسي، توفي سنة ١٢٧٦هـ، **انظر**: الأعلام (١٤٦/٦)، معجم المؤلفين (٨٨/١٠).

(٣) محمد بن محمد بن محمد بن حسين بن أحمد التونسي، المعروف ببيرم الثالث =

الرياحي[١]، وغيرهم.

وبرع في الأصول والفروع، وكان في العلوم العقلية أحسن منه في الفقه، ثم تدارك هذا النقص بالانقطاع إلى الفقه، حتى برع فيه، وجرى مع فحول الفقهاء، وكان لا يذكر فقهًا إلّا بدليله، وبعد إتمام دراسته درّس البلاغة، وشرح المحلّى بجامع الزيتونة في ١٢٥٩هـ وأخذ عنه كثيرون، وقلّد في ١٢٦٧هـ منصب قاضي القضاة بتونس.

وفي دولة المشير محمد الصادق باي[٢] اعتزل منصب قاضي القضاة وتقلد الإفتاء ونقابة الأشراف حتى مات، له مؤلفات كثيرة منها: «شفاء القلب الجريح بشرح بُردة المديح»، طبع في مصر (١٢٩٦هـ)، و«هدية الأريب إلى أصدق حبيب»، وهو حاشية على قطر الندى، طبع بمصر في تلك السنة أيضًا، وكان كتابًا مدرسيًّا في مدرسة الزيتونة بتونس إلى وقت إصلاح النظام الدراسي في ١٩٥٨م، وله أيضًا: «الغيث الإفريقي»، وهو ملاحظات على حاشية عبد الحكيم السيالكوتي[٣] على المطوّل، في البلاغة، لم يتم، وتوجد نسخ منه في

= أبو عبد الله، ولد في ٢٧ ربيع الأول ١٢٠١هـ، وتوفي سنة ١٢٥٩هـ، **انظر**: الأعلام (٧/ ٧٢)، معجم المؤلفين (١١/ ٢٧٦).

(١) إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد بن إبراهيم الطرابلسي الأصل، الرياحي، التونسي المالكي أبو إسحاق، المولود سنة ١١٨٠هـ، والمتوفى سنة ١٢٦٦هـ، **انظر**: الأعلام (١/ ٤٨)، معجم المؤلفين (١/ ٤٩)، أعلام تونسيون (ص٤٩).

(٢) محمد بن حسين بن محمود، المعروف بمحمد الصادق باي، حاكم تونس، ولد سنة ١٢٢٩هـ، وتوفي سنة ١٢٩٩هـ، **انظر**: الأعلام (٦/ ١٠٤).

(٣) عبد الحكيم بن شمس الدين الهندي السيالكوتي البنجابي: من أهل سيالكوت التابعة للاهور، بالهند، توفي سنة ١٠٦٧هـ، **انظر**: الأعلام (٣/ ٢٨٣)، معجم المؤلفين (٥/ ٩٥).

مكتبة الزيتونة بتونس[١].

*** جده من جهة الأم:**

الوزير محمد العزيز بو عتور: هو الوزير العالم محمد العزيز بن محمد الحبيب بن محمد الطيب ابن الوزير محمد بو عتور المولود سنة ١٢٤٠هـ، الموافق ١٨٢٥م، وهو جد العلَّامة محمد الطاهر بن عاشور لأمه، وقد تلقى العلم على كبار علماء بلده من أمثال محمد الطاهر بن عاشور الجد، ومحمد الشاذلي بن صالح[٢]، وبرع في الكتابة وأنواع العلوم اللسانية، وجلس لتدريس البلاغة في جامع الزيتونة، تُوفِّي سنة ١٣٢٥هـ، الموافق ١٩٠٧م[٣].

*** والداه رحمهما الله تعالى:**

أ ـ أبوه: هو محمد بن محمد الطاهر بن محمد بن محمد الشاذلي، تولى رئاسة مجلس دائرة جمعية الأوقاف، ثم تولى نيابة الجمعية نفسها بعد أن عيَّنت الدولة بدلًا عنه محمد البشير صفر[٤]، ونلحظ أن بروز والد العلَّامة ابن عاشور رحم الله الجميع كان في الوظائف الإدارية، وهذا لا يمنع أنه استفاد من والده العلَّامة محمد الطاهر الجد، ولم أجد من ذكر تاريخ مولده ووفاته.

ب ـ أمه: هي فاطمة بنت الوزير محمد العزيز بن محمد الحبيب بن

---

(١) **انظر**: الأعلام (٦/ ١٧٣)، معجم المؤلفين (١٠/ ١٠١).

(٢) أبو عبد الله محمد الشاذلي بن صالح، ولد سنة ١٢٢٥هـ، وتوفي سنة ١٣٠٨هـ، **انظر**: الأعلام (١٠/ ٥٩).

(٣) **انظر**: الأعلام (٦/ ٢٦٨).

(٤) محمد البشير صفر، ولد بتونس سنة ١٢٨٠هـ، وتوفي سنة ١٣٣٥هـ، **انظر**: أعلام تونسيون (ص١٢١).

محمد الطيب بن الوزير محمد بو عتور، وقد كان زواجها ثمرة صلات والدها الوزير محمد العزيز بوعتور بالعلَّامة محمد الطاهر الجد، فطلب العلَّامة محمد الطاهر الجد من الوزير محمد العزيز أن يتزوج ابن الأول من ابنة الأخير(١).

* **زوجته، وأبناؤه:**

أ ـ **زوجته**: تزوج العلَّامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ بالشريفة فاطمة بنت نقيب الأشراف بتونس محمد محسن، وأسرة محسن من الأسر التي لها مكانتها في المجتمع التونسي، وذلك لأن إمامة جامع الزيتونة كانت فيهم لفترة طويلة من الزمن(٢).

ب ـ **أبناؤه**: رُزق العلَّامة ابن عاشور ستة من الولد، أربعة من الذكور، وهم:

١ ـ المرتضى، وقد توفي طفلًا في السابعة.

٢ ـ محمد الفاضل، وقد برز في العلم، وتولَّى التدريس في الزيتونة، ثم عيِّن عميدًا لكلية الشريعة في الزيتونة، ثم نصِّب مفتيًا للجمهورية التونسية، ومن كتبه: التفسير ورجاله، ومضات فكر، تراجم الأعلام، وغيرها، تُوفِّي سنة ١٣٩٠هـ قبل وفاة والده بثلاث سنين.

٣ ـ عبد الملك، وله بحوث وتحقيقات نشرت في المجلات التونسية، وجمع بعض بحوث والده المتناثرة في الصحف، والمجلات.

٤ ـ زين العابدين بن عاشور، وقد تُوفِّي قبل وفاة والده سنة ١٣٦٦هـ.

---

(١) **انظر**: شيخ الإسلام (ص١٥٣)، من أعلام الزيتونة (ص٣٦).

(٢) **انظر**: محمد الطاهر (ص٢٦).

كما رزق رَحِمَهُ اللَّهُ بنتين **وهما:**

صفية، وأم هانئ، وهما أكبر من الذكور[١].

ثانيًا: مكانته الاجتماعية:

لا شك أن شخصًا كابن عاشور كان له منزلته البارزة في المجتمع، وذلك من خلال إسهاماته في مجالَي التعليم والفتوى، وصِلاته العلمية بأعلام عصره، ومشاركاته في المؤتمرات العلمية، **وهذا ما سنقف عنده وقفات موجزات تشتمل على ما يلي:**

* المشاركة العلمية في قضايا المجتمع:

كان لابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ مشاركة في القضايا البارزة في المجتمع من خلال مناقشتها، وتأليف الكتب فيها تارة، ومن خلال الفتاوي تارة أخرى، **ومن أمثلة مشاركة ابن عاشور في قضايا المجتمع:**

أ ـ مناقشة ابن عاشور لكتاب «الإسلام وأصول الحكم» الذي أَلَّفه علي عبد الرازق[٢]، وقد أثار هذا الكتاب نقاشًا علميًّا واسعًا، وذلك لما يحويه من آراء خالف فيها المؤلف النصوص الشرعية، وكان ممن ردَّ عليه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، فكتب كتابه «نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم».

ب ـ فتوى ابن عاشور في موضوع التجنُّس بالجنسية الفرنسية،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) **هو:** علي بن حسن بن أحمد عبد الرازق، ولد سنة ١٣٠٥هـ، وتوفي سنة ١٣٨٦هـ، وهو صاحب كتاب الإسلام وأصول الحكم، وقد كثرت ردود العلماء عليه، وسحبت منه شهادة الأزهر بسبب ما ورد في كتابه من أخطاء، **انظر:** الأعلام (٤/ ٢٧٦).

وذلك أمرُ كان قد شغل الناس في عصر ابن عاشور، إذ أعلنت فرنسا فتح باب التجنيس بالجنسية الفرنسية لأبناء تونس في سياسة مؤدَّاها طمس الدين في البلدان التي احتلتها، وقد تفطَّن العلماء حينها لهذا الغرض فأفتوا بحرمة التجنس بالجنسية الفرنسية، وبوجوب التوبة على من تجنَّس بالجنسية الفرنسية، والتخلِّي عن الامتيازات التي تعطيها هذه الجنسية لصاحبها.

وممن أفتى بهذا الشيخ محمد الطاهر بن عاشور حين كان شيخ الإسلام المالكي، وهذا المنصب يمثل رئاسة اللجنة الشرعية لعلماء المالكية في تونس(١).

* **الصِّلات بأعلام العصر:**

كان ابن عاشور على صلة بأعلام عصره، ومن ذلك صلته بالشيخ محمد الخضر حسين(٢):

لقد انعقدت بين الشيخ العلَّامة محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ العلَّامة محمد الخضر حسين ـ ١٢٩٣ ـ ١٣٧٧هـ صداقة عظيمة تعد مثالًا رائعًا في صدق المودَّة، ورعاية الحقوق، والوفاء، ونحو ذلك من المعاني الجميلة؛ فلقد كانا قرينين في طلب العلم بجامع الزيتونة، وبينهما من العمر أربع سنوات، حيث ولد الخضر عام ١٢٩٣هـ، وولد الطاهر عام ١٢٩٧هـ.

ولقد فَرَّق الاستعمار بينهما، حيث حكم على الشيخ الخضر

---

(١) **انظر**: من أعلام الزيتونة (ص١٤١)، شيخ الإسلام (٤٥٤).

(٢) **هو**: محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر الحسني التونسي، ولد سنة ١٢٩٣هـ، وتوفي سنة ١٣٧٧هـ، **انظر**: الأعلام (٦/ ١١٣).

بالإعدام والجلاء، فخرج من تونس عام ١٣٣١هـ وتقلَّب في عدد من البلاد ومات في مصر.

وكان كثيرًا ما يُكاتب الطاهر، ويرد على كتاباته، ويبعث إليه أشواقه، وتهانيه إذا ما تقلَّد منصِبًا.

وهذا نموذج ممَّا كان بينهما من مودَّة ومُكاتبات، وهي قصيدة بعنوان «عواطف الصداقة».

فبعد هجرة الشيخ الخضر من تونس عام ١٣٣١هـ بعث إليه صديقه محمد الطاهر بن عاشور وهو كبير القضاة بتونس رسالة **مصدَّرة بالأبيات التالية:**

بَعُدْتَ ونفسي في لِقَاكَ تَصِيدُ ... فلم يُغنِ عنها في الحنانِ قَصِيدُ
وخلَّفتَ ما بين الجَوانِحِ غُصَّةً ... لها بينَ أحشاءِ الضُّلوع وَقُودُ
وأضحتْ أمانيْ القرب منك ضئيلةً ... ومرُّ الليالي ضعفها سيزِيدُ
أتذكرُ إذ ودَّعْتنا صبحَ ليلةٍ ... يموجُ بها أُنسٌ لنا وبُرودُ
وهلْ كان ذا رمزًا لتوديع أُنْسِنَا ... وهل بعد هذا البَيْنِ سَوفَ يَعُودُ
ألم ترَ هذا الدهرَ كيفَ تلاعبت ... أصابِعُهُ بالدُّرِّ وهو نَضِيدُ
إذا ذَكَرُوا للودِّ شخصًا مُحَافِظًا ... تجلَّى لنا مَرآكَ وهو بعيدُ
إذا قيل: مَنْ للعلم والفكر والتقى ... ذكرتُك إيقانًا بأنَّك فَريدُ
فقل لليالي: جَدِّدي من نِظَامِنَا ... فَحَسْبُكِ ما قد كان فهو شديدُ

ثم كتب تحت هذه الأبيات:

(هذه كلمات جاشت بها النفس الآن عند إرادة الكتابة إليكم، فأبثها على عِلَّاتها، وهي وإن لم يكن لها رونق البلاغة والفصاحة، فإن الود والإخاء والوجدان النفسي يترقرق في أعماقها).

ولما وصلت تلك الرسالة إلى الشيخ محمد الخضر حسين **أجاب بالأبيات التالية:**

أَيَنْعَمُ لي بالٌ وأنتَ بَعِيدُ … وأَسْلُو بطَيفٍ والمنَامُ شَرِيدُ
إذا أَجَّجتْ ذكراكَ شوقيَ أُخْضِلَتْ … لَعمريْ بدمعِ المُقْلَتَينِ خُدُودُ
بَعُدْتُ وآمادُ الحياة كثيرةٌ … وللأمدِ الأسْمَى عليَّ عُهُودُ
بعدتُ بجثماني وروحي رهينةٌ … لديكَ وللوُدِّ الصميمِ قُيُودُ
عرفتُكَ إذ زرتُ الوزيرَ وقد حنى … عليَّ بإقبال وأنتَ شهيدُ
فكان غروبُ الشمس فجْرَ صداقةٍ … لها بين أحناءِ الضلوعِ خلودُ
لقيتُ الودادَ الحرَّ من قلبِ ماجدٍ … وأصدقُ من يُصْفي الودادَ مجيدُ
ألم تَرْمِ للإصلاحِ عن قوسِ نافذٍ … درى كيف يُرعى طارفٌ وتَلِيدُ
وقُمْتَ على الآدابِ تحمي قديمها … مخافةَ أن يطغى عليه جديدُ
أتذكرُ إذ كنَّا نباكرُ مَعْهَدًا … حُميَّاه عِلْمٌ والسُّقاةُ أُسُودُ
أتذكرُ إذ كنَّا قرينينِ عندما … يحينُ صُدورٌ أو يحينُ وُرُودُ
فأينَ ليالينا وأسمارُها التي … تُبلُّ بها عند الظماء كُبودُ
ليالٍ قضيناها بتونسَ لَيْتَهَا … تعودُ وجيشُ الغاصبينَ طَرِيدُ[1]

*** المشاركة في المؤتمرات الدولية:**

كان لابن عاشور مشاركة في بعض اللقاءات، والمؤتمرات الدولية، ومن ذلك: المشاركة في مؤتمر المستشرقين المنعقد في مدينة استانبول في تركيا عام ١٩٥١هـ[2]، وقد قال ولده الشيخ محمد الفاضل عن هذه

---

(١) **انظر:** محمد الطاهر (ص٦٧ ـ ٧٠).

(٢) **هو:** المؤتمر الدولي الثاني والعشرون، وعقد في استانبول في الفترة من ١٥إلى ٢٢ أيلول ١٩٥١م. بلغت محاور المؤتمر خمسة عشر محورًا، كان أحدها الشؤون الإسلامية وقد تضمن محاور فرعية هي أ ـ اللغة العربية وآدابها، ب ـ التاريخ والثقافة، ج ـ الاجتماعيات. وقد حضر هذا المؤتمر عدد من المستشرقين المشهورين =

الرحلة، وسفره مع أبيه فيها: (وكانت رحلة أُعِدُّها من غرر الحياة، فلم نكن نمثِّل دولة، ولا منظمة، وكانت لنا فرصة لزيارة تلك المدينة التي هي أم التاريخ الحديث، ومجلى الجمال الساحر، ومجمع الكنوز النفيسة من المعالم والآثار والكتب)[١].

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

عقيدته، ومذهبه الفقهي

أولًا: عقيدته:

يتبيَّن للناظر في كتب ابن عاشور أنه من حيث الجملة أشعري المعتقد، وفي عدد من المواضع في تفسيره يحكي قول الأشاعرة بقوله: أصحابنا، أو أصحابنا الأشاعرة، أو أصحابنا الأشعرية، **ومن ذلك قوله عند تفسيره لقول الله تعالى:** ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]: (وتقدَّم القول في هذا عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] في سورة الأعراف، وإنما أعدنا بعضه هنا لأن هذه الآية هي المشتهرة بين أصحابنا الأشعرية)[٢].

وفي أثناء تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] **يقول:** (ووصف الضلال بالمبين دون وصف الهدى بالمبين، لأن حقيقة الهدى مقول عليها بالتواطئ وهو معنى قول

= من أمثال هاملتون جب، وغليوم، وهنري ماسيه، ولوي ماسنيون، وغارسيا غوميت، ومينورسكي. وقد حضر بعض رجال الدين النصارى مثل الأب لاتور، والأب باريخا، **انظر**: مجلة المشرق، السنة السادسة والأربعون، الجزء الأول، كانون الثاني ـ شباط ١٩٥٢م. (ص١٠٢ ـ ١١٦). نقلًا عن موقع مركز المدينة للدراسات وبحوث الاستشراق على هذا الرابط http://www.madinacenter.com/

(١) من أعلام الزيتونة (ص٦٥ ـ ٦٦) نقلًا عن تراجم الأعلام (١٩ ـ ٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ١٨٧).

أصحابنا الأشاعرة: الإيمان لا يزيد ولا ينقص في ذاته، وإنما زيادته بكثرة الطاعات، وأما الكفر فيكون بإنكار بعض المعتقدات وبإنكار جميعها وكل ذلك يصدق عليه الكفر)[1].

ومن خلال هذين النقلين يتبيَّن أن ابن عاشور أشعري المعتقد، وإنما قلت في بداية الكلام: من حيث الجملة؛ لأني وجدت كلامًا لأحد الباحثين في هذا الأمر، وهو الشيخ محمد بن حسن العمري، وقد كتب رسالة ماجستير في منهج الطاهر بن عاشور في أصول الاعتقاد، وتقدم بها إلى قسم العقيدة في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، **وقد لخَّص في آخرها ما توصل إليه فقال**: (بعد أن انتهيت - بعون الله وتوفيقه - من بيان منهج ابن عاشور في مسائل الاعتقاد أود أن أجمل أهم نتائج هذا البحث **وهي فيما يلي**:

أ - التزام ابن عاشور بالمذهب الأشعري في مسائل الاعتقاد على وجه العموم. . .

ب - مخالفة ابن عاشور المذهب الأشعري في بعض المسائل، ملتزمًا فيها بمذهب السلف. **ومن أمثلة ذلك**:

١ - استدلاله على وجود الخالق بالأدلة الشرعية العقلية. وهي أدلة النظر في الآيات الكونية والنفسية، والنظر في معجزات الأنبياء، والفطرة. وهو وإن كان خالف السلف باستدلاله بدليل حدوث الأجسام، إلا أنه لم يقصر الاستدلال على وجود الخالق عليه كما فعل الأشاعرة وغيرهم من المتكلمين.

٢ - قوله بأن أول واجب على المكلف هو الإقرار بالشهادتين وليس النظر أو القصد إلى النظر كما زعم الأشاعرة.

---

(١) التحرير والتنوير (٢٢/ ١٩٣).

٣ ـ اهتمامه بتوحيد الألوهية، وبيان مكانته، وعظم منزلته من الدين، بخلاف ما عليه الأشاعرة من عدم الاهتمام به، والتركيز على توحيد الربوبية.

٤ ـ قوله بأن معنى كلمة التوحيد (لا إلـٰه إلا الله): لا معبود بحق إلا الله، كما قال السلف، لا أن معناها: القادر على الاختراع كما قال الأشاعرة... هذا فيما يتعلق بما وافق فيه السلف وخالف الأشاعرة)[١].

وأرى أن هذا النقل كافٍ في بيان عقيدة ابن عاشور، والله أعلم.

ثانيًا: مذهبه الفقهي:

تمذهب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بالمذهب المالكي، والذي كان ولا يزال هو المذهب المنتشر في بلدان إفريقيا، ومنها تونس، (بيد أنه قد يتوسع فيعمد إلى المنهج المقارن، وينقد هذا ويرجح دليل ذلك، ويرد على فكرة الآخر الأمر الذي يدل على استقلال في الفكر، وليس دائمًا حبيس مذهبه)[٢].

وقد تولّى ابن عاشور منصب شيخ الاسلام المالكي، وهو لقب تشريفي لمفتي المالكية في تونس، وكان مشتهرًا عند الحنفية هناك، ثم انتقل منهم إلى المالكية، فكان ابن عاشور أول من تلقب بهذا اللقب[٣]، وهو دليل بيِّن على تمكن ابن عاشور من المذهب المالكي حتى استحق هذا اللقب.

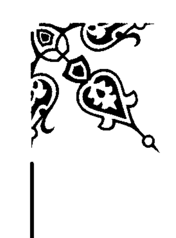
---

(١) منهج الطاهر بن عاشور في أصول الاعتقاد (ص٦٠٥ ـ ٦٠٩).

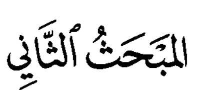
(٢) من أعلام الزيتونة (ص١٤٩).

(٣) **انظر**: من أعلام الزيتونة (ص٦٢).









المبحث الثاني

سيرةُ ابنِ عَاشُور العِلْمِيَّةُ

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المطلب الأول

نشأته العلمية، وشيوخه

أولًا: نشأته العلمية:

لقد كانت بداية ابن عاشور هي تعلم كتاب الله تعالى، لذا حرص أهله على تلقي ولدهم للقرآن الكريم، فبدأ في سن السادسة في تعلم القرآن الكريم على المقرئ محمد الخياري[1]، وحفظ معه مجموعة من المتون العلمية التي تؤهل الطالب للالتحاق بجامع الزيتونة؛ كمتن الآجرومية، ومتن ابن عاشر[2].

*** التعليم الزيتوني:**

التحق العلَّامة محمد الطاهر بن عاشور بجامع الزيتونة، وهو في الرابعة عشرة من عمره، وكان للتربية المنزلية أثرها في تقوية رغبته لطلب العلم الشرعي والنهل من معينه الصافي، وقد تلقَّى العلَّامة محمد الطاهر بن عاشور في جامع الزيتونة عددًا غير قليل من العلوم الشرعية،

---

(١) لم أجد له ترجمة.

(٢) **انظر**: من أعلام الزيتونة (٣٧)، محمد الطاهر (٢٥).

وقد كانت الزيتونة حينها منبعًا من منابع العلوم الشرعية، **ومما تلقاه في الزيتونة من العلوم مما ذكرته المصادر التي ترجمت له** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

• **القرآن الكريم وعلومه:**

قرأ القرآن وجوَّده على الشيخ عبد القادر التميمي(١)، وحفظ القرآن الكريم على الشيخ محمد الخياري.

وقرأ تفسير البيضاوي على الشيخ عمر ابن الشيخ(٢).

وقرأ الكشاف للزمخشري على الشيخ صالح الشريف(٣).

• **الحديث الشريف:**

قرأ الجامع الصحيح للبخاري بشرح القسطلاني، والموطأ بشرح الزرقاني على الشيخ سالم بوحاجب(٤).

ودرس كتب السُّنن في مرحلة الدراسة الزيتونية.

• **مصطلح الحديث:**

قرأ البيقونية، وشرح غرامي صحيح على الشيخ محمد بن عثمان النجار(٥).

---

(١) لم أجد له ترجمة.

(٢) **هو**: الشيخ عمر بن أحمد بن علي بن حسن بن علي بن قاسم، المعروف بابن الشيخ أو (سيدي عمر)، ولد سنة ١٢٣٧هـ، وتوفي سنة ١٣٢٩هـ، **انظر**: شجرة النور الزكية (١/ ٤٢٠).

(٣) **هو**: الشيخ صالح الشريف ولد عام ١٢٨٥هـ، وتوفي في جمادى الأولى سنة ١٣٣٨هـ،، **انظر**: المجلة الزيتونية، المجلد ٨، العدد ٢، (ص٧٤ ـ ٧٨).

(٤) الشيخ أبو النجاة سالم بن عمر بو حاجب النبيلي، ولد ١٢٤٣هـ، وتوفي سنة ١٣٤٢هـ، **انظر**: شجرة النور الزكية (١/ ٤٢٥)، الأعلام (٣/ ٧١).

(٥) أبو عبد الله محمد بن عثمان النجار، توفي سنة ١٣٣١هـ، **انظر**: شجرة النور الزكية (١/ ٤٢١).

• **علم الكلام:**

قرأ مختصر السَّعد على العقائد النسفية على الشيخ محمد صالح الشريف.

والمواقف في علم الكلام على الشيخ عمر ابن الشيخ، والشيخ محمد بن عثمان النجار.

والوسطى في العقيدة قرأها على الشيخ محمد النخلي.

• **علم الفقه:**

قرأ الدردير على الشيوخ أحمد جمال الدين[١]، وعمر بن عاشور[٢]، ومحمد صالح الشاهد[٣].

كفاية الطالب الربَّاني، قِرأه على الشيخ محمد العربي الدرعي[٤]، والشيخ محمد النخلي.

والتاودي على التحفة قرأه على الشيخ محمد صالح الشريف.

• **النحو، والصرف:**

ومما قرأ فيهما الكتب التالية: شرح الأزهري قرأه على الشيخين: أحمد بن بدر الكافي[٥]، ومحمد صالح الشريف.

وقطر الندى قرأه على مشايخه أحمد جمال الدين، ومحمد العزيز بو عتور، ومحمد النخلي، ومحمد صالح الشريف.

والمكودي على الألفية قرأه على الشيوخ: محمد النخلي، ومحمد بن صالح الشريف، ومحمد بن عثمان النجار.

---

(١) أحمد جمال الدين التونسي، لم تذكر المصادر تاريخ ولادته ولا وفاته، وإنما قال في معجم المؤلفين: كان حيًّا سنة ١٣٠٢هـ، **انظر**: معجم المؤلفين (١/ ١٨٤).

(٢) لم أجد له ترجمة.

(٣) لم أجد له ترجمة.

(٤) لم أجد له ترجمة.

(٥) لم أجد له ترجمة.

ولامية الأفعال قرأها على الشيخ عمر بن عاشور.

والأشموني على ابن هشام، قرأه على الشيخ محمد النخلي.

وتعليق الدماميني على مغني اللبيب، قرأه على الشيخ عمر بن عاشور.

• **والبلاغة:**

وقرأ فيها: التلخيص بشرح المطول للسَّعد، قرأه على الشيخ محمد النخلي.

ومختصر السعد في البلاغة، قرأه على الشيوخ: عمر بن عاشور، ومحمد بن عثمان النجار، ومحمد النخلي.

ودلائل الإعجاز حضر دروسًا منه على العلَّامة محمد بن يوسف[(١)].

وقرأ المفتاح للسكاكي بشرح السيد، وشرح السمرقندية[(٢)].

• **المنطق:**

قرأ: السلَّم على الشيخ محمد بن صالح الشريف.

والتهذيب على الشيخ محمد النخلي.

• **الفرائض:**

وقرأ فيها: الدرة في الفرائض قرأها على الشيخ عمر بن عاشور.

• **أصول الفقه:**

وقرأ فيه: شرح المحلي على جمع الجوامع قرأه على الشيخ محمد

---

(١) الشيخ محمد بن يوسف بن إبراهيم التركي، ولد سنة ١٢٧٤هـ، توفي سنة ١٣٥٨هـ، **انظر**: المجلة الزيتونية، المجلد الثالث، العدد ١٠، (ص٤١٢ ـ ٤١٣).

(٢) السمرقندية متن من متون البلاغة، وتعرف أيضًا بمتن الاستعارات.

طاهر جعفر[١].

الحطَّاب على الورقات، والتنقيح قرأهما على الشيخ محمد النخلي.

• **السيرة النبوية:**

وقرأ فيها: شرح الشفا، قرأه على الشيخ محمد طاهر جعفر.

• **اللغة والأدب:**

قرأ فيهما: المزهر في علوم اللغة، وشرح الحماسة، والمثل السائر.

*** حصوله على شهادة التطويع:**

ثم إن ابن عاشور ـ بفضل الله تعالى ثم بهذا التأسيس العلمي المتين، قد تفوّق في امتحاناته ومناظراته، وفي حياته العلمية والوظيفية بعد ذلك، وحقَّق عددًا من النجاحات، وأول هذه النجاحات حصوله على شهادة التطويع في ٤ ربيع الأول ١٣١٧هـ، وهي شهادة كان جامع الزيتونة يمنحها لمن درس فيه مدة من الزمن، وشهد له الشيوخ بجودة الفهم، وإمكان التصدي للتدريس[٢].

*** دراسته العليا:**

(وبعد حصوله على شهادة التطويع عاد إلى حضور دروس شيخه محمد النخلي. قرأ عليه الوسطى في العقيدة، وكتاب المحلِّي على جمع الجوامع في أصول الفقه، والمطوّل في البلاغة، والأشموني في النحو. كان ذلك سنة ١٣١٨هـ بتقييد الشيخ. كما حضر صحبة صديقه الشيخ

---

(١) لم أجد له ترجمة.

(٢) **انظر:** شيخ الإسلام (ص١٥٧ ـ ١٥٨)، محمد الطاهر (ص٢٨).

محمد الخضر حسين درس الأستاذ الشيخ عمر ابن الشيخ في تفسير البيضاوي، ودرسَ الأستاذ الشيخ محمد النجار لكتاب «المواقف»، ودرسَ الشيخ سالم لكتابَيْ البخاري والموطأ بشرحيهما. ومما لاحظه الشيخ الخضر حسين في زميله شدّةَ حرصه على العلم ودقّة نظره، متجلِّيين في ملاحظاته وبحوثه.

وقد سجَّل ابن عاشور في دفتره[١] أنه أفاد من شيخه الإمام سالم بوحاجب أدبًا وعلمًا، **قائلًا**: (قرأت صحيح الإمام البخاري، رَحِمَهُ اللهُ ورضي عنه، على شيخنا وشيخ مشايخنا العلَّامة النحرير سيدي سالم بوحاجب المفتي المالكي... بشرح شهاب الدين القسطلاني رَحِمَهُ اللهُ، قراءة تحقيق بجامع الزيتونة، وقرأت عليه من الموطأ أجزاء بشرح الشيخ الزرقاني قراءة تحقيق)[٢].

* **إجازاته العلمية:**

بعد أن طلب ابن عاشور العلم على كبار علماء جامع الزيتونة في حينه أجازه جمع منهم بما تعلمه، **ومن ذلك**:

- إجازة الشيخ سالم بوحاجب له، وقد قال فيها: (قد أجزت لابننا المذكور جميع محفوظاتي وملحوظاتي من معقول ومنقول، في فروع أو أصول، إجازةً تامة مطلقة عامة).
- إجازة جدّه الوزير الشيخ محمد العزيز بو عتور الذي أجازه بكل مروياته سنة ١٣٢١هـ.
- إجازة شيخ الإسلام محمود ابن الخوجة له.

---

(١) دفتر دروس ابن عاشور (ص٤١)، نقلًا عن كتاب: شيخ الإسلام (ص١٥٨).
(٢) شيخ الإسلام (ص١٥٨).

• إجازة العالم النابغ سيدي عمر بن أحمد ابن الشيخ سنة ١٣٢٥هـ[1].

ثانيًا: شيوخه:

تلقى الشيخ ابن عاشور العلم على جمع من العلماء المبرزين في جامع الزيتونة، **وكان من هؤلاء العلماء:**

١ ـ الشيخ أحمد بن بدر الكافي.

٢ ـ الشيخ أحمد جمال الدين.

٣ ـ الشيخ سالم بوحاجب.

٤ ـ الشيخ الوزير محمد العزيز بو عتور.

٥ ـ الشيخ محمد صالح الشريف.

٦ ـ الشيخ عبد القادر التميمي.

٧ ـ الشيخ عمر ابن الشيخ.

٨ ـ الشيخ محمد الخياري.

٩ ـ الشيخ محمد صالح الشاهد.

١٠ ـ الشيخ محمد طاهر جعفر.

١١ ـ الشيخ محمد العربي الدرعي.

١٢ ـ الشيخ محمد بن عثمان النجار.

١٣ ـ الشيخ محمد النخلي.

١٤ ـ الشيخ محمود ابن الخوجة[2].

---

(١) **انظر**: شيخ الإسلام (ص١٥٩ ـ ١٦١)، محمد الطاهر (ص٤٢).

(٢) **انظر**: شيخ الإسلام (ص١٥٥ ـ ١٥٧)، من أعلام الزيتونة (ص٤٠ ـ ٤٦، محمد الطاهر (ص٣٠ ـ ٣٩).

المَطْلَبُ الثَّانِي

وظائفه العلمية، وتلاميذه

أولًا: وظائفه العلمية:

تقلّب الشيخ ابن عاشور في مراتب التدريس، ففي سنة ١٣٢٠هـ تولّى مهام التعليم بصفة رسميّة بالجامع الأعظم، وبعدها انتدب للتدريس بالمدرسة الصادقية في عام ١٣٢١هـ، وبقي بها إلى عام ١٣٥١هـ خلا فترة مباشرته للقضاء، ثم عين عضوًا في لجنة تنقيح برامج التعليم سنة ١٣٢٦هـ، كما عيّن عضوًا بمجلس المدارس، وبمجلس إدارة المدرسة الصادقية سنة ١٣٢٦هـ، ثم ترأس لجنة فهرسة المكتبة الصادقية ابتداءً من ربيع الأول ١٣٢٧هـ، والتحق بعد ذلك بمجلس إصلاح التعليم الثاني بجامع الزيتونة، فكان عضوًا به سنة ١٣٢٨هـ، ثم عين شيخًا للجامع الأعظم سنة ١٣٥١هـ، وعيّن عميدًا للجامعة الزيتونية سنة ١٣٧٥هـ.

وخلال توليه لهذه المناصب (درّس الشرح المطوّل، وكتاب «دلائل الإعجاز في البلاغة»، و«شرح جمع الجوامع في أصول الفقه»، و«المقدمة»)[١]، وهي كما لا يخفى من أمهات الكتب في نقد التاريخ، وأصول علم الاجتماع، وديوان الحماسة. ودرّس أيضًا في الحديث موطأ الإمام مالك، وأقرأ تفسير أنوار التنزيل[٢].

وقد انتخب عضوًا بالمَجمعين: مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والمجمع العلمي العربي بدمشق. وكانت له كتابات، وتحريرات في مجلتيهما، وبغيرهما من المجلات العلمية بالشرق؛ كالموسوعة الفقهية

---

(١) المراد: مقدمة ابن خلدون.

(٢) **انظر**: شيخ الإسلام (ص١٦٥).

بالكويت، ومجلة الهداية الإسلامية بالقاهرة، وعدد من الصحف والمجلات الأخرى بالشرق كالمنار، وبتونس كالسعادة العظمى[1].

ثانيًا: تلامذته:

لقد كان لهذه الجهود العلمية ثمرتها الظاهرة في تونس، وفي جامع الزيتونة خاصة، **وفي هذا يقول الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة**: (وقد تخرجت بشيخنا العلَّامة محمد الطاهر بن عاشور أجيال كثيرة، كانت تجلس إليه في حلقة درسه بالمسكبة الأخيرة من بيت الصلاة بجامع الزيتونة، وكان مقر دروسه بين أبواب البلور على مقربة من باب الشفاء بجوار حلقة شيخه مقدم علماء الحنفية الشيخ محمد بن يوسف. فكانا رأس أئمة العلم بهذا المعهد يحتشد الطلاب في حلقتيهما يجلسون أسماطًا على شكل بيضوي دائري حول شيخيهما. ويكون من بينهم الشيوخ المدِّرسون، والمتطوِّعون، وكبار الطلاب الذين يستعدون للمشاركة في امتحان التطويع أو التدريس)[2]، **ومن هؤلاء الطلاب الذين حفظت الكتب المترجمة لابن عاشور أسماءهم:**

١ - أبو الحسن بن شعبان الأديب الشاعر المولود في تونس سنة ١٣١٥هـ الموافق ١٨٩٧م، والمُتوفَّى سنة ١٣٨٣هـ، الموافق ١٩٦٣م.

٢ - محمد الصادق ابن الحاج محمود، المعروف ببسيس المولود في سنة ١٣٣٢هـ الموافق ١٩١٤م، والمُتوفَّى سنة ١٣٩٨هـ الموافق ١٩٧٨م.

٣ - محمد الصادق بن محمد الشطي المولود في سنة ١٣١٢هـ الموافق ١٨٧٤م، والمُتوفَّى سنة ١٣٦٤هـ الموافق ١٩٤٥م.

---

(١) **انظر**: شيخ الإسلام (ص١٦٥ - ١٦٩)، من أعلام الزيتونة (ص٥٦)، محمد الطاهر (ص٥٠).

(٢) شيخ الإسلام (ص١٦٥).

٤ ـ محمد الفاضل بن محمد الطاهر بن عاشور المولود في المرسى بتونس سنة ١٣٢٧هـ الموافق ١٩٠٩م، والمتوفى سنة ١٣٩٠هـ الموافق ١٩٧٠م.

٥ ـ محمد العيد آل خليفة المولود سنة ١٣٢٣هـ الموافق ١٩٠٤م، والمُتوفَّى سنة ١٣٩٩هـ الموافق ١٩٧٩م.

٦ ـ محمد الشاذلي النيفر المولود سنة ١٣٣٠هـ الموافق ١٩١١م، والمُتوفَّى سنة ١٤١٨هـ الموافق ١٩٩٨م[١].

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

مؤلفاته المطبوعة، والمخطوطة

أولًا: مؤلفاته المطبوعة:

١ ـ التحرير والتنوير[٢].

٢ ـ مقاصد الشريعة الإسلامية[٣].

٣ ـ أصول النظام الاجتماعي في الإسلام[٤].

٤ ـ أليس الصبح بقريب[٥].

٥ ـ الوقف وآثاره في الإسلام[٦].

---

(١) **انظر**: من أعلام الزيتونة (ص٦٦ ـ ٦٧)، محمد الطاهر (ص٤٤).

(٢) طبع عدة طبعات، ومن أولها طبعة الدار التونسية، وهي في خمسة عشر مجلدًا، ومنها طبعة دار سحنون في تونس.

(٣) طبع بتحقيق الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة طبعته وزارة الشؤون الإسلامية بدولة قطر، وطبع قبلها بتحقيق الدكتور الميساوي عن دار النفائس بالأردن.

(٤) من طبعاته طبعة دار النفائس بالأردن بتحقيق الدكتور محمد الميساوي.

(٥) وقد طبع قديمًا، وأعيد طبعه مؤخرًا من قبل دار السلام بمصر.

(٦) لم أقف على طبعته، وقد أشار المترجمون لابن عاشور إلى أنه مطبوعٌ، **انظر**: محمد الطاهر (ص١٢٠).

٦ ـ كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطا[١].

٧ ـ قصة المولد[٢].

٨ ـ التوضيح والتصحيح حاشية على التنقيح في أصول الفقه[٣].

٩ ـ نقد علمي لكتاب «الإسلام وأصول الحكم»[٤].

١٠ ـ تحقيقات وأنظار في الكتاب والسُّنَّة[٥].

١١ ـ النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح[٦].

١٢ ـ أصول الإنشاء والخطابة[٧].

١٣ ـ موجز البلاغة[٨].

١٤ ـ شرح قصيدة الأعشى[٩].

١٥ ـ تحقيق ديوان بشار[١٠].

١٦ ـ تحقيق الواضح في مشكلات شعر المتنبي[١١].

١٧ ـ تحقيق كتاب «سرقات المتنبي ومشكل معانيه»[١٢].

---

(١) وقد طبع قديمًا، وأعيد طبعه مؤخرًا من قبل دار السلام بمصر.
(٢) طبع بتونس عام ١٣٩٢هـ، نقلًا عن: محمد الطاهر، (١٥٢).
(٣) طبع قديمًا في مطبعة النهضة بتونس عام ١٣٤١هـ.
(٤) طبع في القاهرة عام ١٣٤٤هـ في المطبعة السلفية.
(٥) وقد طبع قديمًا، وأعيد طبعه مؤخرًا من قبل دار السلام بمصر.
(٦) وقد طبع قديمًا، وأعيد طبعه مؤخرًا من قبل دار السلام بمصر.
(٧) طبع عام ١٣٣٩هـ بتونس، نقلًا عن: محمد الطاهر (ص١٣٧).
(٨) أعادت دار أضواء السلف عام ١٤٢٦هـ تصوير طبعته القديمة.
(٩) طبع عام ١٣٤٨هـ بتونس، نقلًا عن: محمد الطاهر (ص١٤٧).
(١٠) طبع في القاهرة في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
(١١) طبعته الدار التونسية للنشر، نقلًا عن: محمد الطاهر (ص١٥٠).
(١٢) طبعته الدار التونسية للنشر، نقلًا عن: محمد الطاهر (ص١٤٦).

١٨ ـ تحقيق كتاب «فوائد العقيان، ومحاسن الأعيان»[١].

١٩ ـ شرح مقدمة شرح ديوان الحماسة[٢].

ثانيًا: مؤلفاته المخطوطة:

١ ـ فتاوى ورسائل فقهية.

٢ ـ آراء اجتهادية.

٣ ـ تعليقات وتحقيق على حديث أم زرع.

٤ ـ قضايا وأحكام شرعية.

٥ ـ أمالي على مختصر خليل.

٦ ـ تعاليق على المطول وحاشية السياكوتي.

٧ ـ أمالي على دلائل الإعجاز.

٨ ـ أصول التقدم في الإسلام.

٩ ـ مراجعات تتعلق بكتابَي: معجز أحمد، واللامع للعزيزي.

١٠ ـ شرح ديوان الحماسة لأبي تمام.

١١ ـ ديوان النابغة الذهبي.

١٢ ـ تراجم لبعض الأعلام.

١٣ ـ تحقيق كتاب «الاقتضاب» للبطليوسي مع شرح كتاب «أدب الكاتب».

١٤ ـ جمع وشرح ديوان سحيم.

---

(١) لم أقف على طبعته، وقد أشار المترجمون لابن عاشور إلى أنه مطبوعٌ، **انظر**: محمد الطاهر (ص١٥٢).

(٢) لم أقف على طبعته، وقد أشار المترجمون لابن عاشور إلى أنه مطبوعٌ، **انظر**: محمد الطاهر (ص١٤٦).

١٥ ـ شرح معلقة امرئ القيس.

١٦ ـ تحقيق لشرح القرشي على ديوان المتنبي.

١٧ ـ غرائب الاستعمال.

١٨ ـ تصحيح وتعليق على كتاب «الانتصار» لجالينوس[١].

❁ ❁ ❁

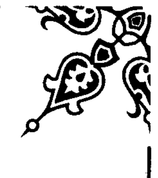
(١) **انظر**: شيخ الإسلام (ص٣١٣)، محمد الطاهر (ص٩٢).



مَنْهَجُ ابنِ عَاشُور
في الاستدلالِ لإعْجَازِ القرآن،
ومصادرُهُ في الإعجازِ







المَبْحَثُ الأَوَّلُ

منهجُ ابنِ عَاشُور في الاستدلال لإعجاز القرآن

لقد تناول ابن عاشور إعجاز القرآن الكريم في تفسيره بعناية ظاهرة، وذلك لأن أحد أغراض تفسيره إبراز إعجاز القرآن الكريم، **وفي ذلك يقول**: (وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال، واهتممت أيضًا ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض)[١].

ويقول: (وعسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده ويتناول منه فوائد ونكتًا على قدر استعداده، فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه همم النحارير بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القماطير، ففيه أحسن ما في التفاسير، وفيه أحسن مما في التفاسير)[٢].

ولذا فقد سلك ابن عاشور منهجًا محددًا في تناوله للإعجاز تتضح معالمه العامة من خلال التالي:

١ ـ **كتابة مقدمة مستقلة في علم الإعجاز**، وهي المقدمة العاشرة من مقدمات تفسيره، وقد تناول فيها جملة مباحث الإعجاز، ولم يلتزم فيها أن يستوفي، **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: (فأما أنا فأردت في هذه المقدمة أن ألم بك أيها المتأمل إلمامة ليست كخطرة طيف[٣]، ولا هي كإقامة المنتجع في

(١) التحرير والتنوير (٨/١). (٢) السابق.

(٣) الطيف: الخيال، **انظر**: لسان العرب (٢٢٨/٩)

المربع حتى يظله الصيف[١]، وإنما هي لمحة ترى منها كيف كان القرآن معجزًا، وتتبصر منها نواحي إعجازه، وما أنا بمستقص دلائل الإعجاز في آحاد الآيات والسور فذلك له مصنفاته وكل صغير وكبير مستطر، ثم ترى منها بلاغة القرآن ولطائف أدبه التي هي فتح لفنون رائعة من أدب لغة العرب حتى ترى كيف كان هذا القرآن فتح بصائر، وفتح عقول، وفتح ممالك، وفتح أدب غض ارتقى به الأدب العربي مرتقى لم يبلغه أدب أُمَّة من قبل، وكنت أرى الباحثين ممن تقدمني يخلطون هذين الغرضين خلطًا، وربما أهملوا معظم الفن الثاني، وربما أَلَمُّوا به إلمامًا وخلطوه بقسم الإعجاز وهو الذي يحق أن يكون البحث فيه من مقدمات علم التفسير، ولعلك تجد في هذه المقدمة أصولًا ونكتًا أغفلها من تقدموا ممن تكلموا في إعجاز القرآن)[٢].

ويُظهر هذا النقل خمسة أمور من منهج ابن عاشور في هذه المقدمة، وهي كالتالي:

- بيان كيفية إعجاز القرآن الكريم.
- بيان أهم نواحي إعجازه.
- إبراز البلاغة القرآنية.
- تجنب الخلط بين إعجاز القرآن، والبلاغة القرآنية.
- التنبيه على بعض الأصول والنكت التي غفل عنها من تكلَّموا في إعجاز القرآن.

٢ ـ إبراز العلاقة بين علم إعجاز القرآن، وبين أصول الاعتقاد،

---

(١) الانتجاع طلب الكلاء، **والمنتجِع**: طالب الكلاء، ومساقط الغيث، **والمَرْبَع**: المَوضع الذي يقام فيه زمن الرَّبِيع خاصّة، **انظر**: لسان العرب (٨/ ٩٩، ٣٤٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠١).

وفي هذا يقول: (ثم إن العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه إعجاز القرآن إنما نبعت من مختزن أصل كبير من أصول الإسلام وهو كونه المعجزة الكبرى للنبي ﷺ، وكونه المعجزة الباقية، وهو المعجزة التي تحدَّى بها الرسول معانديه تحديًا صريحًا)[١].

٣ ـ الاعتناء بالضبط اللغوي للمصطلحات المتعلقة بالإعجاز.

٤ ـ الترجيح بين الأقوال في المسائل المختلف فيها.

٥ ـ الاهتمام بالأمور الكلية في إعجاز القرآن، وعدم الإغراق في الجزئيات، **يقول** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وإذ قد كان تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمل، كان علينا أن نضبط معاقدها التي هي ملاكها)[٢].

وبعد، فهذه معالم عامة لمنهج ابن عاشور في تناول الإعجاز القرآني، **وأما المعالم التفصيلية فيمكن تناولها من خلال المطالب التالية**:

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

استدلاله بالنصوص الشرعية

تعددت أوجه الاستدلال بالنصوص الشرعية على مباحث إعجاز القرآن الكريم عند ابن عاشور، وكان استدلاله بالنصوص الشرعية معتمدًا على الوحيين القرآن، والسُّنَّة، **ومن ذلك ما يلي**:

الاستدلال بالقرآن الكريم:

١ ـ **الاستدلال بدلالة النص**[٣]، ومن ذلك: استدلاله على مراتب

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٢). (٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠٤).

(٣) **النص عند علماء الأصول هو**: ما لا يتطرق إليه احتمال أصلًا، **انظر**: المستصفى (٣/ ٨٤)، المحصول (٣/ ٢٣٠).

التحدي بالآيات الواردة في ذلك[١].

٢ ـ **الاستدلال بالعموم**[٢]**، ومن ذلك قوله في بيان المراد بالمماثلة في قوله تعالى:** ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]: (وعندي أن الاحتمالات التي احتملها قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ كلها مرادة)[٣].

٣ ـ **الاستدلال بتواتر القرآن الكريم، ومن ذلك قوله في ثبوت التحدي:** (فعجز جميع المتحدِّين عن الإتيان بمثل القرآن أمر متواتر بتواتر هذه الآيات بينهم وسكوتهم عن المعارضة مع توفر دواعيهم عليها)[٤].

٤ ـ **الاستدلال ببقاء الآيات المنسوخة حكمًا، ومن ذلك قوله مستدلًّا على الإعجاز اللغوي:** (وقد بدا لي دليل قوي على هذا وهو بقاء الآيات التي نسخ حكمها وبقيت متلوة من القرآن، ومكتوبة في المصاحف، فإنها لما نسخ حكمها لم يبق وجه لبقاء تلاوتها وكتبها في المصاحف إلا ما في مقدار مجموعها من البلاغة، بحيث يلتئم منها مقدار ثلاث آيات متحدًّى بالإتيان بمثلها)[٥].

٥ ـ **الاستدلال بالاستقراء**[٦]، وذلك عند بيان مقاصد القرآن[٧]، وأحدها الإعجاز.

---

(١) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ٣٣٧).

(٢) **العام هو**: لفظ يستغرق جميع ما يصلح له بوضع واحد، **انظر**: المستصفى (٣/ ٢١٢)، الإبهاج في شرح المنهاج (٢/ ٨٢).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٨).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ١٠٣).

(٥) التحرير والتنوير (١/ ١٠٤).

(٦) **الاستقراء نوعان**: كلي، وهو: إثبات الحكم في جزئي لثبوته في الكلي، وجزئي، وهو: إثبات الحكم في كلي لثبوته في أكثر جزئياته، **انظر**: الإبهاج شرح المنهاج (٣/ ١٧٣)، المحصول (٥/ ٩٩).

(٧) التحرير والتنوير (١/ ٣٩).

الاستدلال بالسُّنَّة النبوية:

١ ـ **الاستدلال بنص الحديث**، ومن ذلك استدلاله على الإعجاز اللفظي باختيار أخف اللهجات، وأحسنها[١] بحديث: (**أُنْزِلَ القُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**)[٢].

٢ ـ **الاستدلال بالتقسيم الوارد في الحديث، ومن ذلك قوله إثر حديث: (قَسَمْتُ الصَّلَاةَ . .)**[٣]: (ففي هذا الحديث تنبيه على ما في نظم فاتحة الكتاب من خصوصية التقسيم، إذ قسم الفاتحة ثلاثة أقسام، وحسن التقسيم من المحسنات البديعية)[٤].

المَطْلَبُ الثَّانِي

استدلاله باللغة العربية

يلحظ الناظر في تفسير التحرير والتنوير عناية ابن عاشور باللغة العربية، وآدابها، (وتعتبر اللغة في تفسير التحرير والتنوير من أهم وأبرز الأسس التي قام عليها، واستوى على سوقه، بل هي العصب الذي يشد أركان هذا التفسير، ويقويه، ويميزه، ويتميز به)[٥]، **ومن منهج ابن عاشور اللغوي المتعلّق بالاستدلال لإعجاز القرآن الكريم:**

---

(١) **انظر:** التحرير والتنوير (١/ ١١٣).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، (٢/ ٨٥١) برقم (٢٢٨٧)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، (١/ ٥٦٠) برقم (٨١٨).

(٣) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، (١/ ٢٩٦) برقم (٣٩٥).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ١٠٨).

(٥) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره (٣٨٥ ـ ٣٨٦).

١ ـ إظهار تميز البلاغة القرآنية على ما عداها من بلاغة العرب[1].

٢ ـ إظهار الأمور التي تفرد بها القرآن الكريم، ولا نظير لها في لغة العرب، **ومن ذلك قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والضرب على الآذان كناية عن الإنامة؛ لأن النوم الثقيل يستلزم عدم السمع لأن السمع السليم لا يحجبه إلا النوم بخلاف البصر الصحيح فقد يحجب بتغميض الأجفان، وهذه الكناية من خصائص القرآن لم تكن معروفة قبل هذه الآية وهي من الإعجاز)[2].

٣ ـ إبراز أثر المشترك اللفظي[3] في الإعجاز، **يقول** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والذي يجب اعتماده أن يحمل المشترك في القرآن على ما يحتمله من المعاني سواء في ذلك اللفظ المفرد المشترك والتركيب المشترك بين مختلف الاستعمالات، سواء كانت المعاني حقيقية أو مجازية محضة أو مختلفة)[4].

والحقيقة أن تناول منهج ابن عاشور في الاستدلال لإعجاز القرآن الكريم أمر أوسع من هذا بكثير، وما سبق إشاراتٌ لهذا المنهج، والله أعلم.



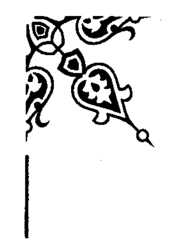
---

(١) **انظر**: التحرير والتنوير (١/١٠٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/٢٦٨).

(٣) **المشترك اللفظي**: هو اللفظُ الواحدُ الدالُّ على معنيين مختلفين فأكثر دلالةً على السواء عند أهل تلك اللغة، **انظر**: المزهر (١/ ٢٩٢).

(٤) التحرير والتنوير (١/٩٩).





المبحث الثاني

مصادرُ ابنِ عَاشُور في إعجاز القرآن

تنوَّعت مصادر ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ أثناء بحثه للإعجاز القرآني، وذلك لتنوع معارفه، واتِّساعها، فهو يرجع إلى الكتب المؤلفة في الإعجاز، وإلى كتب التفسير، واللغة والبلاغة، وغيرها، وفيما يلي محاولة لعرض أهم تلك المصادر، علمًا أني أكتفي بالمصادر التي صرِّح بالنقل عنها أثناء تناوله لمسألة من المسائل المتعلقة بإعجاز القرآن الكريم، **ذلك أن ابن عاشور (كان ينهج في الإشارة إلى مصادره ومراجعه التي استقى منها معلوماته إلى الطرق الآتية:**

١ ـ فهو أحيانًا يصرح بذكر اسم الكتاب ولا يشير إلى اسم المؤلف.

٢ ـ وأحيانًا أخرى يفعل العكس، فيصرِّح باسم المؤلف ولا يصرِّح باسم المصدر.

٣ ـ وأحيانًا ثالثة يصرِّح باسم المصدر والمؤلف معًا.

وقد التزم الشيخ هذا النهج على طول تفسيره التحرير والتنوير)[1]، **ويمكن تقسيم مصادر ابن عاشور في إعجاز القرآن إلى ما يلي:**

أولًا: مصادره من كتب الإعجاز:

- كتاب «إعجاز القرآن»[2].

---

(١) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره (ص١٢١).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١/ ١٠١، ١٠٢).

- القول في بيان «إعجاز القرآن»[1].
- النكت في «إعجاز القرآن»[2].

ثانيًا: مصادره من كتب التفسير:

- «المحرر الوجيز»[3].
- «الكشاف»[4].
- فتوح الغيب[5].
- أحكام القرآن لابن العربي[6].

ثالثًا: مصادره من كتب البلاغة:

- المفتاح[7].
- دلائل الإعجاز[8].
- أسرار البلاغة[9].
- المثل السائر[10].
- الصناعتين[11].

رابعًا: كتب أخرى:

- الشفا في التعريف بحقوق المصطفى[12].
- المواقف[13].

---

(١) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠١).
(٢) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠١).
(٣) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠٢).
(٤) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠٢).
(٥) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ٣٣٧).
(٦) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠٢).
(٧) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠٦).
(٨) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠٦).
(٩) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠٦).
(١٠) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠٦).
(١١) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠٦).
(١٢) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠٣).
(١٣) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠٣).

- المقاصد[١].
- الخصائص[٢].
- الفصل في الملل والنحل[٣].
- الموافقات[٤].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: التحرير والتنوير (١/ ١٠٣).
(٢) انظر: التحرير والتنوير (١/ ١٠٩).
(٣) انظر: التحرير والتنوير (١/ ١٠٣).
(٤) انظر: التحرير والتنوير (١/ ١٢٨).

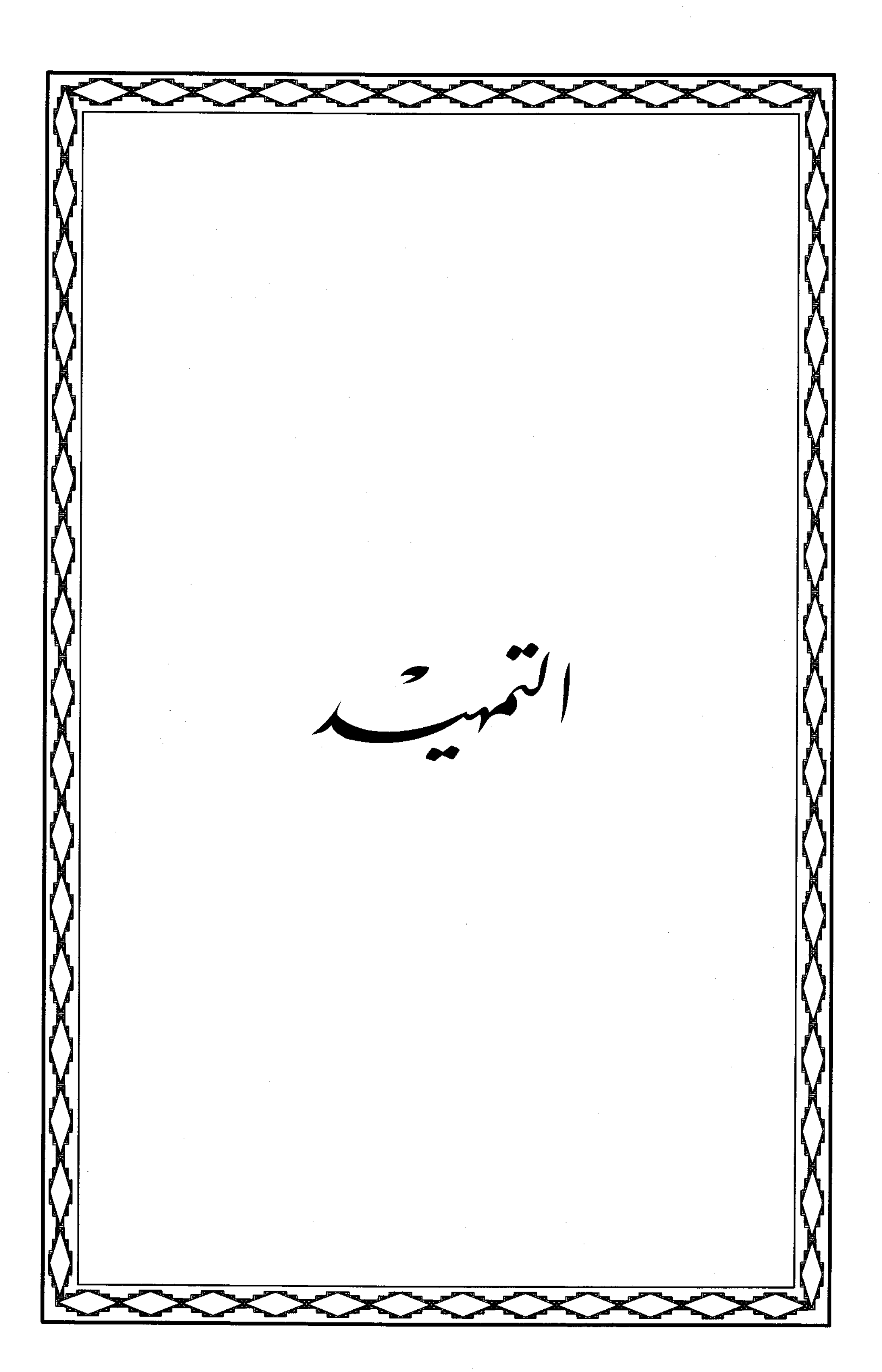




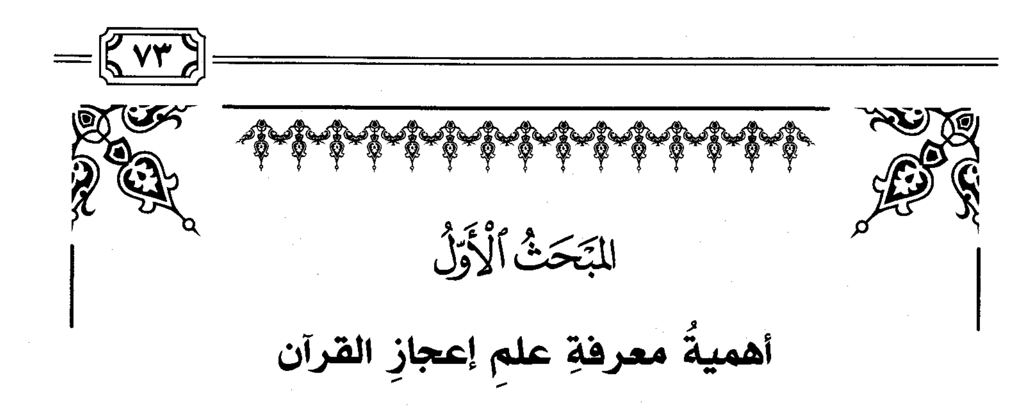

البَابُ ٱلثَّانِي

مباحثُ إعجازِ القرآن عندَ ابنِ عَاشُور





التمهيد



المَبْحَثُ الْأَوَّلُ

أهميةُ معرفةِ علمِ إعجازِ القرآن

لقد أشار العلماء في مصنفاتهم المتعلقة بعلوم القرآن عمومًا، وإعجاز القرآن خصوصًا إلى أهمية علم إعجاز القرآن الكريم، وذلك لما يفيده هذا العلم الشريف من فوائد عظيمةٍ تتصل بأهم الأمور في الدين الإسلامي وهو العقيدة، إذ لإعجاز القرآن صلةٌ بأركان الإيمان، وأركان الإسلام.

فإعجاز القرآن دليلٌ على المصدر الرباني للقرآن الكريم، ولهذا الأمر صلته بالإيمان بالله تعالى أول أركان الإيمان.

وإعجاز القرآن دليلٌ على صدق الرسالة، والإيمان بصدق الرسالة من أهم الأمور التي لا يتحقق الإيمان بالرسل إلا بها.

وهكذا الأمر في صلة إعجاز القرآن بمقاصد القرآن الكريم، وما يستتبع ذلك مما له صلة بالإيمان بالكتب.

ومن جانب آخر لإعجاز القرآن الكريم أثر بينٌ في زيادة الإيمان شأنه في ذلك شأن سائر الطاعات.

وإعجاز القرآن الكريم إضافة إلى ما سبق يدل على فضل الإسلام على سائر الأديان.

وفيما يلي نستعرض أهمية إعجاز القرآن الكريم من خلال تناول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ لذلك، وذلك من خلال هذا المبحث الذي يشتمل على خمسة مطالب:

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

دلالةُ إعجازِ القرآن على مصدره الرَبَّاني

دلَّ إعجاز القرآن الكريم على مصدر القرآن، وأنه من الله تعالى، وذلك من خلال التأمل في أوجه الإعجاز، ومعرفة خروجها عن القدرة البشرية.

وقد تحدَّث ابن عاشور عن هذه المسألة في مواضع متفرقةٍ من تفسيره، وبيَّن وجه دلالة إعجاز القرآن الكريم على مصدره الرباني.

فعند حديثه عن الإعجاز الأسلوبي، **قال** رَحِمَهُ اللهُ: (وقد اشتمل القرآن على أنواع أساليب الكلام العربي، وابتكر أساليب لم يكونوا يعرفونها، وإن لذلك التنويع حكمتين داخلتين في الإعجاز: أولاهما: ظهور أنه من عند الله؛ إذ قد تعارف الأدباء في كل عصر أن يظهر نبوغ نوابغهم على أساليب مختلفة كل يجيد أسلوبًا أو أسلوبين، والثانية: أن يكون في ذلك زيادة التحدي للمتحدَّيْنَ به بحيث لا يستطيع أحد أن يقول إن هذا الأسلوب لم تسبق لي معالجته ولو جاءنا بأسلوب آخر لعارضته)[1].

ويشير ابن عاشور في موضع آخر إلى أهمية الإعجاز اللفظي، والمعنوي في إثبات المصدر الرباني للقرآن الكريم، **قال** رَحِمَهُ اللهُ: (كما جعل الإعجاز اللفظي علامة على كون القرآن من عند الله لأهل الفصاحة والبلاغة من العرب كما أشير إليه بقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢٣]؛

(١) التحرير والتنوير (١/ ١١٥).

كذلك جعل الإعجاز المعنوي وهو اشتماله على الهدى الذي هو شأن الكتب الإلـٰهية علامة على أنه من عنده لأهل الدين والعلم بالشرائع)[١].

وأثناء الكلام عن الإعجاز العلمي، **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما النوع الثاني من إعجازه العلمي فهو ينقسم إلى قسمين: قسم يكفي لإدراكه فهمه وسمعه، وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم، فينبلج للناس شيئًا فشيئًا انبلاج أضواء الفجر على حسب مبالغ الفهوم وتطورات العلوم، وكِلَا القسمين دليل على أنه من عند الله لأنه جاء به أُمّيٌّ في موضع لم يعالج أهله دقائق العلوم والجائي به ثاوٍ بينهم لم يفارقهم)[٢].

ويذكر ابن عاشور وجهًا آخر من الإعجاز دالًّا على مصدر القرآن الكريم، وهو الإعجاز بأخبار الغيب، **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما الجهة الرابعة وهي الإخبار بالمغيبات فقد اقتفينا أثر من سلفنا ممن عدَّ ذلك من وجوه الإعجاز اعتدادًا منا بأنه من دلائل كون القرآن منزلًا من عند الله)[٣].

وفي إثبات التحدي بالإتيان بمثل القرآن، **قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: (فما أمسك الكافة عن الإتيان بمثل القرآن إلا لعجزهم عن ذلك، وذلك حجة على أنه منزل من عند الله تعالى)[٤].

وفي المسائل التالية محاولةٌ لتوضيح أهمية الإعجاز في بيان مصدر القرآن الكريم الرباني، وتناول ما أجمله ابن عاشور في عباراته السالفة الذكر.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٥٨).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٢٧).
(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٢٩).
(٤) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٣).

المسألة الأولى: ذكر بعض الأدلة القرآنية المبيِّنة أن إعجاز القرآن دليلٌ على مصدره الرباني:

١ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وجه الدلالة من الآية الكريمة:

يحث الله ﷻ على تدبر القرآن الكريم، وأنَّ ذلك سببٌ للعلم بمصدر هذا الكتاب الكريم، وأنه من عند الله تعالى، إذ من تدبر القرآن، وتأمله وجده مؤتلفًا غير مختلف صحيح المعاني، قوي المباني، صادق الأخبار[١].

وللمفسرين في المراد بالاختلاف في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ أقوالٌ متعددةٌ[٢] **تندرج فيما يلي:**

الأول: المراد التناقض في أحكام القرآن، وتشريعاته.

وبناءً على هذا القول، فقد جعل الله ﷻ حقائق القرآن الكريم، وعدم اختلافها دليلًا على كون القرآن من عند الله تعالى، وفي هذا بيان لأهمية الإعجاز بالحقائق العلمية، والتشريعية.

الثاني: المراد الاختلاف في أخبار القرآن الكريم من حيث مطابقتها للواقع، فمنها ما يطابق الواقع ومنها ما لا يطابقه.

وبناءً على هذا القول، فقد جعل الله ﷻ أخبار الغيب، وعدم اختلافها في القرآن الكريم كاملًا دليلًا على كون القرآن من عند الله تعالى، وفي هذا بيان لأهمية الإعجاز بأخبار الغيب.

---

(١) **انظر**: معالم التنزيل (٢/ ٢٥٤)، فتح القدير (١/ ٧٤١).

(٢) **انظر**: زاد المسير (٢/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

الثالث: المراد التفاوت في بلاغة القرآن، وجزالة ألفاظه.

وبناءً على هذا القول، فقد جعل الله ﷻ بلاغة ألفاظ القرآن الكريم، وعدم نزولها عن حد الإعجاز في القرآن الكريم دليلًا على كون القرآن من عند الله تعالى، وفي هذا بيان لأهمية الإعجاز اللغوي.

وسياق الآية الكريمة يحتمل الأقوال كلها، وبهذه الأقوال فسَّرها جمعٌ من المفسرين(١).

وذهب بعض المفسِّرين إلى أن المراد هو الاختلاف في أخبار الغيب، وذلك لدلالة السياق والسباق على كونه هو المراد، إذ إن سياق الآيات في المنافقين، وإطلاع الله سبحانه لرسوله ﷺ على خباياهم، ودخائل نفوسهم(٢).

وهذا القول في حقيقته لا يعارض القول بأن الآية تحتمل جميع الأقوال، ذلك أن أولى ما يندرج تحت الآية الكريمة عدمُ الاختلاف في أخبار الغيب، ويبقى لفظ الآية محتملًا لبقية الأقوال، والله أعلم.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وجه الدلالة من الآية الكريمة:

جاءت هذه الآية الكريمة في سياق آيات تحدَّثت عن الكفار،

---

(١) عبارة ابن جرير في تفسيره تشير إلى اختياره أن الآية تحتمل جميع هذه المعاني، حيث يقول رحمه الله: (أفلا يتدبر المبيتون غير الذي تقول لهم يا محمَّد كتاب الله، فيعلموا حجة الله عليهم في طاعتك، واتِّباع أمرك، وأن الذي أتيتهم به من التنزيل من عند ربهم لا تساق معانيه، وائتلاف أحكامه، وتأييد بعضه بعضًا بالتصديق، وشهادة بعضه لبعض بالتحقيق)، وبهذه الأقوال جميعًا فسَّرها البيضاوي، والنسفي، **انظر**: جامع البيان (٧/ ٢٥١)، أنوار التنزيل (ص١٢٠)، مدارك التنزيل (١/ ٣٧٨).

(٢) **انظر**: إرشاد العقل السليم (٢/ ٢٠٧)، التحرير والتنوير (٥/ ١٣٧ ـ ١٣٨).

ومطالبتهم الرسولَ ﷺ أن ينزل عليهم من الآيات ما يدفعهم للإيمان، فأمر الله ﷻ نبيه ﷺ في هذه الآية الكريمة أن يقول لهؤلاء الكفار: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾، فإنه ﷻ نزَّل عليكم القرآن الكريم آية بينةً معجزةً، ولم تؤمنوا، ثم بيَّن الله ﷻ أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزَّل من عند الله تعالى بما يجدونه من أخبار في كتبهم، ومطابقة أخبار القرآن الكريم لها مع أنه ﷺ لم يمارس كتبهم، ولم يخالطهم(١).

وفي هذا بيان أن الحقائق العلمية، والتشريعية، وأخبار الغيب الواردة في القرآن الكريم دليلٌ على كون القرآن من عند الله ﷻ.

➢ المسألة الثانية: دلالةُ أخبارِ الغيبِ على المصدر الرَّبَّاني للقرآن:

أخبر الله ﷻ في القرآن الكريم عن الكثير من الوقائع، والحوادث التي حدثت في الأمم السابقة؛ كقصص الأنبياء مع أقوامهم، وتكذيب أقوامهم لهم، وعاقبة ذلك التكذيب.

كما أخبر الله تعالى في كتابه الكريم عن وقائع حدثت في زمن نبينا ﷺ، ولم يحضرها، أو يشاهدها، ومع هذا أخبر عنها بأوصافها، وأحوالها؛ كحديث القرآن الكريم عن المنافقين، وفضحهم، وكَتَبْيين ما يضمره اليهود من عداوة للإسلام، وأهله.

وأخبر الله ﷻ في محكم التنزيل عن حوادث ستقع في مستقبل الزمان، ومن هذه الحوادث ما وقع؛ كانتصار الروم على الفرس في بضع سنين، ومنها حوادث ننتظر وقوعها؛ كخروج دابة الأرض تكلم الناس.

وهذه الأخبار الغيبية ما هي إلا غيضٌ من فيضٍ ما جاء في القرآن

---

(١) هذا حاصل ما ذكره المفسرون في هذه الآية، **انظر**: أنوار التنزيل (ص١٨٨)، فتح القدير (٢/ ٢٢٥)، روح المعاني (٨/ ٧)، التحرير والتنوير (٨/ ١٣ ـ ١٧).

الكريم من أخبارٍ غيبية، (وإنَّ دلالةَ تلك الأخبار، وما ماثلها على مصدر القرآن لا تخفى على العاقل اللبيب)[١].

ذلك أنَّ هذه الغيوب التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم كانت معلومة لأهل الكتاب، ومشركي العرب.

أما أهل الكتاب فقد علموا صدق ما جاء به القرآن من أخبار الأمم السابقة من خلال ما عرفوا من البقية غير المحرفة من كتبهم.

كما أدركوا صدق القرآن من وجهٍ آخر، وهو ما فيه من كشف مخططاتهم، وكيدهم للإسلام، وأهله.

وأما مشركو العرب، فلم يكن يخفى عليهم صدق القرآن من خلال ما ظهر لهم من غيوب أخبر عنها القرآن، ومن سماعهم شهادة أهل الكتاب على صدق القرآن الكريم.

أما سائر الخلق بعد أهل الكتاب، ومشركي العرب فما يتحقق من أخبار الغيب التي جاء بها القرآن الكريم يعتبرُ في حقهم دليلًا واضحًا على صدق القرآن، وكونه من عند الله ﷻ.

وهكذا يتبين لنا أنَّ آياتِ الإخبار بالمغيبات في القرآن الكريم، وتصديق الوقائع لها، وعدم تخلف الصدق عنها دليلٌ واضحٌ أنَّ القرآن الكريم وحيٌ من الله تعالى[٢].

◄ المسألة الثالثة: دلالةُ الحقائقِ العلميةِ والتشريعيةِ على المصدرِ الرَّبَّاني للقرآن:

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد كثيرًا منها تحدثت

---

(١) **انظر**: مصدر القرآن كما بينه القرآن (ص٢٦٤).

(٢) **انظر**: مباحث في إعجاز القرآن، (ص٢٦٢ ـ ٢٦٤).

عن سنن الله سبحانه في الآفاق، والأنفس، وورود مثل هذه الآيات في القرآن الكريم فيه دلالةٌ بينةٌ على صدق القرآن الكريم.

إذ إنَّ (سوق القرآن الكريم هذه الحقائق بهذه السعة، والشمول، وبهذه الدقة المتناهية يحمل صاحب كل عقل منصف إلى القول بأنَّ هذا الكتاب تنزيل العزيز الحكيم الذي أحاط بكل شيء علمًا)(١).

أما عن التشريعات القرآنية، الأخلاقية، والأسرية، والاجتماعية، فتلك برهانٌ ساطعٌ على أنَّ القرآن من عند الله ﷻ.

فقد جاء القرآن الكريم بتشريع معجزٍ يثبت أنه من عند الله تعالى، وذلك من أوجهٍ كثيرةٍ، **نذكر منها**:

١ - أنَّ هذا التشريع جاء على لسان النبي الأمي ﷺ في أمة أمية، لا تعرف نظامًا، ولا تشريعًا غير أعرافها القبلية.

٢ - أنه تشريعٌ تسامى على كل نظام عرفته الأمم قديمها، وحديثها.

٣ - أن هذا التشريع تشريع متكاملٌ يكفل إحقاق الحق، وصيانة الخلق في جميع شؤونهم(٢).

المَطْلَبُ الثَّانِي

دلالةُ إعجازِ القرآنِ على صدقِ الرِّسَالةِ

بعث اللهُ رسولَه ﷺ إلى قوم كان معظم علمهم الكلام الفصيح البليغ، فقد خصُّوا من البلاغة بما لم يُخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من دراية اللسان ما لم يؤته إنسان، ومن فصل الخطاب ما يتعجب منه أولوا الألباب.

---

(١) مباحث في إعجاز القرآن، (ص٢٤٦).

(٢) **انظر**: علوم القرآن الكريم، (ص٢١٩ - ٢٢٠).

ربما مدحوا شيئًا وضيعًا فرُفع، وربما ذمُّوا شريفًا فوُضع، وذلك لفصاحتهم الرائقة، وبلاغتهم الفائقة، فكانوا يأتون من ذلك بما يخدعون به الألباب، فهم يعرفون أصناف الكلام، ما كان منه نثرًا، وما كان نظمًا، قد عمروا بذلك أزمانهم، وجعلوا ذلك مهمتهم، وشأنهم، حتى بلغوا منه أعلى الرتب، لا ينازعهم في ذلك منازع، ولا يدافعهم عن ذلك مدافع، فبينما هم كذلك إذ جاءهم رسول كريم، بقرآن حكيم، فعرضه عليهم، وأسمعهم إياه، واستدل على صدقه بذلك، وتحداهم أن يأتوا ولو بمثل سورة من سوره، فعجزوا، ولم يقدروا، وعند ذلك أخبرهم وقال لهم ما أمره به ربه سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فعند ذلك ظهر عجزهم، وتبلُّدهم، وإن كانوا هم الفصحاء البلغاء، وعند ظهور عجزهم تبيَّنت حجَّته، ووضحت محجَّته[١].

ولم يكن إعجاز القرآن الكريم اللغوي هو وحده دليل صدق رسالة النبيِّ ﷺ، بل كان لما جاء به من أخبار الغيب دلالةٌ واضحةٌ على نبوته ﷺ، فقد كان يخبر بأحوال الأمم والشعوب الماضية كأنه حاضرٌ شاهد، وقد تقرر أن الوقوف على تفاصيل تلك الأحوال لا يمكن أن يكون بالحضور عندها من نبينا محمد ﷺ، والمشاهدة لها منه، وانتفى بالأدلة الصحيحة أنه لم يتلق ذلك من غيره من البشر، ولا علَّمه معلمٌ منهم، وهذا يبين أنه من عند الله سبحانه بوحي منه إلى رسوله ﷺ، ويدل تبعًا على صدق الرسالة.

وقد أشار ابن عاشور إلى أهمية إعجاز القرآن في إثبات النبوة، وتقريرها، **فقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم إن العناية بما نحن بصدده من بيان وجوه

---

(١) **انظر**: الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام، (ص٣٢٣ ـ ٣٢٤).

إعجاز القرآن إنما نبعت من مختزن أصل كبير من أصول الإسلام، وهو كونه المعجزة الكبرى للنبي ﷺ، وكونه المعجزة الباقية، وهو المعجزة التي تحدَّى بها الرسول معانديه تحديًا صريحًا، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

ولقد تصدى للاستدلال على هذا أبو بكر الباقلاني(١) في كتاب له سمَّاه أو سُمِّي «إعجاز القرآن» وأطال، وخلاصة القول فيه: أنَّ رسالة نبيِّنا عليه الصلاة والسلام بنيت على معجزة القرآن، وإن كان قد أيد بعد ذلك بمعجزات كثيرة إلَّا أن تلك المعجزات قامت في أوقات وأحوال ومع ناس خاصة، ونُقل بعضها متواترًا وبعضها نقل نقلًا خاصًا، فأما القرآن فهو معجزة عامة ولزوم الحجة به باق من أول ورودها إلى يوم القيامة)(٢).

وفي موضع آخر جعلَ ابنُ عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ من المقاصد الأصلية التي جاء القرآن الكريم لتبيينها إثبات صدق نبوة الرسول ﷺ، **فقال بعد تعداده لبعض مقاصد القرآن الكريم**: (الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول؛ إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي(٣)، والقرآن

---

(١) **الباقلاني**: محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر الباقلاني مصنف كتاب إعجاز القرآن، وغيره من المصنفات، توفي سنة ٤٠٣هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٩٠)، البداية والنهاية (١١/ ٤٢٦ ـ ٤٢٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠٢)، وما قرره الباقلاني من كون النبوة مبنية على معجزة القرآن هو مذهب الأشاعرة، والنبوة حاصلة لنبينا محمد ﷺ بأدلة كثيرة سوى معجزة القرآن، وقد قرر هذا شيخ الإسلام ابن تيمية، وناقش مذهب الباقلاني في النبوات في كتاب النبوات وفي غيره من كتبه، **انظر**: النبوات (١/ ٢١٣، ٤٨١).

(٣) انظر السابق.

جمع كونه معجزة بلفظه، ومتحدى لأجله بمعناه)[١].

وفيما يلي محاولة لتوضيح هذا الأمر، وتفصيله:

المسألة الأولى: الأدلة الدالة على أن إعجاز القرآن دليلٌ على صدق الرسالة:

الأدلة المقررة أن إعجاز القرآن دليلٌ على صدق الرسالة متكاثرةٌ في الكتاب، والسُّنَّة، وليس هذا محل جمعِهَا، واستقصائها، ولكنها إشارةٌ، ومثالٌ يتضح به المقال، **فمن ذلك:**

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وجه الدلالة من الآية الكريمة:

هذه الآية الكريمة تقريرٌ لنبوة النبي ﷺ، وبيان أن القرآن الكريم هو حجة نبوته ﷺ، وأن المرتاب في رسالته يلزمه الإتيان بمثل سورة من سور القرآن الكريم الذي جاء به، ولن يأتي بذلك، ولو دعا لذلك الخليقة جميعًا[٢].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وجه الدلالة من الآية الكريمة:

يخبرنا الله تعالى في هذه الآية الكريمة عن تعنُّت المشركين،

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤١).

(٢) هذا هو حاصل عبارات المفسرين في هذه الآية الكريمة، **انظر**: جامع البيان (١/ ٣٩٦ ـ ٤٠٢)، تفسير القرآن العظيم (١/ ١٩٩ ـ ٢٠٠)، فتح القدير (١/ ٨٣).

واقتراحهم الآيات، وأنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يأتيهم بآيةٍ يُحْدِثُهَا، وينشؤها من عند نفسه، فأمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يخبرهم أنه متَّبع للوحي، وأن الله تعالى أنزل عليه بصائر، وبراهين على نبوته، وهي ما تضمَّنه القرآن الكريم من وجوه الإعجاز، **وفي هذا يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ اللهُ: (والبصائر جمع بصيرة وهي ما به اتضاح الحق، وقد تقدم عند قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ في سورة الأنعام[1]، وهذا تنويه بشأن القرآن وأنه خير من الآيات التي يسألونها لأنه يجمع بين الدلالة على صدق الرسول بواسطة دلالة الإعجاز وصدوره عن الأمي، وبين الهداية والتعليم والإرشاد والبقاء على العصور)[2].

٣ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: **(مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ)**[3].

وجه الدلالة من الحديث:

أن النبي ﷺ جعل آية صدقه، وسبيل إيمان المؤمنين برسالته الوحي الذي جاء به، **وفي هذا يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ اللهُ **في تعليقه على الحديث:** (فيه نكتتان غفل عنهما شارحوه:

الأولى: أن قوله: «ما مثله آمن عليه البشر» اقتضى أن كل نبيٍّ جاء بمعجزة هي إعجاز في أمر خاص كان قومه أعجب به وأعجز عنه فيؤمنون على مثل تلك المعجزة، ومعنى «آمن عليه»؛ **أي**: لأجله وعلى

---

(١) الآية: ١٠٤.
(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٣٨).
(٣) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل (٤/ ١٩٠٥) برقم (٤٦٩٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته (١/ ١٣٤) برقم (١٥٢).

شرطه[١] كما تقول: على هذا يكون عملنا أو اجتماعنا.

الثانية: أن قوله: «وإنما كان الذي أوتيت وحيًا» اقتضى أن ليست معجزته من قبيل الأفعال كما كانت معجزات الرسل الأولين أفعالًا لا أقوالًا؛ كقلب العصا، وانفجار الماء من الحجر، وإبراء الأكمه والأبرص، بل كانت معجزته ما في القرآن من دلالة على عجز البشر عن الإتيان بمثله من جهتي اللفظ والمعاني، وبذلك يمكن أن يؤمن به كل من يبتغي إدراك ذلك من البشر ويتدبره)[٢].

٤ ـ أثر أم سلمة[٣] رضي الله عنها في الهجرة إلى أرض الحبشة، وتكلم جعفر بن أبي طالب[٤] رضي الله عنه بين يدي النجاشي رضي الله عنه، وفيه: فقال له النجاشي[٥]: هل معك مما جاء به عن الله من شيء، فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ، فقرأ عليه صدرًا من سورة مريم، قالت أم سلمة: فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والله، والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة[٦].

---

(١) انظر ما سبق ص٨٢ الحاشية الثانية. (٢) التحرير والتنوير (١/ ١٢٨).

(٣) **هي**: أم المؤمنين أم سلمة هند، وقيل: رملة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية القرشية، تزوجها رسول الله ﷺ في شوال سنة اثنتين للهجرة، وماتت في آخر سنة إحدى وستين للهجرة، وعمرها أربع وثمانون سنةً رضي الله عنها. **انظر**: الاستيعاب (٤/ ١٩٣٩)، الإصابة (٨/ ١٥٠).

(٤) **هو**: جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ، وأشبه الناس به خَلقًا، وخُلقًا، وأحد السابقين إلى الإسلام، يلقب بذي الجناحين، استشهد في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة رضي الله عنه. **انظر**: الاستيعاب (١/ ٢٤٢)، الإصابة (١/ ٤٨٥).

(٥) **النجاشي**: أصحمة بن أبحر النجاشي ملك الحبشة، واسمه بالعربية عطية، والنجاشي لقب له، أسلم على عهد النبي ﷺ، ولم يهاجر إليه، ومات سنة تسع، وقيل: قبل الفتح. **انظر**: الإصابة (١/ ٢٠٦).

(٦) أخرجه أحمد في المسند ـ مسند أهل البيت (٣/ ٢٦٢ ـ ٢٦٨) برقم (١٧٤٠)، =

وجه الدلالة من الحديث:

قال البيهقي[١] رَحِمَهُ اللَّهُ: (فهؤلاء مع النجاشي، وأصحابه استدلوا بإعجاز القرآن على صدق النبي ﷺ فيما ادَّعاه من الرسالة، فاكتفوا به، وآمنوا به، وبما جاء به من عند الله)[٢].

◄ المسألة الثانية: دلالةُ أخبار الغيب على صدق الرسالة:

دلت أخبار الغيب على صدق نبوة النبي ﷺ، وذلك أن أخبار الغيب إن كانت من أخبار غيب الماضي، فهي دليلٌ بينٌ على صدق النبي ﷺ، إذ لم يكن النبي ﷺ ممن تعلم أخبار الأمم السابقة، ولا تلقى هذه الأخبار عن أهل الكتاب، بل كان أميًّا نشأ في أميين لم يعهد عنهم معرفة تأريخ الأمم، ومع ذلك جاء ﷺ بهذه الأخبار على ما هي عليه، في وصف دقيق لتأريخ الأمم الماضية[٣].

وإن كانت من أخبار غيب الحاضر، فدلالته على صدق الرسالة واضحةٌ خاصةً لمن كان معاصرًا للرسالة، مطلعًا على أحوال صاحبها ﷺ.

وأما غيب المستقبل، فيدل على صدق الرسالة لمن يشاهد تحقق

= وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الزكاة، باب ذكر البيان أن فرض الزكاة كان قبل الهجرة إلى أرض الحبشة (٤/١٣) برقم (٢٢٦٠)، وحسنه شعيب الأرناؤوط في تعليقه على المسند.

(١) **البيهقي**: الإمام الحافظ العلَّامة شيخ خراسان أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخسروجردي البيهقي صاحب التصانيف، ولد سنة أربع وثمانين وثلاث مائة في شعبان، وتوفي في عاشر جمادى الأولى من سنة ثمان وخمسين وأربع مائة. **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٨/١٦٣)، البداية والنهاية (١٢/٥٥٦).

(٢) الاعتقاد (ص٤١).

(٣) ستأتي أمثلة ذلك عند الحديث عن الإعجاز بأخبار الغيب.

تلك الأمور الغيبية التي ذكرها القرآن الكريم، وهو بهذا دليلٌ مستمرٌّ إلى يوم الدين على صدق الرسالة.

ومما يوضح دلالة أخبار الغيب على صدق الرسالة أنَّ هذه الأخبار ظاهرة الكثرة، ومع كثرة هذه الأخبار فهي جميعًا صادقةٌ، صدَّقها التأريخ، والوقائع، وهذا ما لا يتأتى لبشرٍ أن يأتي به إلا أن يكون ما جاء به وحيًا من الله تعالى، وليس له منه إلا الرسالة.

المسألة الثالثة: دلالةُ الإعجازِ اللغوي على صدقِ الرسالة:

دلَّ الإعجاز اللغوي على صدق الرسالة، ووجه ذلك أنَّ النبي ﷺ دعا العرب بأن تأتي بمثل القرآن الكريم في براعته، وفصاحته، ونظمه، وجزالته، ورصانته، وإيجازه، واختصاره، واشتمال اللفظ اليسير منه على المعاني الكثيرة.

دعا النبيُّ ﷺ العربَ إلى ذلك، وطالبهم به في أيام المواسم، وغيرها ـ مجتمعين، ومتفرقين ـ فقال لهم كما علمه ربه سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وقال ﷻ: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ﴾ [هود: ١٣].

وقال ﷻ: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

وفي الآيات السابقة الشدة في تقريع الكفار بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، مع أن اللسان الذي نزل به لسانهم، ومع العلم بما هم عليه من عزة الأنفس، وشدة الحمية، والحرص على تكذيبه، وتشتيت جمعه، وتفريق الناس من حوله.

فلو كانوا مع ذلك قادرين على معارضته، أو معارضة سورة منه،

لسارعوا إلى ذلك، ولكان أهون عليهم، وأخف من نصب الحرب معه، والجلاء عن الأوطان، وتحمل الأهوال، والصبر على القتل، وألم الجراح، واحتمال الذل والعار، وفي هذا أعظم دليل على صدق الرسول ﷺ[1].

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

إعجازُ القرآن من المقاصدِ الأصليةِ للقرآن

إنَّ القرآن الكريم أنزله الله تعالى كتابًا لصلاح أمر الناس كافة، رحمة لهم لتبليغهم مراد الله منهم، قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩] فكان المقصد الأعلى منه: صلاح الأحوال الفردية، والجماعية، والعمرانية.

فالصلاح الفردي يعتمد تهذيب النفس، وتزكيتها، ومدار الأمر فيه على أمرين:

- صلاح الاعتقاد؛ لأن الاعتقاد مصدر الآداب والتفكير.
- صلاح السريرة الخاصة، وهي العبادات الظاهرة كالصلاة، والباطنة كالتخلق بترك الحسد والحقد والكبر وغيرها.

وأما الصلاح الجماعي فمدار الأمر فيه على أمرين كذلك:

- الصلاح الفردي؛ إذ الأفراد أجزاء المجتمع، ولا يصلح الكل إلا بصلاح أجزائه.
- ضبط تصرف الناس بعضهم مع بعض على وجه يعصمهم من مزاحمة الشهوات، ومواثبة القوى النفسانية، وهذا هو علم المعاملات ويعبر عنه بالسياسة المدنية.

---

(١) **انظر**: تمهيد الأوائل (ص١٦٧ ـ ١٦٩).

وأما الصلاح العمراني فمدار الأمر فيه على أمرين كذلك:

- حفظ نظام العالم الإسلامي، وضبط تصرف الجماعات، والأقاليم بعضهم مع بعض على وجه يحفظ مصالح الجميع، وَيرعى المصالح الكلية الإسلامية.
- حفظ المصلحة الجامعة عند معارضة المصلحة القاصرة لها، ويسمى هذا بعلم العمران، وعلم الاجتماع[١].

وإعجاز القرآن الكريم من المقاصد الأصلية التي ورد تقريرها وبيانها في القرآن الكريم، ومَرَدُّ العناية بهذا الأصل المهم ما له من صلةٍ بصلاح الاعتقاد الذي هو مقصد من أبرز المقاصد القرآنية، **وفيما يلي نستعرض آراء ابن عاشور في هذا الأمر من خلال ما يلي:**

➢ المسألة الأولى: بيانُ أهمِ مقاصد القرآن الكريم، ومنْزِلَةُ إعجاز القرآن الكريم منها:

تعددت أقوال أهل العلم في بيان المقاصد القرآنية، وكلٌّ يقسمها باعتبار من الاعتبارات، وينظر إليها من جانب غير الذي نظر الآخر منه، وربما فصَّل بعض العلماء ما يجمله الآخرون، فيظهر للناظر أن بينها تباينًا، وإن كانت هذه التقسيمات تتفق في حقيقتها.

وممَّن عُنِيَ ببيان هذا الأمر، وتجليته ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ[٢].

وفي هذا يقول أثناء كلامه على ما ينبغي أن يكون غرضًا للمفسر:

(قد وجب على الآخذ في هذا الفن أن يعلم المقاصد الأصلية التي

---

(١) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ٣٨).

(٢) كتب ابن عاشور في هذا الأمر في مواضع متفرقة من تفسيره، كما أفاض القول فيه في كتابه الماتع: مقاصد الشريعة الإسلامية، وفي كتاب: أصول النظام الاجتماعي.

جاء القرآن لتبيانها، فلنلم بها الآن بحسب ما بلغ إليه استقراؤنا، **وهي ثمانية أمور:**

الأول: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح(١). وهذا أعظم سبب لإصلاح الخلق؛ لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك، والدهرية، وما بينهما.

وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: ١٠١]، فأسند لآلهتهم زيادة تتبيبهم، وليس هو من فعل الآلهة، ولكنه من آثار الاعتقاد بالآلهة(٢).

الثاني: تهذيب الأخلاق، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وفسَّرت عائشة رضي الله تعالى عنها لما سئلت عن خلقه ﷺ فقالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»(٣)، وفي الحديث الذي رواه مالك في الموطأ بلاغًا أن رسول الله ﷺ قال: (بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ حُسْنِ الْأَخْلَاقِ)(٤)، وهذا المقصد قد فهمه عامة العرب بَلْهَ(٥) خاصة الصحابة،

---

(١) وقد رد بعض العلماء سائر مقاصد القرآن الكريم إلى هذا المقصد، فهي متممةٌ له، ومن لوازمه، **انظر**: مجموع الفتاوى (١٧/ ١١٥ ـ ١١٦).

(٢) **انظر**: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٤٩)، فتح القدير (٢/ ٧٥٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند ـ مسند عائشة ﵂ (٤٢/ ١٨٣) برقم (٢٥٣٠٢)، وابن خزيمة في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ذكر خبر نسخ فرض قيام الليل بعدما كان فرضًا واجبًا (٢/ ١٧١) برقم (١١٢٧)، وصححه شعيب الأرناؤوط.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب حسن الخلق، باب ما جاء في حسن الخلق (٢/ ٩٠٤)، والحاكم في المستدرك، كتاب آيات رسول الله ﷺ التي هي دلائل النبوة، (٢/ ٦٧٠) برقم (٤٢٢١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٤١٢) برقم (٤١١٤).

(٥) بله هنا بمعنى كيف، ولها معانٍ كثيرة، **انظر**: لسان العرب (١٣/ ٤٧٧).

وقال أبو خراش الهذلي[١] مشيرًا إلى ما دخل على العرب من أحكام الإسلام بأحسن تعبير:

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يا أُمَّ مَالِكٍ ... وَلَكِنْ أَحاطَتْ بالرِّقَابِ السَّلَاسِلُ

وعَادَ الفَتَى كَالكَهْلِ لَيْسَ بقائِلٍ ... سِوى العَدْلِ شَيْئًا فاسْتَرَاحَ العَوَاذِلُ[٢]

أراد بإحاطة السلاسل بالرقاب أحكام الإسلام. والشاهد في قوله: وعاد الفتى كالكهل[٣].

الثالث: التشريع وهو الأحكام خاصة وعامة. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨]، ولقد جمع القرآن جميع الأحكام جمعًا كليًا في الغالب وجزئيًا في المهم، فقوله: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣]، المراد بهما إكمال الكليات التي منها الأمر بالاستنباط والقياس.

قال الشاطبي[٤] رحمه الله: (لأنه على اختصاره جامع والشريعة تمت

---

(١) **أبو خراش الهذلي الشاعر اسمه**: خويلد بن مرة القردي من بني قرد ابن عمرو، أسلم كبيرًا، ومات رضي الله عنه في زمن عمر رضي الله عنه، **انظر**: الاستيعاب (٤/ ١٦٣٦)، الإصابة (٢/ ٣٦٤).

(٢) هذه الأبيات من قصيدة قالها في رثاء أخيه، وقيل ابن عمه زهير ابن الأبجر الهذلي، وانظرها في: شرح أشعار الهذليين (٣/ ١٢٢٣).

(٣) والمعنى: رجع الفتى عما كان عليه من فتوته، وصار كأنه كهلٌ، وذلك لإحاطة أحكام الإسلام به، وقوله: فاستراح العواذل، وذلك لأنهن لا يجدن ما يعذلن فيه سوى العدل أي: سوى الحق، **انظر**: شرح أشعار الهذليين (٣/ ١٢٢٣).

(٤) **الشاطبي**: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي صاحب المصنفات الشهيرة، كالموافقات والاعتصام توفي سنة ٧٩٠هـ، **انظر**: معجم المؤلفين (١/ ١١٨ ـ ١١٩)، الأعلام (١/ ٧٥).

بتمامه ولا يكون جامعًا لتمام الدين إلا والمجموع فيه أمور كلية)[(١)].

الرابع: سياسة الأمة، وهو باب عظيم في القرآن القصد منه صلاح الأمة، وحفظ نظامها كالإرشاد إلى تكوين الجامعة بقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

الخامس: القصص، وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وللتحذير من مساويهم قال: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وفي خلالها تعليم، وكنا أشرنا إليها في المقدمة الثانية[(٢)].

السادس: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة، ونشرها، وذلك علم الشرائع، وعلم الأخبار، وكان ذلك مبلغ علم مخالطي العرب من أهل الكتاب، وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول، وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضَّالِّين، وفي دعوته إلى النظر.

ثم نوَّه بشأن الحكمة فقال: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وهذا أوسع باب انبجست منه عيون المعارف، وانفتحت به عيون الأميين إلى العلم.

---

(١) انظر: الموافقات (٣/ ٣٦٧).

(٢) انظر: التحرير والتنوير (١/ ٢٥).

وقد لحق به التنبيه المتكرر على فائدة العلم، وذلك شيء لم يطرق أسماع العرب من قبل إنما قصارى علومهم أمور تجريبية، وكان حكماؤهم أفرادًا اختصُّوا بفرط ذكاء تُضَمُّ إليه تجربة، وهم العرفاء، فجاء القرآن بقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، و﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] فنبَّه إلى مزية الكتابة.

السابع: المواعظ، والإنذار، والتحذير، والتبشير، وهذا يجمع جميع آيات الوعد، والوعيد، وكذلك المحاجَّة، والمجادلة للمعاندين، وهذا باب الترغيب، والترهيب.

الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول؛ إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي، والقرآن جمع كونه معجزة بلفظه، ومتحدًى لأجله بمعناه، والتحدي وقع فيه: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]، ولمعرفة أسباب النزول مدخل في ظهور مقتضى الحال ووضوحه. هذا ما بلغ إليه استقرائي)[(١)].

والملاحَظُ في هذه المقاصد التي ذكرها ابن عاشور أن عددًا منها له صلة بالإعجاز بوجهٍ من الوجوه، وبيان صلة هذه الوجوه بإعجاز القرآن الكريم أن الوجه الأول المتعلق بإصلاح الاعتقاد له تعلقٌ بكون القرآن الكريم معجزة لجميع البشر.

أمَّا ما يتعلق بتهذيب الأخلاق، وجمع التشريعات النافعة للخلق، وسياسة الأمة بها، فذلك له صلةٌ بالإعجاز بالحقائق العلمية والتشريعية.

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٩ ـ ٤١).

وكذلك الأمر فيما يتعلق بالقصص، وتعليم الأخبار المتعلقة بالأمم السابقة، فهذا الأمر متعلق بالإعجاز بالقصص.

وهكذا نلحظ صلة هذه المقاصد بإعجاز القرآن الكريم، وليس المراد من بيان صلة هذه المقاصد بإعجاز القرآن الكريم أنَّه المقصود من ورودها في القرآن الكريم، وإنَّمَا المراد بيان العلاقة بين هذه المقاصد وبين إعجاز القرآن الكريم، وإن كانت مقاصدَ مطلوبةً على وجه الاستقلال، والله أعلم.

✧ المسألة الثانية: صلةُ تعريفِ القرآن الكريم بإعجاز القرآن:

يشير العلماء في أثناء تعريف القرآن الكريم إلى العلاقة بين الإعجاز، وبين تعريف القرآن الكريم، وقد أشار ابن عاشور إلى هذا الأمر حيث يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والقرآن: اسم غلب على الوحي اللفظي الذي أوحي به إلى محمَّد ﷺ للإعجاز بسورة منه وتعبد ألفاظه)[١].

وفي موضع آخر يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والقرآن: علم بالغلبة على الكتاب الموحى به إلى محمَّد ﷺ من وقت مبعثه إلى وفاته للإعجاز والتشريع)[٢].

وبمثل هذا التعريف عرَّف العلماء القرآن الكريم، فهذا الزركشي[٣] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول:

(**القرآن هو**: الوحي المنَزَّلُ على محمد ﷺ للبيان، والإعجاز)[٤].

---

(١) هكذا في التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٣٢)، ولعل صواب العبارة: والتعبد بألفاظه.

(٢) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٤٥).

(٣) **الزركشي**: بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله أبو عبد الله الزركشي، ولد سنة ٧٤٥هـ، من أشهر مصنفاته: البرهان في علوم القرآن، وتوفي سنة ٧٩٤هـ، **انظر**: طبقات المفسرين (١/ ٣٠٢)، شذرات الذهب (٦/ ٣٣٥).

(٤) البرهان (١/ ٣١٨).

وقد اعترض بعض العلماء رحمهم الله تعالى على إضافة شرط الإعجاز إلى تعريف القرآن الكريم بما محصله أن إعجاز القرآن الكريم مختلفٌ في وجهه بين العلماء، والقرآن الكريم لم يختلف في شيء منه، فكيف ندخل في حقيقته أمرًا مختلفًا فيه؟[١].

والظاهر أنه لا وجه لهذا الاعتراض، إذ المختلف فيه هو وجه الإعجاز في القرآن الكريم، لا حقيقة الإعجاز، وبينهما فرقٌ ظاهر، والله أعلم.

وقد اعترض بعض العلماء كذلك على إضافة شرط الإعجاز بأن الإعجاز ليس حاصلًا بما هو أقل من سورة من سور القرآن، وأنه أمرٌ لا يدركه كل أحد، بل يحتاج إلى نظر وبحث لا يحسنه إلا العلماء[٢].

ويمكن أن يجاب عن هذا الاعتراض بأنَّ المراد هو تعريف القرآن، وبيان حقيقته جملةً، وما كان من سوره وآياته، فإنه يدخل بناءً على ذلك في تعريف القرآن من حيث إنه بعض القرآن، وجزءٌ منه.

أما كون الإعجاز لا يدركه كل أحد، فهذا إن كان يصدق على وجهٍ من وجوه الإعجاز كالإعجاز اللغوي مثلًا، إلا أنه لا يصدق على جميع أوجه الإعجاز.

ومن ناحيةٍ أخرى فإن من لا يدرك وجهًا من وجوه الإعجاز لعدم تمكنه من العلوم المساعدة على إدراك هذا الوجه، فعليه أن يأخذ بشهادة أهل العلم ممن تمكن من ذلك العلم.

---

(١) **انظر**: إرشاد الفحول (١/ ١٧١).

(٢) **انظر**: مناهل العرفان (١/ ١٥).

المطلب الرابع

دلالةُ إعجازِ القرآن على فَضْلِ الإسلام

اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون معجزة الدين الإسلامي الباقية هي القرآن الكريم، فهو المعجزة التي اختص الله تعالى بها دين الإسلام، وهو الكتاب الذي تضمن التشريعات، والأحكام التي يسير عليها أهل الإسلام.

ولما كان دين الإسلام هو الدين الخاتم للأديان، فإن (حكمة الله البالغة قضت أن تكون معجزة الإسلام باقية بجانبه، تؤيده وتعززه إلى قيام الساعة، حتى لا يكون لأحد عذر في ترك هذا الدين الأخير الذي هو خاتمة الأديان والشرائع، لذلك اختار سبحانه أن تكون معجزة الإسلام شيئًا يصلح للبقاء، فكانت دون سواها كلامًا يتلى في أذن الدهر، وحديثًا يقرأ على سمع الزمان)[١].

وقد أشار ابن عاشور إلى دلالة إعجاز القرآن الكريم على فضل الإسلام **حيث يقول** رَحِمَهُ اللَّهُ:

(فالإسلام كان أشرف الأديان: لأن معجزته القرآن، وهو معجزة تدرك بالعقل، ويستوي في إدراك إعجازها جميع العصور، ولخلوِّ هذا الدين عن جميع العيوب في الاعتقاد والفعل، فهو خليٌّ عن إثبات ما لا يليق بالله تعالى، وخليٌّ عن وضع التكاليف الشاقة، وخليٌّ عن الدعوة إلى الإعراض عن استقامة نظام العالم)[٢].

فبيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ **الأمور الدالة على شرف الإسلام، وفضله على سائر الأديان، وهي:**

١ - أن القرآن الكريم هو معجزة هذا الدين، وهي معجزة يدركها العقل

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٢٤٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/ ١٧٣).

خلافًا لمعجزات الأمم السابقة، فقد كانت معجزات تدرك بالحس، والمشاهدة، ولا تعرف لمن لم يشاهدها الإ بالنقل، وأما معجزة القرآن فيمكن لكل أحدٍ أن يشاهد الإعجاز فيه سواءً في بلاغته، أو إخباره بالغيب، أو ما فيه من تشريعات.

٢ ـ أن هذا الدين خالٍ من العيوب في عقائده، وعباداته، ومعاملاته.

وقد أشارت النصوص من الكتاب والسُّنَّة إلى دلالة إعجاز القرآن على فضل الإسلام، **فمن ذلك:**

أ ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤].

وجه دلالة الآية الكريمة:

هذه الآيات الكريمة تخبر عن حال الكفار مع القرآن الكريم، وأنهم قالوا عنه فيما قالوه: إنَّهُ مفترًى، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يطلب منهم أن يأتوا بعشر سور مثل القرآن، وللكفار أن يفتروا، ويختلقوا معاني هذه السور، ثم إن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يطلب منهم الإتيان بمثل ألفاظ القرآن الكريم فرادى، ومجتمعين، ورخص لهم في الاستعانة بمن أرادوا، ثم بيَّن ﷻ أن المشركين إن لم يأتوا بمثل ألفاظ القرآن الكريم، فهذا دليل على كون هذا القرآن من عند الله تعالى، ثم دعا الله تعالى الكفار ـ وقد تبين لهم العجز عن الإتيان بمثل ألفاظ القرآن ـ إلى الإسلام بقوله: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وفي هذا بيان لشرف الإسلام، وفضله، وأن الدين الذي هذا القرآن بما فيه من إعجاز هو كتابه حقيقٌ أن يُتَّبَعَ ويلزمه كل أحد[1].

---

(١) هذا حاصل كلام أهل العلم في هذه الآيات، **انظر**: أنوار التنزيل (ص٢٩٢)، فتح القدير (٢/ ٧٠٢ ـ ٧٠٣)، إرشاد العقل السليم (٤/ ١٩١).

ب ـ حديث جبير بن مطعم[١] رضي الله تعالى عنه قال: (سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلمَّا بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧] كاد قلبي أن يطير)[٢]، وفي رواية للبخاري: (وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي)[٣]

وجه الدلالة من الحديث:

يستدل العلماء بهذا الحديث على تأثير القرآن في النفوس، وهذا التأثير هو أحد أوجه إعجاز القرآن الكريم، وهو المعروف بالإعجاز بالروعة، والهيبة عند سماعه[٤]، فإن جبيرًا رضي الله تعالى عنه أخبر عن نفسه أن قلبه كاد أن يطير، وذلك عندما وقر الإيمان والإسلام في قلبه، وذلك لفهمه رضي الله تعالى عنه لمعنى هذه الآيات الكريمة، ومعرفته لما تضمَّنته من الحجة[٥].

---

(١) جبير بن مطعم بن عدي القرشي النوفلي، أبو محمد، وقيل: أبو عدي، المدني رضي الله تعالى عنه مات سنة سبع، أو ثمان، أو تسع، وخمسين للهجرة، **انظر ترجمته في**: الاستيعاب (١/ ٢٣٢)، الإصابة (١/ ٤٦٢).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة «والطور» (٤/ ١٨٣٩) برقم (٤٥٧٣) بهذا اللفظ، ومسلم، كتاب الصلاة، باب القراءة بالصبح (١/ ٣٣٨) برقم (٤٦٣) مختصرًا.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا (٤/ ١٤٧٥) برقم (٣٧٩٨).

(٤) وقد ذكر هذا الوجه من الإعجاز الخطابي والباقلاني، والقاضي عياض في كتابه: الشفا في التعريف بحقوق المصطفى (١/ ٣٨٤)، ونقل عنه ابن عاشور ما يتعلق بهذا الوجه من الإعجاز في التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٨٨).

(٥) **انظر**: فتح الباري (٨/ ٧٦٨).

المَطْلَبُ ٱلْخَامِسُ

أثرُ إعجازِ القرآنِ في زيادة الإيمان

القرآن الكريم هو الذي غرس الإيمان في الكبار والصغار، وبثَّه روحا عامًّا، وأَشْعَرَ النفوس بما جاء فيه إشعارًا، ودفعها إلى التخلي عن موروثاتها، ومقدَّساتها جملة، وحملها على التحلِّي بهديه الكريم علمًا وعملًا، على حين أن الذي أتى بهذا القرآن رجل أُمِّيٌّ لا دولة له ولا سلطان، ولا حكومة ولا جند، ولا اضطهاد ولا إجبار، إنما هو الاقتناع والرغبة والرضا والإذعان(١).

ولما كانت هذه الآثار الكريمة هي بعض آثار القرآن الكريم، وكان إعجاز القرآن من أهم المقاصد القرآنية، كان لإعجاز القرآن أثره الظاهر في تقوية الإيمان في القلوب، وزرع تعظيم الله تعالى، والخوف منه سبحانه.

وزيادة الإيمان المترتبة على النظر في إعجاز القرآن دافعٌ عظيم، وثمرة من ثمار إعجاز القرآن الكريم ينبغي للناظر في إعجاز القرآن أن يستحضرها حال نظره في هذا العلم.

وفي بيان كيفية أثر إعجاز القرآن في زيادة الإيمان **يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وكيفية تأثير تلاوة الآيات في زيادة الإيمان: أن دقائق الإعجاز التي تحتوي عليها آيات القرآن تزيد كل آية تنزل منها أو تتكرر على الأسماع سامعها يقينًا بأنها من عند الله فتزيده استدلالًا على ما في نفسه، وذلك يقوي الإيمان حتى يصل إلى مرتبة تقرب من الضرورة على نحو ما يحصل في تواتر الخبر من اليقين بصدق المخبرين ويحصل مع

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٢٩٥) بتصرف.

تلك الزيادة زيادة في الإقبال عليها بشراشر[١] القلوب، ثم في العمل بما تتضمنه من أمر أو نهي حتى يحصل كمال التقوى، فلا جرم كان لكل آية تُتلى على المؤمنين زيادة في عوارض الإيمان من قوة اليقين، وتكثير الأعمال، فهذا وصف راسخ للآيات)[٢].

ويتحصل من كلام ابن عاشور أن أثر إعجاز القرآن في زيادة الإيمان يكون من خلال التالي:

١ ـ إعجاز القرآن يزيد قارئ القرآن يقينًا أن كل آياته من عند الله تعالى، وذلك يقوي الإيمان، ويزيده.

٢ ـ إعجاز القرآن مما يزيد قارئ القرآن إقبالًا على تلاوة الآيات القرآنية، وتلاوة القرآن الكريم من أعظم القربات التي تزيد في الإيمان.

٣ ـ إعجاز القرآن يدفع إلى العمل بما تضمَّنته الآيات القرآنية من أمرٍ، أو نهي، وذلك سبب لكمال التقوى.

وما ذكره ابن عاشور من آثار إعجاز القرآن في زيادة الإيمان يبين العلاقة بين إعجاز القرآن، وزيادة الإيمان، إذ من كانت معرفته بإعجاز القرآن أكمل كان إيمانه أكمل، وأقوى[٣].

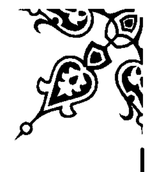
---

(١) **الشَّرَاشِرُ**: النَّفْسُ، والمَحَبَّة، وجميع الجسدُ، وألقى عليه شَرَاشِرَهُ، وهو أن يحبه حتى يستهلك في حبه، **انظر**: لسان العرب (٧/ ٧٩)، القاموس المحيط (ص٥٣٢).

(٢) التحرير والتنوير (٩/ ٢٥٨).

(٣) وفي مثل هذا يقول الآمدي: (ومن كان أشد تدربًا ومعرفة بأوزان العرب، ومذاهبها في اللغات، وأساليبها في العبارات، كان أشد معرفة بإعجاز القرآن، وأسبق إلى التصديق والإيمان، كما أن من كانت معرفته بعلم الطبيعة في زمن إبراهيم، وعلم السحر في زمن موسى، والطب في زمن عيسى أشد، كان أشد معرفة بالإعجاز، وأسبق للتصديق والقبول لما جاء به الرسول ﷺ). **انظر**: غاية المرام (١/ ٣٤٣).





المَبْحَثُ الثَّانِي

صُعُوبةُ الخوضِ في عِلْمِ إعجازِ القرآن

يعتبر علم إعجاز القرآن الكريم من العلوم القرآنية التي لم تنل حقها من البحث والتدوين، ولم يعتنِ الكثير من المفسِّرين بها في ثنايا تفاسيرهم، وهذا ما يشير إليه ابن عاشور، **حيث يقول** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فمن أعجب ما نراه خلو معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول إلى هذا الغرض الأسمى[١] إلا عيون التفاسير، فمن مُقلٍّ مثل معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج[٢]، والمحرر الوجيز للشيخ عبد الحق بن عطية الأندلسي[٣]، ومن مكثرٍ مثل الكشاف)[٤].

وفي موضع آخر يبين صعوبة الخوض في علم إعجاز القرآن، وفي وجوه إعجاز القرآن الكريم خاصةً، **حيث يقول**: (لم أر غرضًا تناضلت[٥] له سهام الأفهام، ولا غاية تسابقت إليها جياد الهمم

---

(١) وهو العناية بالبلاغة القرآنية.

(٢) **الزجاج**: إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج النحوي، توفي سنة ٣١١هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٦٠)، البداية والنهاية (١١/ ١٧٦).

(٣) **ابن عطية**: عبد الحق بن غالب بن عبد الملك الغرناطي القاضي، توفي سنة ٥٤٦هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٨٦)، طبقات المفسرين (ص١٧٦).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ١٠٢).

(٥) **المُناضَلة**: المُفاخَرة، ونَاضَلَهُ؛ **أي**: راماه يقال: ناضَلَهُ فَنَضَلَهُ، ويقال: انْتَضلَ القومُ، وتَناضَلوا: رَمَوْا للسَّبْق، **انظر**: لسان العرب (١١/ ٦٦٥)، القاموس المحيط (ص١٣٧٣).

فرجعت دونها حَسْرَى، واقتنعت بما بلغته من صُبَابَةٍ نَزْرا، مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن، فإنه لم يزل شغل أهل البلاغة الشاغل، وموردها للمعلول(١) والناهل(٢)، ومُغْلَى(٣) سِبائِهَا(٤) للنديم(٥)، والواغل(٦))(٧).

وما عبَّر عنه ابن عاشور هنا هو لسان حال أكابر العلماء ممن بحث في إعجاز القرآن الكريم، ولعل من أوضح ما يبين صعوبة هذا العلم كثرة اختلاف العلماء الذين تعرضوا له بالبحث والتدوين في كثير من أبوابه، ومسائله؛ كالقول في وجوه إعجاز القرآن.

---

(١) **العَلُّ والعَلَلُ**: الشَّرْبَةُ الثانيةُ، أو الشُّرْبُ بَعْدَ الشُّرْبِ تِباعًا، **انظر**: لسان العرب (١١/ ٤٦٧)، القاموس المحيط (١/ ١٣٣٨).

(٢) **النَّهل**: أَوَّل الشُّرْب، **انظر**: لسان العرب (١١/ ٦٨٠)، القاموس المحيط (١/ ١٣٧٧).

(٣) **المُغْلَى**: الحار شديد الحرارة من ماء، ونحوه، **انظر**: لسان العرب (١٠/ ٤١)، المصباح المنير (٢/ ٤٥٢).

(٤) **السِّباءُ، والسَّبِيئةُ**: الخَمْرُ، **انظر**: لسان العرب (١/ ٩٣)، القاموس المحيط (ص٥٣).

(٥) **النَّدِيمُ**: الشَّرِيبُ الذي يُنادِم غيره على الشراب، ويقال: نادَمَ الرجل مُنادَمةً، ونِدامًا، جالَسه على الشراب، **انظر**: لسان العرب (١٢/ ٥٧٢)، القاموس المحيط (ص١٥٠٠).

(٦) **الواغِلُ**: الذي يدخُل على القوم في طعامهم، وشرابهم من غير أَن يَدْعُوه إِليه، أَو يُنْفِق معهم مثل ما أَنفَقُوا، وقيل: الواغِلُ الداخِل على القوم في شَرابهم، فيكون الواغِلُ في الشراب والوارِش في الطعام، **انظر**: لسان العرب (١١/ ٧٣١)، القاموس المحيط (ص١٣٨١).

(٧) التحرير والتنوير (١/ ١٠١).

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

صعوبةُ حصرِ وجوهِ الإعجاز

من أبرز الأمور التي تبيِّن صعوبة الخوض في علم إعجاز القرآن الكريم: صعوبة حصر وجوه إعجاز القرآن الكريم، وهذا أمرٌ قرره العلماء في مصنفاتهم، وأوضحوا الأسباب التي أدَّت إلى صعوبة حصر وجوه إعجاز القرآن الكريم.

وممن أشار إلى ذلك الخطابي، إذ يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (قد أكثر الناس الكلام في هذا الباب قديمًا وحديثًا، وذهبوا فيه كل مذهب من القول، وما وجدناهم بعد صدروا عن رَيّ، وذلك لتعذر معرفة وجه الإعجاز في القرآن، ومعرفة الأمر في الوقوف على كيفيته)[١].

وقد أدَّت أسبابٌ متعددةٌ إلى هذه الصعوبة في تناول إعجاز القرآن الكريم والبحث فيه، ومن أبرز هذه الأسباب:

أولًا: أنَّ القرآنَ الكريمَ يخاطب العقول:

جاء القرآن الكريم آيةً ظاهرةً على كونه من عند الله تعالى، ودليلًا صادقًا على رسالة نبيِّنا محمد ﷺ، ومما زاد هذه الآية ظهورًا أنها آية تخاطب العقل، في أُمَّة عرفت بجودة أذهان أبنائها، وقوة أفهامهم، وعقولهم[٢].

---

(١) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢١).

(٢) وقد أشار العلماء رحمهم الله تعالى إلى مزية هذه الأمة على غيرها من الأمم بقوة أذهانهم، وجودة أفهامهم، وفي ذلك يقول السيوطي: وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خُصَّت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر. اهـ. **انظر**: الإتقان (٢/ ٣١١).

وقد تناول ابن عاشور في ثنايا تفسيره هذا الأمر، فبيَّن أن آية الإعجاز عقلية تختص العقول بإدراكها.

وفي ذلك يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (الأفئدة تختصُّ بإدراك الآيات العقلية المحضة مثل آية الأُميَّة وآية الإعجاز)[١].

كما بيَّن أن من مزايا معجزة القرآن الكريم أنها معجزةٌ عقليةٌ **حيث يقول**: (المزية الثانية: كونه مما يتلى، فإن ذلك أرفع من كون المعجزات الأخرى أحوالًا مرئية، لأن إدراك المتلو إدراك عقلي فكري وهو أعلى من المدركات الحسية، فكانت معجزة القرآن أليق بما يستقبل من عصور العلم التي تهيأت إليها الإنسانية)[٢].

وفي موضع آخر يبين أن شرف دين الإسلام على سائر الأديان هو لشرف معجزته، وهي القرآن الكريم.

قال ابن عاشور: (فالإسلام كان أشرف الأديان: لأن معجزة صدقه القرآن، وهو معجزة تدرك بالعقل، ويستوي في إدراك إعجازها جميع العصور)[٣].

وما أشار ابن عاشور إلى تقريره في النقول السابقة يبين لنا سببًا من أسباب صعوبة الخوض في إعجاز القرآن الكريم، وهو كون القرآن الكريم آية عقلية، وهذا بخلاف آيات الأنبياء في الأمم الماضية، فقد كانت في مجملها آيات حسية، ومن طبيعة البشر الميل إلى المحسوس دون المعقول.

وفي كون آية القرآن الكريم عقليةً ـ مع كون الآيات العقلية أبعد

---

(١) التحرير والتنوير (٧/ ٤٤٣).
(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٤).
(٣) التحرير والتنوير (١٠/ ١٧٢).

مأخذًا، وأعسر منالًا من الآيات الحسية ـ حِكَمٌ متعددةٌ، **ولعل من أبرز الحِكَم في ذلك:**

١ ـ أن تكون هذه الآية محققةً لعموم بعثة النبي ﷺ للناس، ويمكن إدراكها في كل زمان، ومكان، بخلاف الآيات المادية المحسوسة التي لا يدركها إلا من شاهدها.

٢ ـ أن تكون آية القرآن الكريم متناسبة مع ما عرف عن القوم الذين أرسل فيهم النبي ﷺ من الفصاحة والبلاغة وحسن البيان.

٣ ـ أن تكون هذه الآية الكريمة دليلًا على شرف دين الإسلام على بقية الأديان.

٤ ـ أن الآيات العقلية تتناسب مع ارتقاء التفكير البشري، وهي أليق بما يستقبل من عصور العلم التي تهيأت لها الإنسانية[١].

ثانيًا: عدم العناية بحصر الوجوه الكلية التي عليها معاقد القول في إعجاز القرآن:

لكل علم قواعده الموصلة إليه، والمؤدية إلى معرفة صوابه من خطئه، ولا بد أن تضبط هذه القواعد العامة للعلوم، وتتضح هذه الوجوه الكلية.

وإعجاز القرآن الكريم كغيره من العلوم، له قواعده العامة التي تضبط القول فيه، ويحدث الخلل بإغفالها، وقد نبه العلماء رحمهم الله تعالى إلى أهمية العناية بهذه القواعد، **وفي هذا يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإذ قد كان تفصيل وجوه الإعجاز لا يحصره المتأمِّل كان علينا أن نضبط معاقدها التي هي ملاكها)[٢].

---

(١) **انظر:** التحرير والتنوير (٢١/ ١٤)، وإعجاز القرآن البياني (ص٤٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠٤).

ومعاقد القول في إعجاز القرآن الكريم كما يعبر ابن عاشور، أو قواعده الكلية، تناولها العلماء، وقرروها، **ومما عدَّه ابن عاشور من معاقد القول في إعجاز القرآن الكريم:**

١ - بلوغ القرآن الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ.

٢ - ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهودًا في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة.

٣ - ما أودع في القرآن من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية.

٤ - ما انطوى عليه القرآن من الإخبار عن المغيبات مما دلَّ على أنه منزَّل من علَّام الغيوب[1].

فهذه القواعد في إعجاز القرآن الكريم، وغيرها مما قرره العلماء، ممَّا يعين على إدراك إعجاز القرآن، وعدم اعتبارها يؤدي إلى صعوبة الخوض في علم إعجاز القرآن الكريم، وبالتالي إلى نتائج غير صحيحةٍ في هذا الباب.

ثالثًا: تفاوت القرائح، والأفهام في إدراك الإعجاز:

تتفاوت العقول والأفهام في معرفة العلوم والمعارف القرآنية عمومًا، وإعجاز القرآن الكريم خصوصًا، وذلك التفاوت ناتج من أمور كثيرة كالتفاوت في معرفة اللغة، والتفاوت في العلم، وصفاء الذهن، وغيرها.

(١) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

وهذا التفاوت في القرائح، والأفهام يظهر أثره عند تناول إعجاز القرآن الكريم بمقدار ما يظهره الله تعالى للعالم من وجوه الإعجاز، وخصائص البلاغة، فمن مُقِلٍّ ومُكْثِرٍ.

يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: (ما يبين من الخصائص البلاغية في القرآن ليس يريد من يبينه أن ما لاح له ووفق إليه هو قصارى ما أودعه الله في نظم القرآن من الخصائص والمعاني، ولكن مبلغ ما صادف لوحه للناظر المتدبر، والعلماء متفاوتون في الكشف عنه على قدر القرائح والفهوم، فقد يفاض على أحد من إدراك الخصائص البلاغية في بعض الآيات ولا يفاض عليه مثله أو على مثله في غيرها)[١].

وهذا الوجه من وجوه صعوبة الخوض في إعجاز القرآن الكريم منه ما يمكن رفعه بالعلم، والتعرف على بلاغة القرآن الكريم، ومنه ما لا يمكن رفعه كجودة الذهن، وقوة الإدراك، فإن هذه الأمور فضلٌ من الله تعالى يؤتيه من يشاء من عباده.

المَطْلَبُ الثَّانِي

كيفية إدراك أوجه إعجاز القرآن الكريم في هذا العصر

القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الباقية على تقلب الدهور، وتتابع الأزمان، ولذا كان لا بد من معرفة الوسائل المعينة على إدراك أوجه إعجاز القرآن الكريم اليوم لتقوم حجة الله تعالى على الخلائق اليوم كما قامت على الناس حين مبعثه ﷺ.

---

(١) التحرير والتنوير (١٨/ ٣٢).

والوسائل المعينة على إدراك إعجاز القرآن الكريم اليومَ متعددةٌ، ومن أهمها:

أولًا: ممارسة لغة العرب، ومعرفة بليغ كلامهم:

لما كانت اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم، ظهر للعرب الأوائل، وهم أهل الفصاحة والبيان من إعجاز القرآن الكريم ما لم يظهر لغيرهم ممن لم يمارس لغتهم، ويتعرف على فصيح كلامهم.

وفي بيان أهمية ممارسة لغة العرب، وبليغ كلامهم لمن يريد معرفة إعجاز القرآن الكريم **يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ثم قد يشارك خاصة العرب في إدراك إعجازه كل من تعلم لغتهم ومارس بليغ كلامهم وآدابهم من أئمة البلاغة العربية في مختلف العصور)[١].

وفي موضع آخر يبين الحد الكافي من علوم العربية لطالب معرفة وجه الإعجاز **حيث يقول**: (وبعد فإن من شاء أن يدرك الإعجاز كما أدركه العرب فما عليه إلا أن يشتغل بتعلم اللغة وأدبها وخصائصها حتى يساوي أو يقارب العرب في ذوق لغتهم ثم ينظر بعد ذلك في نسبة القرآن من كلام بُلَغَائِهم، ولم يخل عصر من فئة اضطلعت بفهم البلاغة العربية وأدركت إعجاز القرآن وهم علماء البلاغة وأدب العربية الصحيح)[٢].

وهذه الوسيلة من وسائل إدراك إعجاز القرآن الكريم هي خير الطرق لإدراك إعجاز القرآن الكريم، وهي طريق (من لم يرض من المعرفة بظاهر السمة دون البحث عن باطن العلة، ولم يقنع في الأمر بأوائل البرهان حتى يستشهد لها دلائل الامتحان)[٣].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٥) (٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٩).

(٣) القول في بيان إعجاز القرآن الكريم (ص٢٥).

ثانيًا: ترجمة معاني القرآن الكريم التشريعية، والعلمية إلى لغاتٍ أخرى:

ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى من وسائل الدعوة في العصر الحديث، وخاصة مع تعذر تعلم جميع المسلمين للغة العربية، ومعرفة ألفاظ القرآن الكريم، وما فيها من إعجاز.

وهذه الترجمة لمعاني القرآن الكريم التشريعية، والعلمية هي مما يبيِّن نوعًا من أنواع إعجاز القرآن الكريم، وهو الإعجاز بالحقائق العلمية، والتشريعية، وذلك عند من يعد هذا الوجه وجهًا من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وأما من لا يعتبر الإعجاز بالحقائق العلمية، والتشريعية وجهًا من وجوه الإعجاز فإنه يعد ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغات الأخرى وسيلةً لبيان كون القرآن الكريم من عند الله تعالى، وكونه دليلًا على صدق النبوة.

وفي بيان أهمية ترجمة معاني القرآن الكريم التشريعية، والعلمية، وأنها سبيل لإدراك إعجاز القرآن الكريم **قال ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ: (والقرآن معجز من الجهة الثالثة[1] للبشر قاطبة إعجازًا مستمرًا على ممر العصور، وهذا من جملة ما شمله قول أئمة الدين: إن القرآن هو المعجزة المستمرة على تعاقب السنين، لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأُمَّة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحكمية والعلمية والأخلاقية، وهو دليل تفصيلي لأهل تلك المعاني وإجمالي لمن تبلغه شهادتهم بذلك)[2].

---

(١) المراد بالجهة الثالثة ما أودع فيه من المعاني الحكمية، والإشارات إلى الحقائق العقلية، والعلمية، **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠٥).

وهذا الذي ذكره ابن عاشور رحمه الله من أهمية ترجمة معاني القرآن الكريم لإدراك إعجاز القرآن الكريم لمن لا يحسن العربية هو ما قرره العلماء في هذا الباب، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أثناء حديثه عن بعض الأصول التي يجب العناية بها عند الكلام في القرآن الكريم، ومخالفته للكتب السابقة:

(الأصل الثاني: إنه إذا ترجم أو قرئ بالترجمة فله معنى يختص به لا يماثله فيه كلام أصلًا، ومعناه أشد مباينة لسائر معاني الكلام من مباينة لفظه ونظمه لسائر اللفظ والنظم والإعجاز في معناه أعظم بكثير من الإعجاز في لفظه، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨] يتناول ذلك كله)[١].

ثالثًا: معرفة آيات التحدِّي، وعجز العرب عن معارضة القرآن الكريم:

الناس في نظرهم لإعجاز القرآن الكريم ينقسمون إلى قسمين: عالمٌ بلغة العرب، مدرك لوجه إعجاز القرآن الكريم، وآخر لم يصل بعد إلى معرفة وجه إعجاز القرآن الكريم تفصيلًا.

وفي تأمل آيات التحدي، ومعرفة عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن الكريم طريقٌ من طرق إدراك إعجاز القرآن الكريم للصنفَين السابقَين، **وفي هذا يقول ابن عاشور**: (وقد كان هؤلاء المُتَحدُّون المدعوون إلى المعارضة بالمكانة المعروفة من أصالة الرأي واستقامة الأذهان ورجحان العقول وعدم رواج الزيف عليهم وبالكفاءة والمقدرة

(١) الفتاوى الكبرى (٦/ ٥٧١).

على التفنن في المعاني والألفاظ تواتر ذلك كله عنهم بما نقل من كلامهم نظمًا ونثرًا وبما اشتهر وتواتر من القدر المشترك من بين المرويات من نوادرهم وأخبارهم فلم يكن يعوزهم أن يعارضوه لو وجدوه على النحو المتعارف لديهم، فإن صحة أذهانهم أدركت أنه تجاوز الحد المتعارف لديهم، فلذلك أعرضوا عن المعارضة مع توفر داعيهم بالطبع وحرصهم لو وجدوا إليه سبيلًا)[1].

وشأن التحدي كما قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والأمر في ذلك أبين من أن نحتاج إلى أن ندل عليه بأكثر من الوجود القائم المستمر على وجه الدهر)[2].

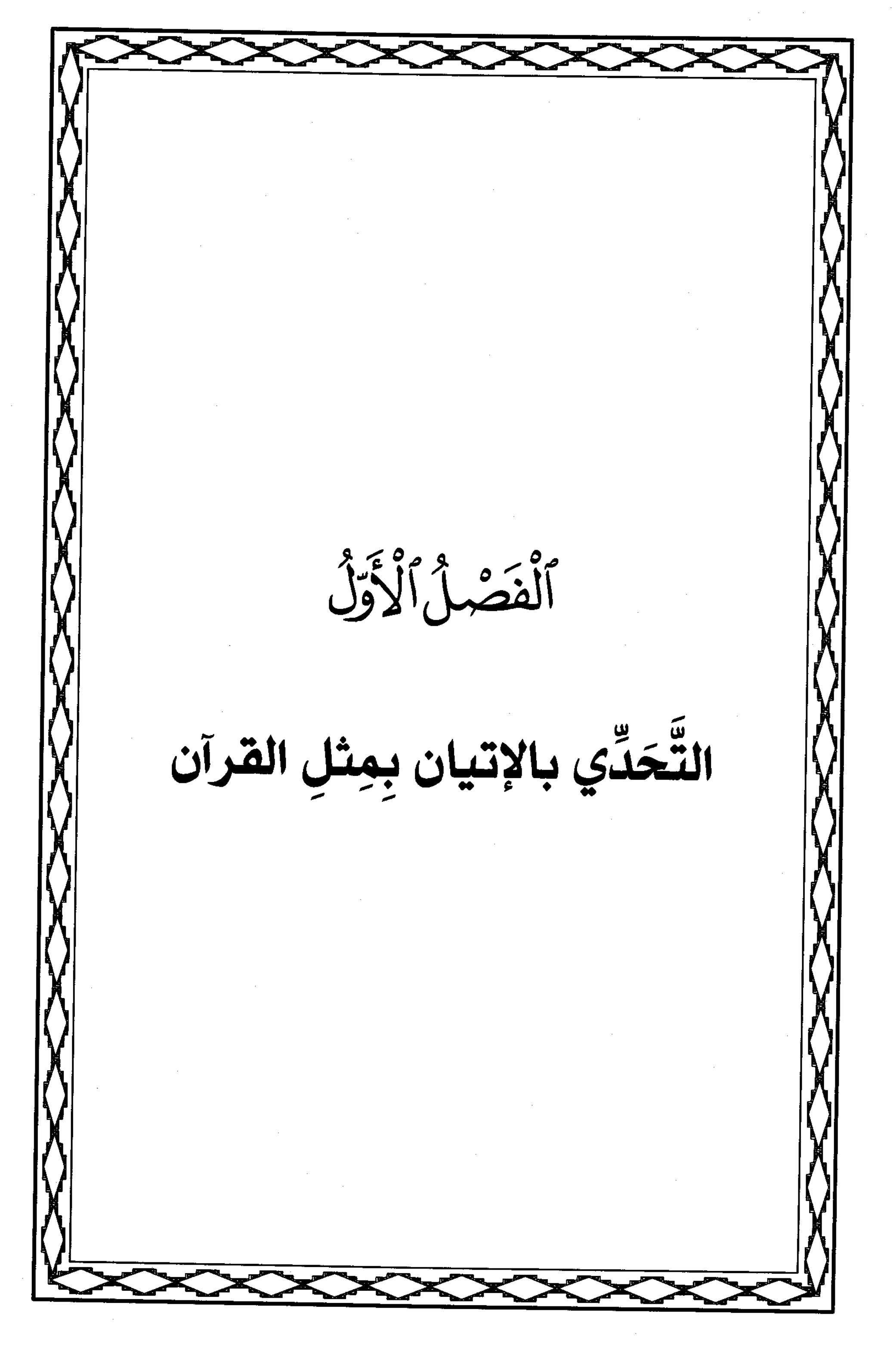
والمراد هنا الإشارة إلى أهمية النظر في ما يتعلق بالتحدي من الآيات القرآنية لمن أراد الوقوف على إعجاز القرآن الكريم، وأما تفصيل الكلام في التحدي فليس هذا محله، وسوف تأتي الإشارة إلى شيء منه بمشيئة الله تعالى.



---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٨).

(٢) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢١).



ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ

التَّحَدِّي بالإتيان بِمِثلِ القرآن





التَّحَدِّي بالإتيان بِمِثلِ القرآن

لقد تعرَّض العلماء رحمهم الله تعالى عند تناولهم إعجاز القرآن الكريم لعدد من الأمور المتعلقة بالإعجاز، والتي لا تتم معرفة الإعجاز بدونها، ومن ذلك ما يتعلق بالتحدي، والمراد به ومراتبه، ونحو ذلك من الأبحاث المتعلقة بالتحدي.

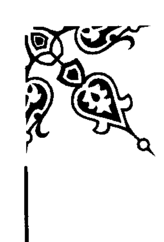
وقد تناول ابن عاشور التحدي من عدة جوانب، ذلك أنه رَحِمَهُ اللَّهُ يعتبر التحدي أحد مقاصد القرآن المكي، **وفي ذلك يقول:** (معظم مواقع هذه الحروف في أوائل السور المكية عدا البقرة على قول من جعلوها كلها مدنية وآل عمران، ولعل ذلك لأنهما نزلتا بقرب عهد الهجرة من مكة، وأن قصد التحدِّي في القرآن النازل بمكة قصد أولي)[١].

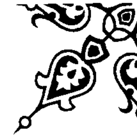
وإنما كان التحدي من مقاصد القرآن لما يتضمَّنه من كون القرآن الكريم من عند الله تعالى، وما يتضمَّنه كذلك من دلالة على صدق الرسالة، وهذه المباحث من أهم أغراض القرآن المكي، ومقاصده[٢]، **وفيما يلي محاولةٌ لتناول ما قرره ابن عاشور في التحدي، وذلك من خلال المباحث التالية:**

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢١٣).

(٢) ولبيان أغراض القرآن المكي، **انظر**: لمحات في علوم القرآن (ص١٤٦ ـ ١٤٧)، دراسات في علوم القرآن (ص١٣٠).





المَبحَثُ الأوَّلُ

معنى التَّحَدِّي، والمرادُ به

المَطْلَبُ الأوَّلُ

معنى التحدي

تأتي أهمية هذا المبحث من حيث إنه لا يصح أن يقع التحدي على شيء لا يُدرى ما هو، (فلا يقومُ في عَقْل عاقلٍ أن يقول لخصمٍ له: قد أعجزَك أن تفعلَ مثلَ فعلي. وهو لا يشيرُ إلى وصفٍ يَعلَمُه في فعله ويراهُ قد وقعَ عليه... لأنه لا يصحُّ وصفُ الإنسانِ بأنه قد عَجزَ عن شيءٍ حتى يريدَ ذلك الشيءَ ويقصدَ إليه ثم لا يتأتَّى له، وليس يتصوَّرُ أن يقصِدَ إلى شيءٍ لا يعلَمُه وأن تكونَ منه إرادةٌ لأمرٍ لم يعلمْه في جملةٍ ولا تفصيلٍ)(١).

- **معنى التحدي في اللغة:**

تدور معاني كلمة التحدي في اللغة على المباراة، والمغالبة، والمنازعة، جاء في لسان العرب لابن منظور(٢): (تَحَدَّيْتُ فلانًا إذا بارَيْته في فعلٍ ونازَعْته الغَلَبَةَ... وتحَدَّى الرجلَ تعمَّدَه وتَحَدَّاه باراه

(١) دلائل الإعجاز (ص٣٨٦)، وذكر الزركشي قريبًا من هذا المعنى في البرهان (٢/ ٩٣).

(٢) **ابن منظور:** محمد بن جلال الدين مكرم بن نجيب الدين أبو الحسن علي جمال الدين أبو الفضل ولد سنة ٦٣٠هـ وتوفي بمصر سنة ٧١١هـ . **انظر:** الدرر الكامنة (٤/ ٢٦٢)، بغية الوعاة (١/ ٢٤٨).

ونَازَعه الغَلَبَةَ)[١].

وأصل كلمة التحدي في اللغة الفعل الثلاثي حَدِيَ، ومصدره حَدًى، والمراد به اللزوم للمكان، وفي هذا يقول الفيروزآبادي[٢]: (حَدِيَ: بالمكانِ كرَضِيَ حَدًى: لَزِمَه فلم يَبْرَحْ. . . وأحْدَى: تَعَمَّدَ شيئًا كتَحَدَّاه. والحُدَيَّا بالضم وفتح الدال: المُنازَعَةُ والمُباراةُ، وقد تَحَدَّى، ومن الناسِ: واحِدُهم، وأنا حُدَيَّاكَ: ابْرُزْ لي وحْدَكَ)[٣].

ومن خلال عرض هذه المعاني اللغوية لكلمة التحدي تتبين العلاقة بينها وبين المعنى الاصطلاحي للتحدي، وهي وجود المنازعة، والمغالبة في كلٍّ.

ويظهر مما ذكره علماء اللغة في معنى التحدي أنه: أن يتعمد الرجل المتحدِّي فعل شيءٍ سبق لخصمه وأن فعل مثله، أو قريبًا منه، قاصدًا بهذا الفعل منازعة خصمه، ومغالبته.

وهذا المعنى للتحدي هو عكس المعنى المستفيض على ألسنة العلماء، **وذلك أن التحدي المذكور في كتب العلماء معناه**: أن تفعل أنت فعلًا، ثم تطلب من خصمك أن يبذل غاية جهده في معارضته، قاصدًا بذلك إظهار عجزه عن غلبتك، ومنازعتك.

وعليه يكون التحدي بهذا المعنى المتداول في كتب إعجاز القرآن

---

(١) لسان العرب (١٤/ ١٦٨).

(٢) **الفيروزآبادي**: مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الشيرازي الفيروزآبادي أبو الطاهر مجد الدين، ولد سنة ٧٢٩هـ، وتوفي سنة ٨١٦هـ. **انظر**: ذيل الدرر الكامنة (ص٢٣٨)، بغية الوعاة (١/ ٢٧٣).

(٣) القاموس المحيط (١/ ١٦٤٣)، **وانظر**: مقاييس اللغة (٢/ ٣٥)، تهذيب اللغة (٥/ ١٨٧).

من المجاز[١].

• معنى التحدي في الاصطلاح:

عرف العلماء مصطلح التحدي، وبينوا المراد به، وهكذا صنع ابن عاشور، **حيث يقول** رَحِمَهُ اللَّهُ: (فالتحدي على صدق القرآن هو مجموع مماثلة القرآن في ألفاظه وتراكيبه، ومماثلة الرسول المنزَّل عليه في أنه أُمِّي لم يسبق له تعليم ولا يعلم الكتب السالفة)[٢].

وفي موضع آخر يبين مراده بمماثلة القرآن الكريم، **فيقول**: (والمراد بالمماثلة للقرآن: المماثلة في مجموع الفصاحة والبلاغة والمعاني والآداب والشرائع. وهي نواحي إعجاز القرآن اللفظي والعلمي)[٣].

ونلحظ في تعريف ابن عاشور للتحدي أنه يرى المماثلة المطلوبة في التحدي يدخل فيها مماثلة الرسول ﷺ في أنه أُمِّي لم يسبق له تعليم، ولا يعلم الكتب السالفة، وهذا محل خلاف بين العلماء رحمهم الله تعالى، وهو ما سيتم تناوله في المطلب التالي بإذن الله تعالى.

المطلب الثاني

المراد بالتحدي

يتناول المراد بالتحدي عددًا من الأمور المتعلقة بحقيقة التحدي، وما الذي طُلِبَ من المشركين، هل هو مماثلة القرآن وحده؟ أو مماثلة القرآن، ومماثلة النبي ﷺ كذلك؟

---

(١) وللعلَّامة محمود شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ تحقيقٌ نفيس في هذا، **انظر**: مداخل إعجاز القرآن (ص٢١ ـ ٢٢).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٣).

ومن ناحية أخرى هل المطلوب منهم مماثلة القرآن الكريم في ألفاظه، وأساليبه؟ أو مماثلته في معانيه كذلك؟

وفي هذا المطلب سيتم التعرض لهذه التساؤلات، وذلك من خلال تناول ابن عاشور لها، ومقارنة ذلك بما قرره العلماء رحمهم الله تعالى.

المسألة الأولى: هل المطلوب في التحدي مماثلة القرآن الكريم، أم مماثلة القرآن الكريم، والنبي ﷺ كذلك؟

لابن عاشور كلام في هذه المسألة أبتدئ بعرضه، ثم أثنِّي بذكر خلاف العلماء رحمهم الله تعالى في هذه المسألة.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فالتحدي على صدق القرآن هو مجموع مماثلة القرآن في ألفاظه وتراكيبه ومماثلة الرسول المنزل عليه في أنه أمِّي لم يسبق له تعليم ولا يعلم الكتب السالفة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٥١]. فذلك معنى المماثلة، فلو أتوا بشيء من خطب أو شعر بلغائهم غير مشتمل على ما يشتمل عليه القرآن من الخصوصيات لم يكن ذلك إتيانًا بما تحدَّاهم به، ولو أتوا بكلام مشتمل على معان تشريعية أو من الحكمة من تأليف رجل عالم حكيم لم يكن ذلك إتيانًا بما تحدَّاهم به)[١].

وفي هذه المسألة خلاف بين العلماء، وذلك كالتالي:

اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في هذه المسألة على قولين:

القول الأول: أن المراد بالتحدي مماثلة القرآن الكريم فحسب، ولم يُطْلَبْ منهم مماثلة النبي ﷺ كذلك، وهذا قول جمهور العلماء[٢]،

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٨).

(٢) وممن نقل هذا القول عن الجمهور القرطبي، وابن كثير، والشوكاني، وعبر عنه =

وقال به من الصحابة عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وابن عباس رضي الله تعالى عنهم(١).

القول الثاني: أن المراد بالتحدي مجموع مماثلة القرآن الكريم، ومماثلة النبي ﷺ، وهذا قول بعض العلماء المتقدمين(٢)، وهو قول الآلوسي(٣) وابن عاشور(٤).

الأدلة:

* أولًا: أدلة القول الأول:

استدل أصحاب هذا القول بأدلة متعددة، ومن أهمها:

١ ـ التصريح في عدد من الآيات بأن المراد المماثلة للقرآن، **ومن ذلك:**

- قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].
- وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].
- وقوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

= ابن كثير بأنه قول المحققين، **انظر**: الجامع لإحكام القرآن (١/ ٢٧٥)، تفسير القرآن العظيم (١/ ١٩٩)، فتح القدير (١/ ٦٨).

(١) **انظر**: مفاتيح الغيب (١/ ١٢٩).

(٢) **انظر**: معاني القرآن (١/ ١٠٠)، زاد المسير (١/ ٥٠)، ولم يذكر فيهما اسم من قال ذلك.

(٣) **انظر**: روح المعاني (١/ ١٩٥).

(٤) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ٣٣٨).

وجه الدلالة من الآيات السابقة:

وهذه الآيات تدل دلالة واضحةً أن المراد بالتحدي هو مماثلة القرآن الكريم، وليس فيها تعرضٌ لطلب المماثلة للنبي ﷺ(١).

٢ ـ التصريح في عدد من الآيات بأن التحدي عامٌّ لجميع الخلق، **ومن ذلك:**

• قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وجه الدلالة من الآية الكريمة:

أن الله تعالى طلب من المشركين أن يدعو شهداءهم، وهم: آلهتهم، ومن ينصرهم، (٢) وذلك لا يكون إلا إذا كان المراد بالتحدي القرآن وحده، إذ لو كان المراد بالتحدي مماثلة القرآن الكريم ممن يماثل النبي ﷺ لم يكن لإباحة الاستعانة بالآلهة حينها فائدة، إذ من المعلوم عدم مماثلتها للنبي ﷺ، ولأن الاستعانة بالمُعين، والنصير تقتضي أن التحدي عام، وهذا يتنافى والاكتفاء بمماثل للنبي ﷺ(٣).

*** ثانيًا: أدلة القول الثاني:**

استدل أصحاب هذا القول بأدلة متعددة، ومن أبرزها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

---

(١) **انظر**: مفاتيح الغيب (١/ ١٢٩)، البحر المحيط (١/ ٢٤٥).

(٢) **الشهداء**: جمع شهيد بمعنى شاهد، وأطلق على النصير والمعين، ومن ذلك آلهة الكفار التي يفزعون إليها في حال الشدة لتعينهم، **انظر**: زاد المسير (١/ ٥١)، التحرير والتنوير (١/ ٣٣٩).

(٣) **انظر**: التحدي في آيات الإعجاز (ص٣٠).

وجه الدلالة من الآية الكريمة:

أن الضمير في قوله تعالى في هذه الآية: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ يعود على النبي ﷺ، وأما طلب المماثلة للقرآن الكريم فدلت عليها آيات التحدي الأخرى.

أو أن الضمير يشمل النبي ﷺ كما يشمل القرآن الكريم، وفي بيان ذلك **يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وعندي أن الاحتمالات التي احتملها قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ كلها مرادة لرد دعاوى المكذبين في اختلاف دعاويهم، فإن منهم من قال: القرآن كلام بشر، ومنهم من قال: هو مكتتب من أساطير الأولين، ومنهم من قال: إنَّما يعلمه بشر، وهاته الوجوه في معنى الآية تفنِّد جميع الدعاوي، فإن كان كلام بشر فأتوا بمماثلة أو بمثله، وإن كان من أساطير الأولين فأتوا أنتم بجزء من هذه الأساطير، وإن كان يعلِّمه بشر فأتوا أنتم من عنده بسورة، فما هو ببخيل عنكم إن سألتموه، وكل هذا إرخاء لعنان المعارضة، وتسجيل للإعجاز عند عدمها)[(١)].

ومن جانب آخر، فإن الآية جاءت بعد آيات قررت التوحيد، ومن المعلوم أن التوحيد وتقرير النبوة متلازمان، فكان حمل الضمير على النبي ﷺ أولى لما فيه من مراعاة لذلك[(٢)].

■ **مناقشة أدلة القول الثاني:**

نلحظ من خلال عرض استدلال القول الثاني أنه يدور حول عود الضمير في قوله تعالى: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، وقد جعل أصحاب هذا القول الضمير عائدًا على النبي ﷺ، لا على القرآن، **والقول بأن الضمير عائد على النبي ﷺ يردُّه ما يلي:**

---

(١) التحرير والتنوير (١/٣٣٨).

(٢) **انظر**: التحدي في آيات الإعجاز (ص٣٠).

- أن الضمير لو رجع إلى النبي ﷺ لأوهم أن إعجازه لكونه ممن لم يدرس ولم يكتب، لا أنه في نفسه معجز[١].
- أن الله تعالى قال: ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، ومن المعلوم أن السورة ليست لمحمد ﷺ بشبيه ونظير، فيجوز أن يقال: فأتوا بسورة مثل محمد ﷺ[٢].
- أن القرآنَ جديرٌ بسلامة الترتيب، والوقوع على أصح الأساليب، والكلام مع رد الضمير إلى القرآن أحسن ترتيبًا من رده إلى النبي ﷺ، وذلك أن الحديث في الآية من أولِها عن القرآن لا عن النبي ﷺ[٣].
- أن أمرَ الجمِّ الغفيرِ بأن يأتوا بسورة من جنس ما أتى به أحدهم أبلغ في التحدي من أن يقال لهم: ليأت واحد آخر بمثل ما أتى به هذا الواحد[٤].

وأما ما ذكره ابن عاشور من أن الاحتمالات كلها مرادة، فهذا إنما يصح لو لم يرد على رد الضمير إلى النبي ﷺ ما سبق.

وأما ما ذكر من كون رد الضمير إلى النبي ﷺ فيه مراعاة للتلازم بين تقرير التوحيد، وتصديق النبوة، فلا ينافيه القول بعود الضمير على القرآن، إذ التحدي به هو أبرز معجزات النبي ﷺ التي تقرر نبوته[٥].

الترجيح:

من خلال ما سبق يظهر أن الراجح هو قول الجمهور أن المطلوب

---

(١) **انظر**: أنوار التنزيل (ص١٨).
(٢) **انظر**: جامع البيان (١/ ٣٩٧ ـ ٣٩٨).
(٣) **انظر**: الكشاف (١/ ٩٣ ـ ٩٤)، مدارك التنزيل (١/ ٦٥).
(٤) **انظر**: الكشاف (١/ ٩٤)، أنوار التنزيل (ص١٨).
(٥) **انظر**: أعلام النبوة (ص٧٦).

في التحدي هو مماثلة القرآن الكريم دون اشتراط مماثلة النبي ﷺ[(١)].

➜ المسألة الثانية: هل المراد بالتحدِّي مماثلة القرآن في ألفاظه، وأساليبه، أو مماثلته في معانيه كذلك؟

بعد أن تبين أن المراد بالتحدي مماثلة القرآن الكريم، تأتي مسألة أخرى من المسائل التي ذكرها ابن عاشور في المراد بالتحدي، وهي حقيقة المماثلة المطلوبة من المشركين للقرآن الكريم، **وفي هذا يقول**: (ومعنى المثلية في قوله: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ المثلية في فصاحته وبلاغته وهي خصوصيات يدركونها إذا سمعوها ولا تحيط قرائحهم بإيداعها في كلامهم)[(٢)].

وفي موضع آخر قال: (وقد وقع التحدي بإتيانهم بسورة تماثل سور القرآن؛ **أي**: تشابهه في البلاغة وحسن النظم)[(٣)].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمراد بالمماثلة للقرآن: المماثلة في مجموع الفصاحة والبلاغة والمعاني والآداب والشرائع، وهي نواحي إعجاز القرآن اللفظي والعلمي)[(٤)].

وقال ابن عاشور: (فالمماثلة في قوله: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ هي المماثلة في بلاغة الكلام وفصاحته لا في سداد معانيه، قال علماؤنا: وفي هذا دليل على أن إعجازه وفصاحته بقطع النظر عن علو معانيه وتصديق بعضه بعضًا، وهو كذلك)[(٥)].

ومن خلال كلام ابن عاشور، يتبيَّن لنا أنه يرى المماثلة للقرآن تقع

---

(١) وممن رجح هذا القول ابن كثير، **انظر**: تفسير القرآن العظيم (١/ ١٩٩).
(٢) التحرير والتنوير (٢٧/ ٦٦).
(٣) التحرير والتنوير (١١/ ١٧٠).
(٤) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٣).
(٥) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠).

بمماثلته في فصاحته، وبلاغته، وحسن نظمه، وفي معانيه، وآدابه، وشرائعه.

وقد تكلم العلماء رحمهم الله تعالى في هذه المسألة، **وفيما يلي عرضٌ لهذه الأقوال، وأهم أدلتها، والراجح منها:**

أقوال العلماء:

للعلماء في المراد بمماثلة القرآن الكريم المتحَدَّى بها قولان:

القول الأول: المراد بالتحدِّي مماثلةُ القرآن في فصاحته، وبلاغته، وفي معانيه، وعلومه كذلك، وهو قول جمهور العلماء[1].

القول الثاني: المراد بالتحدي مماثلةُ القرآن في فصاحته، وبلاغته، ونظمه، وليس في معانيه، وعلومه، وبه قال جمعٌ من العلماء منهم: الجرجاني[2] والفخر الرازي[3].

الأدلة:

*** أدلة القول الأول:**

استدل أصحاب القول الأول بعدد من الأدلة، ومن أهمها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

---

(١) **انظر**: القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢٧)، البرهان (٢/ ٩٧).

(٢) **الجرجاني**: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمٰن بن محمد الجرجاني النحوي، المتوفى سنة ٤٧١هـ. **انظر ترجمته في**: سير أعلام النبلاء (١٨/ ٤٣٢)، طبقات المفسرين (ص١٣٣)، ولحكاية قوله **انظر**: دلائل الإعجاز (ص٢٥٧).

(٣) **الرازي**: محمد بن عمر بن الحسين المعروف بابن خطيب الري، والفخر الرازي، المفسر ولد سنة ٥٤٣هـ، وتوفي سنة ٦٠٦هـ ، **وانظر ترجمته في**: سير أعلام النبلاء (٢١/ ٥٠٠)، البداية والنهاية (١٣/ ٦٥)، ولحكاية قوله **انظر**: مفاتيح الغيب (١٧/ ٢٠٣).

وجه الدلالة من الآية الكريمة:

هذه الآية الكريمة هي من الآيات الدالة على إعجاز القرآن الكريم، وذلك لما فيها من تقوية الداعي على المعارضة(١)، وهي تصف آيات القرآن بصفتي الإحكام، والتفصيل، والإحكام يكون في اللفظ، والتفصيل يكون في المعنى(٢).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٨، ٣٩].

وجه الدلالة من الآيات الكريمة:

في هذه الآيات الكريمة بيان لإعجاز القرآن الكريم، وتحدٍّ للمشركين أن يأتوا بمثل سورة منه، ثم أخبر سبحانه أن سبب تكذيب المشركين لإعجاز القرآن، وجهلهم بحقيقة التحدي الموجه لهم هو أنهم لم يحيطوا علمًا بمعانيه، ووعده ووعيده، فدل ذلك أن معاني القرآن الكريم من تمام المُتَحَدَّى به(٣).

*** أدلة القول الثاني:**

استدل أصحاب القول الثاني ببعض الأدلة كذلك، ومنها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

---

(١) **انظر**: زاد المسير (٤/ ٧٣)، التحدي في آيات الإعجاز (ص٣٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣٠٣)، الوجيز (١/ ٥١٢)، التحرير والتنوير (١١/ ٣٤١ ـ ٣٥١).

(٣) **انظر**: إرشاد العقل السليم (٤/ ١٤٦)، فتح القدير (٢/ ٥٥٧)، التحرير والتنوير (١١/ ١٧٢).

وجه الدلالة من الآية الكريمة:

أن الله تعالى طلب من المشركين في هذه الآية الإتيان بعشر سور مثل القرآن، ووسَّع سبحانه عليهم، فأجاز لهم أن تكون هذه السور مفتريات، وأصحاب هذا القول يجعلون المراد: مفتريات في موضوعاتها، ومعانيها، وبناءً عليه فقد طلب الله تعالى من المشركين المماثلة في الفصاحة، والأسلوب لا في المعاني[1]، ويكون معنى الآية: (أنتم تقولون محمدٌ افترى القرآن، وكذب في نسبته إلى الله تعالى، ومع ذلك تعترفون أنه بيان بليغ فصيح رائع، فأتوا بعشر سور من تأليفكم، وبيانكم، هي مفتريات مكذوبات، لكنها مثلُ القرآن في سمو بيانه، وروعة أسلوبه)[2].

٢ ـ أن المعاني أمرٌ مشترك يستوي فيه الخاصة والعامة، فلا يصلح أن تكون محلًّا للتحدي[3].

■ **مناقشة أدلة القول الثاني:**

أما ما ذكره أصحاب هذا القول في تفسير قوله تعالى: ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ وأن المراد افتراء موضوعاتها، فيجاب عنه أن الآية لا تدل على ذلك، وإنما فيها أن النبي ﷺ أُمِرَ أن يخاطب المشركين قائلًا لهم: هاتوا عشر سور مختلَقات من عند أنفسكم إن صح أني اختلقته من عند نفسي، فإنكم عرب فصحاء مثلي تقدرون على مثل ما أقدر عليه، بل أنتم أقدر لتعلمكم القصص، والأشعار، وتعودكم القريض، والنظم[4].

فالافتراء المراد في قوله تعالى: ﴿مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ على هذا التفسير

---

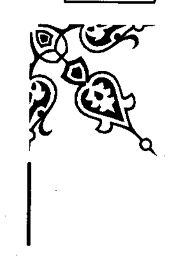
(١) **انظر**: الرسالة الشافية (ص١٥٠)، معالم التنزيل (٤/ ١٦٥)، التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠).
(٢) الإعجاز البياني (ص٥٩).
(٣) **انظر**: دلائل الإعجاز (ص٢٥٥).
(٤) **انظر**: جامع البيان (١٢/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤)، أنوار التنزيل (ص٢٩٢).

هو الافتراء في مصدر السورة لا في موضوعاتها، إذ إنما كان المشركون ينكرون كون القرآن من عند الله تعالى، ويزعمون أن محمدًا ﷺ افتراه، ولم يكن كلامهم عن معاني القرآن الكريم.

وأما ما ذكره أصحاب هذا القول من كون المعاني يشترك فيها الخاصة والعامة إن صح في كلام البشر فلا يصح في معاني كلام الله تعالى، إذ معاني كلام الله تعالى أكمل المعاني، وأتمها، **وفي ذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله: (فالإعجاز في معناه أعظم، وأكثر من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه أعظم من عجز العرب عن الإتيان بمثل لفظه)[1].



(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤٣٤).





المَبْحَثُ الثَّانِي

ثُبُوتُ التَّحَدِّي بالتواتر

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

المراد بالتواتر في اللغة، والاصطلاح

يُبحث التواتر في عدد من العلوم، ومنها: علم القراءات، وعلم الحديث، وعلم أصول الفقه، وغيرها.

ومن ذلك تناول موضوع التواتر في باب كيفية ثبوت التحدي بالقرآن، وذلك لتبيين حقيقة معنى التواتر الذي نقل به القرآن الكريم.

المسألة الأولى: المراد بالتواتر لغةً:

التَّواتُرُ في اللغة: التتابُعُ، وقيل: هو تتابع الأَشياء وبينها فَجَواتٌ وفَتَراتٌ، ومنه: تواتَرَت الإِبل وكلُّ شيء إِذا جاء بعضه في إِثر بعض، وأَصل هذه الكلمة من الوَتِر: وهو الفَرْدُ، والمتواتر فيه جعلُ كل واحد بعد صاحبه فَرْدًا فَرْدًا[١].

ومن خلال النظر في المعنى اللغوي للتواتر تظهر لنا العلاقة بينه، وبين المعنى الاصطلاحي، إذ كلاهما يُطلب فيه التتابع، والاجتماع.

المسألة الثانية: المراد بالتواتر اصطلاحًا:

التواتر عند علماء الحديث: ما رواه جمع عن جمع تُحيل العادة

(١) انظر: لسان العرب (٥/ ٢٧٣)، القاموس المحيط (ص٦٣١).

تواطؤهم على الكذب، وأسندوه إلى شيء محسوس[١].

والمراد بالتواتر عند علماء القرآن: تَلَقي الأمة للقرآن جيلًا عن جيل حتى وصل إلينا[٢].

المَطلَبُ الثَّاني

كيفية ثبوت التحدي

ثبت تحدي المشركين بمماثلة القرآن الكريم ثبوتًا متواترًا، **وقد أشار ابن عاشور إلى هذا الأمر فقال** رَحِمَهُ اللهُ: (فعجز جميع المُتَحَدِّين عن الإتيان بمثل القرآن أمر متواتر بتواتر هذه الآيات[٣] بينهم، وسكوتهم عن المعارضة مع توفر دواعيهم عليها)[٤].

وفي موضع آخر يزيد ابن عاشور هذا الأمر بيانًا **حيث يقول**: (فإن آيات المعارضة الكثيرة في القرآن قد قرعت بها أسماع المعاندين من العرب الذين أبوا تصديق الرسول، وتواترت بها الأخبار بينهم، وسارت بها الركبان بحيث لا يسع ادِّعاء جهلها، ودواعي المعارضة موجودة فيهم: ففي خاصتهم بما يأنسونه من تأهلهم لقول الكلام البليغ، وهم شعراؤهم وخطباؤهم، وكانت لهم مجامع التقاول، ونوادي التشاور والتعاون، وفي عامتهم، وصعاليكهم، بحرصهم على حث خاصتهم لدفع مسبَّة الغلبة عن قبائلهم ودينهم، والانتصار لآلهتهم، وإيقاف تيار دخول رجالهم في دين الإسلام، مع ما عُرف به العربي من إباءة الغلبة، وكراهة

---

(١) **انظر**: فتح المغيث (٣/ ٣٩٦)، نزهة النظر (ص١٩٦).

(٢) **انظر**: الإتقان (٢/ ٤٩١) ط المجمع، المدخل لدراسة القرآن (ص٣٩٣).

(٣) يشير رَحِمَهُ اللهُ إلى الآيات التي فيها تحد للمشركين في كلٍّ من سور: البقرة: آية ٢٣، ويونس: آية ٣٨، وهود: آية ١٣ ـ ١٤.

(٤) التحرير والتنوير (١/ ١٠٣).

الاستكانة، فما أمسك الكافة عن الإتيان بمثل القرآن إلا لعجزهم عن ذلك، وذلك حجة على أنه منزل من عند الله تعالى، ولو عارضه واحد أو جماعة لطاروا به فرحًا، وأشاعوه، وتناقلوه، فإنهم اعتادوا تناقل أقوال بلغائهم من قبل أن يغريهم التحدي، فما ظنك بهم لو ظفروا بشيء منه يدفعون به عنهم هذه الاستكانة، وعدم العثور على شيء يدَّعى من ذلك يوجب اليقين بأنهم أمسكوا عن معارضته)(١).

وفي موضع آخر يبين ابن عاشور حصول العلم الضروري(٢) بعجز العرب عن تنفيذ ما طُلب منهم في التحدي، **حيث يقول**: (وكون النبي ﷺ تحدَّى به، وأن العرب عجزوا عن معارضته، مما عُلِمَ بالضرورة إجمالًا، وتصدَّى أهل علم البلاغة لتفصيله)(٣).

وتواتر التحدي بيِّنٌ واضحٌ من خلال آيات التحدي المنقولة كباقي القرآن الكريم بالتواتر، وفي كلام ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ السابق بعض الأمور الدالة على تواتر التحدي، وفائدته، **والتي يحسن الوقوف عندها، وهي**:

١ ـ من أدلة تواتر التحدي تواتر الآيات المصرِّحة به في القرآن الكريم.

٢ ـ من أدلة تواتر التحدي عدم المعارضة للقرآن الكريم مع توافر دواعيها، **ومن أبرز هذه الدواعي**:

---

(١) التحرير والتنوير (١/٣٤٣).

(٢) العلم الضروري: ما لا يحتاج إلى نظر، واستدلال، **انظر**: شرح الورقات ص١٠٨، الشرح الكبير (١/٢٥٨).

(٣) التحرير والتنوير (١/١٠٧).

- ما يأنسه شعراؤهم، وبلغاؤهم في أنفسهم من التأهل لقول البليغ من القول، وهذا داعٍ خاصٌّ بالخاصة من العرب.
- الحرص على دفع مسبَّة الغلبة عن القبائل، والدين، والآلهة، وهذا داعٍ مشترك بين خاصتهم، وعامتهم، وإن كان في عامتهم أظهر.
- ما عُرف به العربي من الأنفة، وكراهة الهزيمة، وهذا كذلك داعٍ مشترك بين خاصتهم، وعامتهم[1].

٣ ـ فائدة تواتر التحدي هي ثبوت إعجاز القرآن إجمالًا، وأما تفاصيل، وأوجه هذا الإعجاز، فلا يفيد فيها معرفة تواتر التحدي، ولا يغني عن تعلمها من أهلها، وطلبها من مظانها[2].

---

(١) هذه الدواعي هي التي أشار إليها ابن عاشور، وهناك بعض الدواعي التي لم يذكرها، وذكرها غيره من العلماء، **ومن أبرزها**:
١ ـ أن القرآن أثار حفائظهم، وسفَّه عقولهم، وعقول آبائهم، ونعى عليهم الجمود، والجهالة، والشرك، فكيف يسكتون بعد هذا التقريع، والتشنيع.
٢ ـ أن العرب عُرفوا برجاحة العقول، وعلو الهمة، فلم يكونوا ليتركوا السهل اليسير من القول إلى الصعب العسير من الحروب التي قطعت أرحامهم، وفرقت جمعهم.
٣ ـ أن الله تعالى أخبر عن المشركين أنهم لن يعارضوا القرآن الكريم، ولو كان بمقدورهم المعارضة لحرصوا عليها ليكذبوا القرآن، فهذا دافعٌ كبير للمعارضة، ومع ذلك تركوها.
ولمزيد تفصيل لدواعي المعارضة، **انظر**: القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢١ ـ ٢٢)، مناهل العرفان (٢/٣٠٢).

(٢) وللجرجاني كلام نفيس في هذا الموضوع بيَّن فيه عدم كفاية العلم بتواتر التحدي لمن أراد أن يتعرف تفاصيل الإعجاز، يقول: فإن قال منهم قائل: إنك قد أغفلت فيما رتبت، فإن لنا طريقًا إلى إعجاز القرآن غير ما قلت، وهو علمنا بعجز العرب عن أن يأتوا بمثله، وتركهم أن يعارضوه مع تكرار التحدي عليهم، وطول التقريع لهم بالعجز عنه، قيل له: خبرنا عما اتفق عليه المسلمون من اختصاص نبينا ﷺ بأن كانت معجزته باقية على وجه الدهر، أتعرف له معنى غير أن لا يزال البرهان منه لائحًا معرضًا لكل من أراد العلم به، وطلب الوصول إليه، فانظر أي رجل =

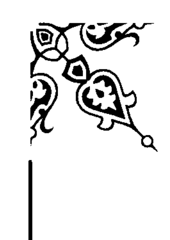
٤ ـ أن القرآن الكريم لم يعارضه أحد من العرب معارضة حقيقية، ولو حدثت تلك المعارضة لطاروا بها فرحًا، وتناقلوها بينهم، وهذا مما يقوي التحدي، إذ معناه تسليم المشركين بمقتضى هذا التحدي، واعترافهم عمليًّا بعجزهم عن المعارضة.

ومما يؤكد تسليمهم بمقتضى التحدي، وأنهم لم يمنعهم من الإسلام إلا مانع المكابرة، والمعاندة أنهم دخلوا بعد فتح مكة في دين الله أفواجًا، و(ليس مما عرف في عوائد الأمم، وأخلاقها أن تنبذ قبائل عظيمة كثيرة أديانًا تعتقد صحتها، ويجيء جميعها طائعًا نابذًا دينه في خلال أشهر من عام الوفود لم يجمعهم فيه ناد، ولم تسر بينهم سفراء، ولا حشرهم مجمع، لولا أنهم كانوا متهيئين لهذا الاعتراف، لا يصدهم عنه إلا صاد ضعيف، وهو المكابرة والمعاندة)[1].



= تكون إذا أنت زهدت في أن تعرف حجة الله تعالى، وآثرت فيه الجهل على العلم، وعدم الاستبانة على وجودها، **انظر**: دلائل الإعجاز (ص٩ ـ ١٠) بتصرف.

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٩).




المبحث الثالث

مراتب التحدي

قبل الشروع في تناول هذا المبحث، لا بد من الإشارة إلى ما يتعلق بتقسيمات مراتب التحدي عند العلماء رحمهم الله تعالى، ذلك أن العلماء تعددت مناهجهم في تصنيف آيات التحدي وتقسيمها، غير أن هذا التعدد في مناهج العلماء لا يعني خلافًا بينهم في حقيقة الأمر، وإنما هي محاولات لتقريب المعنى لم تؤثر في نتائج بحثهم لإعجاز القرآن الكريم.

وهذه بعض التقسيمات التي ذكرها العلماء رحمهم الله تعالى:

١ ـ تقسيم مراتب التحدي إلى ثلاث مراتب[(١)].

٢ ـ **تقسيم التحدي إلى نوعين: ظاهر** ـ وهو محل هذا البحث ـ **وخفي** ـ وهي الآيات التي تصف القرآن الكريم بالإحكام ـ وتقسيم الآيات الواردة في النوع الأول إلى ستة مواضع ورد فيها التحدي الصريح، وربما كانت بعض الآيات في مرتبة واحدة من حيث المعنى غير أن أصحاب هذا القول جعلوها مراتب مستقلة[(٢)].

---

(١) هذا صنيع ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو صنيع غالب العلماء ممن كتب في التحدي على اختلاف بينهم في ترتيب هذه المراتب، **انظر**: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٩)، التحرير والتنوير (١/ ٣٣٧).

(٢) ممن صنع هذا أحمد بن الحسين الهاروني، **انظر**: التحدي (ص١٢).

٣ ـ **تقسيم آيات التحدي باعتبار زمن التحدي إلى قسمين: التحدي في مكة، والتحدي في المدينة.**

٤ ـ تقسيم مراتب التحدي إلى أربعة مراتب، وذلك من خلال تقسيم الآيات الواردة في المرتبة الثالثة إلى قسمين(١).

وهكذا يظهر من عرض هذه التقسيمات أنها مجرد تقسيمات لتوضيح مراتب التحدي، ولا يترتب عليها أثر في تناول التحدي في القرآن الكريم، والله تعالى أعلم.

وبعدُ: فقد تناول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ مراتب التحدي إجمالًا، وتناول مراتب التحدي من خلال الآيات الواردة فيها تفصيلًا، ومما ذكره على سبيل الإجمال في مراتب التحدي **قوله**: (وقد كان التحدي أولًا بالإتيان بكتاب مثل ما نزل منه، ففي سورة الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]. فلما عجزوا استُنزلوا إلى الإتيان ﴿بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [هود: ١٣] في سورة هود، ثم استُنزلوا إلى الإتيان ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨] في سورة يونس)(٢).

وفيما يلي سيتمُّ استعراض هذه المراتب على سبيل التفصيل من خلال النظر في الآيات الواردة فيها، ومدى دلالتها على التحدي.

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

المرتبة الأولى من مراتب التحدي

يذكر العلماء رحمهم الله تعالى في هذه المرتبة الآيات الدالة على التحدي بمثل القرآن الكريم، **وهي الآيات الثلاث التالية**:

---

(١) **انظر**: الإعجاز البياني (ص٥٣).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٧).

١ - **قوله تعالى:** ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

٢ - **قوله تعالى:** ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٤٩، ٥٠].

٣ - **قوله تعالى:** ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤].

وفي بعض هذه الآيات بحثٌ للعلماء رحمهم الله تعالى، هل هي من آيات التحدي أم لا؟ وفيما يلي عرضٌ لهذه الآيات الثلاث، **وتناولها من خلال المسائل التالية:**

➢ المسألة الأولى: دلالة آية سورة الإسراء على التحدي:

مما استدل به العلماء على التحدي بمثل القرآن الكريم قول الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، **وفيما يلي بيان التفسير الإجمالي لهذه الآية، ودلالتها على التحدي:**

الفرع الأول: التفسير الإجمالي لآية سورة الإسراء:

يأمر ربنا تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة نبيه محمدًا ﷺ أن يقول (للذين لا يعرفون جلالة قدر التنزيل ولا يفهمون فخامة شأنه الجليل)[1]: إن الإنس ومن يُزْعَمُ لهم القيام بالأعمال العظيمة كالجن

(١) إرشاد العقل السليم (٥/١٩٣).

لو اتفقوا على أن يحضروا ما يماثل القرآن الكريم في بلاغته، ومعانيه لم يقدروا على ذلك ولو تعاون بعضهم مع بعض في ذلك[١].

الفرع الثاني: هل في آية سورة الإسراء دلالةٌ على التحدي؟

أشار ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ أثناء تفسيره لهذه الآية إلى دلالتها على التحدي، **وفي ذلك يقول**: (وهذا تنويهٌ بشرف القرآن، فكان هذا التنويه امتنانًا على الذين آمنوا به، وهم الذين كان لهم شفاء ورحمة، وتحديًا بالعجز على الإتيان بمثله للذين أعرضوا عنه، وهم الذين لا يزيدهم إلا خسارًا... وذكر الجن مع الإنس لقصد التعميم كما يقال: لو اجتمع أهل السماوات والأرض، وأيضًا لأن المُتَحدِّين بإعجاز القرآن كانوا يزعمون أن الجن يقدرون على الأعمال العظيمة... إلى أن قال رَحِمَهُ اللهُ: وهذه الآية مفحمةٌ للمشركين في التحدي بإعجاز القرآن)[٢].

وما ذكره ابن عاشور من دلالة هذه الآية على التحدي، وكونها مفحمةً للمشركين هو ما قرره العلماء رحمهم الله تعالى في ثنايا تفاسيرهم عند تفسير هذه الآية الكريمة[٣].

وهذا بخلاف ما ذهب إليه بعض الأفاضل[٤] من كون هذه الآية الكريمة إخبارٌ عن عجز الجن والإنس لا تحدٍّ، معللًا ما قاله بأن الآيات لا تتضمن طلبًا واضحًا صريحًا للإتيان بمثل القرآن، ولكنها جملة خبرية،

---

(١) **انظر في تفسير الآية الكريمة**: تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١٧)، فتح القدير (٣/ ٣٢٣)، التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٣) **انظر**: إرشاد العقل السليم (٥/ ١٩٣)، فتح القدير (٣/ ٣٢٣)، روح المعاني (١٥/ ١٦٦).

(٤) **هو**: الدكتور صلاح الخالدي، **انظر**: الإعجاز البياني (ص٥٢ ـ ٥٣).

والخبر لا يكون تحديًا[١].

وما ذهب إليه هذا الفاضل من كون الآيات الكريمة لا تحدي فيها ينافي صنيع أئمة المفسرين ممن استدل بهذه الآية الكريمة على التحدي، إذ الجملة الخبرية هنا بمعنى الطلب.

< المسألة الثانية: دلالة آية سورة القصص على التحدي:

ومما استدل به العلماء رحمهم الله تعالى على التحدي بمثل القرآن الكريم قول الله تعالى في سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩]، **وفيما يلي تفسير هذه الآية الكريمة إجمالًا، والكلام في دلالتها على التحدي:**

الفرع الأول: التفسير الإجمالي لآية سورة القصص:

(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمَّد للقائلين للتوراة والإنجيل هما سحران تظاهرا: ائتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما لطريق الحق ولسبيل الرشاد ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٤٩﴾ في زعمكم أن هذين الكتابين سحران، وأن الحق في غيرهما)[٢].

الفرع الثاني: هل في آية سورة القصص دلالةٌ على التحدي؟

تحدث ابن عاشور عند كلامه على هذه الآية عن دلالتها على التحدي، **فقال** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد تحداهم القرآن في هذه الآية بما يشتمل عليه القرآن من الهدى ببلاغة نظمه، وهذا دليل على أن مما[٣] يشتمل عليه من العلم والحقائق هو من طرق إعجازه)[٤].

---

(١) **انظر**: الإعجاز البياني للخالدي (ص٥٢).
(٢) جامع البيان (١٨/ ٢٧١).
(٣) هكذا في التحرير والتنوير، ولعل صوابها: ما.
(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ١٣٩).

ومن خلال هذا النقل يتبن لنا أن ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ يرى أن هذه الآية دالةٌ على التحدي بمثل القرآن الكريم.

وما ذكره ابن عاشور قال به جمع من العلماء[١].

وذهب بعض العلماء إلى عدم دلالة هذه الآية الكريمة على التحدي بمثل القرآن، وإنما غاية ما فيها المطالبة بكتاب من عند الله تعالى، ولم يُطْلَب منهم في هذه الآية الإتيان بكتاب من عند أنفسهم[٢].

ومن المعلوم ـ كما مرَّ في المبحث الأول من هذا الفصل ـ أن التحدي للمشركين كان بأن يأتوا بمثل القرآن من عند أنفسهم، وعليه فما ذهب إليه جمع من أهل العلم، ومنهم ابن عاشور من كون هذه الآية الكريمة من آيات التحدي لا يتفق مع المراد بالتحدي، ويكون الأقرب للصواب القول بأن هذه الآية ليست من آيات التحدي، والله أعلم.

◄ المسألة الثالثة: دلالة آية سورة الطور على التحدي:

ومما استدل به العلماء رحمهم الله تعالى على التحدي بمثل القرآن الكريم قول الله تعالى في سورة الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٣، ٣٤]، وفيما يلي بيان تفسير الآية الكريمة إجمالًا، **ودلالتها على التحدي**:

الفرع الأول: التفسير الإجمالي لآية سورة الطور:

يخبر الله تعالى عن المشركين أن من جملة أقوالهم، وافترائهم على

---

(١) ومنهم: ابن تيمية، وابن كثير، والرازي، **انظر**: الجواب الصحيح (٢/ ٣٥١)، تفسير القرآن العظيم (١/ ١٩٩)، مفاتيح الغيب (٢/ ١٢٨).

(٢) وممن قال بذلك الدكتور صلاح الخالدي، **انظر**: إعجاز القرآن البياني (ص٥١).

النبي ﷺ أنهم قالوا: إنه اختلق القرآن، وقاله من تلقاء نفسه، ويبين ﷻ أن الذي حملهم على قولهم هذا هو كفرهم، وأنهم إن كانوا صادقين في وصف النبي ﷺ بافتراء القرآن، وقوله من تلقاء نفسه، فليقولوا حديثًا مثله، فإنهم من أهل لسان محمد ﷺ ولن يتعذر عليهم أن يأتوا من ذلك بمثل الذي أتى به محمد ﷺ[1].

الفرع الثاني: هل في آية سورة الطور دلالةٌ على التحدي؟

أشار ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ أثناء تفسيره لهذه الآية الكريمة إلى مقالة المشركين عن النبي ﷺ أنه تقوَّل القرآن الكريم، **فقال**: (ولما كانت مقالتهم هذه طعنًا في القرآن، وهو المعجزة القائمة على صدق رسالة محمد ﷺ، وكانت دعواهم أنه تقوَّل على الله من تلقاء نفسه قد تروج على الدهماء تصدَّى القرآن لبيان إبطالها بأن تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن بقوله: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾؛ **أي**: صادقين في أن محمَّدًا ﷺ تقوَّله من تلقاء نفسه؛ **أي**: فعجزهم عن أن يأتوا بمثله دليل على أنهم كاذبون.

ووجه الملازمة أن محمَّدًا ﷺ أحد العرب وهو ينطق بلسانهم. فالمساواة بينه وبينهم في المقدرة على نظم الكلام ثابتة، فلو كان القرآن قد قاله محمَّد ﷺ لكان بعض خاصة العرب البلغاء قادرًا على تأليف مثله، فلما تحداهم الله بأن يأتوا بمثل القرآن وفيهم بلغاؤهم وشعراؤهم وكَلَمَتُهم؛ وكلهم واحد في الكفر، كان عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن دالًّا على عجز البشر عن الإتيان بالقرآن، ولذلك قال تعالى في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا مَنِ ٱسْتَطَعْتُم

---

(١) **انظر**: جامع البيان (٢١/٥٩٦)، تفسير القرآن العظيم (٧/٤٣٦)، فتح القدير (٥/١١٣)، التحرير والتنوير (٢٧/٦٥).

مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [هـود: ١٣]، كـمـا قـال تـعـالـى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾) [الأنعام: ٣٣][1].

وبهذا الكلام من ابن عاشور يتبين لنا أنه يقول بدلالة هذه الآية الكريمة على التحدي بمثل القرآن، وما قاله ابن عاشور قال به أكثر المفسرين[2].

وذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية تدل على التحدي بأقل ما يطلق عليه أنه حديثٌ، وبالتالي تدل على التحدي بالقليل والكثير من القرآن[3]، وهذا القول لا ينافي كون هذه الآية دالةٌ على التحدي، وإنما يخالف أصحابها في المقدار الذي تدل على التحدي به.

المَطْلَبُ ٱلثَّانِي

المرتبة الثانية من مراتب التحدي

المسألة الأولى: ما هي المرتبة الثانية من مراتب التحدي؟

ذكر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المسألة خلافًا بين العلماء رحمهم الله تعالى، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٧/ ٦٥ ـ ٦٦).

(٢) **انظر**: جامع البيان (٢١/ ٥٩٦)، أنوار التنزيل (ص٦٩٦)، مدارك التنزيل (٣/ ٣٨٦).

(٣) حُكِيَ هذا القول عن بعض العلماء، وما ذكره هؤلاء العلماء من دلالة هذه الآية على التحدي بالقليل والكثير من القرآن اعتمدوا فيه على المعنى اللغوي للحديث، ولكنهم لم يراعوا دلالة السياق على إرادة القرآن كله بالحديث في هذه الآية، وبمثل دلالة السياق فسَّره بعض السلف بذلك، **انظر**: إعجاز القرآن (ص١٦٢)، مجموع الفتاوى (٢٠/ ٤٨٢)، الدر المنثور (١٣/ ٧٠٩)، الإتقان (٤/ ١٨).

فقال رَحِمَهُ اللهُ: (وتحدَّاهم هنا بأن يأتوا بعشر سور خلاف ما تحداهم في غير هذا المكان بأن يأتوا بسورة مثله كما في سورة البقرة وسورة يونس.

فقال ابن عباس وجمهور المفسرين: كان التحدي أول الأمر بأن يأتوا بعشر سور مثل القرآن، وهو ما وقع في سورة هود، ثم نسخ بأن يأتوا بسورة واحدة كما وقع في سورة البقرة وسورة يونس، فتخطى أصحاب هذا القول إلى أن قالوا: إن سورة هود نزلت قبل سورة يونس وهو الذي يعتمد عليه.

وقال المبرد[1]: تحدَّاهم أولًا بسورة ثم تحدَّاهم هنا بعشر سور لأنهم قد وسَّع عليهم هنا بالاكتفاء بسور مفتريات، فلمَّا وسَّع عليهم في صفتها أكثرَ عليهم عددها، وما وقع من التحدي بسورة اعتبر فيه مماثلتها لسور القرآن في كمال المعاني، وليس بالقوي)[2].

وبعد ذكر كلام ابن عاشور في هذه المسألة نستعرض خلاف العلماء في هذه المسألة، وأدلتهم، والراجح منها، **وذلك من خلال التالي:**

أقوال العلماء:

للعلماء رحمهم الله تعالى في هذه المسألة قولان:

القول الأول: المرتبة الثانية هي التحدي بمثل عشر سورٍ من القرآن الكريم، وهو قول أكثر العلماء[3]، وبه قال ابن عاشور[4].

---

(١) **المبرِّد**: أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الأزدي البصري توفي سنة ٢٨٦هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٥٧٦)، البداية والنهاية (١١/ ٩٤).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠).

(٣) **انظر**: تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣١٠)، أنوار التنزيل (ص٢٩٢)، فتح القدير (٢/ ٦٠٧).

(٤) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠).

القول الثاني: المرتبة الثانية هي التحدي بمثل سورة في ألفاظها، ومعانيها، وبه قال بعض العلماء، ومنهم المبرد، والثعالبي[(١)]، وابن عطية[(٢)].

الأدلة:

*** دليل القول الأول:**

استدل أصحاب هذا القول بأن هذا هو مقتضى التدرج في التحدي، إذ لا معنى للتحدي بعشر لمن عجز عن التحدي بواحدة[(٣)].

*** أدلة القول الثاني:**

استدل أصحاب هذا القول بعدد من الأدلة، **ومن أبرزها:**

١ ـ أن سورة يونس، وفيها التحدي بسورة واحدة نزلت قبل سورة هود، وعليه استقرت الرواية من الثقات[(٤)].

٢ ـ أن التحدي بسورة واحدة كان بمثل فصاحتها، وبلاغتها، ومعانيها، وتشريعاتها، وأما التحدي بعشر سور فلم يطلب فيه إلا المماثلة في الفصاحة، والبلاغة، ولذا قُدِّمَ ما يُطْلَبُ فيه المماثلة الكلية على ما يُطْلَبُ فيه المماثلة الجزئية[(٥)].

---

(١) **الثعالبي**: عبد الرحمٰن بن محمد بن مخلوف، أبو زيد الثعالبي الجزائري المغربي المالكي ولد سنة ٧٨٦هـ، وتوفي سنة ٨٧٥هـ، **انظر**: الضوء اللامع (٤/ ١٥٢)، طبقات المفسرين (ص٣٤٢).

(٢) **ابن عطية**: عبد الحق بن غالب بن تمام المحاربي الأندلسي أبو محمد، ولد سنة ٤٨٠هـ، وتوفي سنة ٥٤١هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٥٨٦)، طبقات المفسرين (ص١٧٦).

(٣) **انظر**: روح المعاني (١٢/ ٢٠)، مفاتيح الغيب (١٧/ ١٩٥).

(٤) **انظر**: البرهان (١/ ١٩٤).

(٥) **انظر**: معالم التنزيل (٤/ ١٦٥)، روح المعاني (١٢/ ٢١).

■ **مناقشة الأقوال:**

أولًا: مناقشة دليل القول الأول:

لقد رد أصحاب القول الثاني على هذا الدليل بأن التزام التدرج لا ينخرم إذا تقدم التحدي بسورة على التحدي بعشر، إذ تقديم التحدي بالسورة على التحدي بعشر سور هو لأن التحدي بسورة لا يقع إلا بسورة تامة الألفاظ والمعاني، وأما التحدي بعشر سور فيكفي فيه الإتيان بمثل الألفاظ، وهذا نوعٌ من التدرج في نوع المتحدَّى به، ويدل لذلك وصف «مفتريات» في قوله تعالى في سورة هود: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ [هود: ١٣]، فإن هذا الوصف يعني افتراء الألفاظ دون مراعاة المعاني[١].

ويجاب عن هذا بأن المطلوب في التحدي هو المماثلة للألفاظ، والمعاني جميعًا يستوي في ذلك التحدي بسورة، أو التحدي بعشر سور.

وقد مضى تقرير هذه المسألة في المبحث الأول من هذا الفصل، ومضى بيان معنى ما استدلوا به من وصف «مفتريات»، وأن المراد الافتراء في مصدر السور لا في موضوعها، ومعانيها[٢]، وبالتالي فإن المناقشة المذكورة غير واردة على دليل القول الأول.

ثانيًا: مناقشة أدلة القول الثاني:

أما الدليل الأول للقائلين بالقول الثاني فقد نوقش بأنه على فرض صحة نزول سورة يونس قبل سورة هود، فإن ذلك لا يمنع من نزول

---

(١) **انظر**: معالم التنزيل (٤/ ١٦٥)، روح المعاني (١٢/ ٢١).

(٢) **انظر**: (ص١١٩).

بعض الآيات في سورة هود قبل سورة يونس(١).

وأما الدليل الثاني للقائلين بالقول الثاني، فقد مضى بيان أن التحدي هو في الألفاظ، والمعاني في جميع مراتب التحدي.

الترجيح:

وبعد عرض أقوال العلماء رحمهم الله تعالى في هذه المسألة يتبين لنا قوة الخلاف فيها، ولعل أقربَ القولين للصواب القولُ الأولُ، والله أعلم.

المسألة الثانية: دلالة آية سورة هود على التحدي:

يقول الله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، وفيما يلي نتناول التفسير الإجمالي للآية الكريمة، **ودلالتها على التحدي:**

الفرع الأول: التفسير الإجمالي لآية سورة هود:

يذكر ربنا تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة أن المشركين قالوا: إن النبي ﷺ افترى القرآن، واختلقه من عنده، ولذا يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم: إن كنت افتريته، وأنا واحد منكم، فأتوا أنتم بمثل بعض سوره، وافتروها كذلك، واستعينوا بمن شئتم من آلهتكم، ومن يعينكم، فإن صنعتم ذلك دلَّ على صدقكم أني افتريته، وإلا تبيَّن كذبكم(٢).

الفرع الثاني: دلالة آية سورة هود على التحدي:

استدل العلماء رحمهم الله تعالى بهذه الآية على التحدي، ولا يؤثر

---

(١) **انظر**: روح المعاني (١٢/ ٢١).

(٢) **انظر**: جامع البيان (١٢/ ٣٤٣ ـ ٣٤٤)، الجامع لأحكام القرآن (٩/ ١٥)، تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣١٠).

على ذلك اختلافهم في كونها دليلًا على المرتبة الثانية أو الثالثة، فكل قائل يستدل بهذه الآية الكريمة على التحدي كما مرَّ في المسألة السابقة[١].

المطلب الثالث

المرتبة الثالثة من مراتب التحدي

ومدار هذه المرتبة على الآيات التي فيها التحدي بالإتيان بمثل سورة من القرآن الكريم، **وهي آيتان:**

١ - قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

٢ - قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

وفيما يلي نتناول هاتين الآيتين الكريمتين من حيث التفسير الإجمالي، ودلالتها على التحدي:

المسألة الأولى: دلالة آية سورة البقرة على التحدي:

الفرع الأول: التفسير الإجمالي لآية سورة البقرة:

يخبر الله تعالى المشركين، وأهل الكتاب محتجًّا عليهم في إثبات نبوة النبي ﷺ قائلًا: إن كنتم أيها الكفار في شك من معجزة النبي ﷺ، وهي القرآن الكريم فأتوا بسورة من مثل القرآن، واستعينوا بمن شئتم من الأعوان إن كنتم صادقين أن محمدًا قاله من عنده[٢].

---

(١) ومن استدل بهذه الآية على التحدي: جامع البيان (١٢/ ٣٤٤)، تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣١٠)، فتح القدير (٢/ ٦٠٧)، التحرير والتنوير (١٢/ ٢٠).

(٢) انظر: جامع البيان (١/ ٣٩٥ - ٣٩٩)، تفسير القرآن العظيم (١/ ١٩٨ - ٢٠١)، تفسير الجلالين (ص٢٣)، التحرير والتنوير (١/ ٣٣٥ - ٣٤١).

الفرع الثاني: دلالة آية سورة البقرة على التحدي:

هذه الآية الكريمة من الآيات التي دلَّت على التحدي بمثل سورة من القرآن الكريم، وقد أشار ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ إلى دلالتها على التحدي، **فقال في أثناء تفسيرها متحدثًا عن القرآن الكريم:** (القرآن قد اشتطت ألفاظه ومعانيه على ما لو تدبره العقل السليم لجزم بكونه من عند الله تعالى، فإنه جاء على فصاحة وبلاغة ما عهدوا مثلهما من فحول بلغائهم، وهم فيهم متوافرون متكاثرون حتى لقد سجد بعضهم لبلاغته، واعترف بعضهم بأنه ليس بكلام بشر، وقد اشتمل من المعاني على ما لم يطرقه شعراؤهم، وخطباؤهم، وحكماؤهم، بل وعلى ما لم يبلغ إلى بعضه علماء الأمم، ولم يزل العلم في طول الزمان يظهر خبايا القرآن، ويبرهن على صدق كونه من عند الله، فهذه الصفات كافية لهم في إدراك ذلك، وهم أهل العقول الراجحة، والفطنة الواضحة التي دلت عليها أشعارهم، وأخبارهم، وبداهتهم، ومناظرتهم، والتي شهد لهم بها الأمم في كل زمان، فكيف يبقي بعد ذلك كله مسلك للريب فيه إليهم فضلًا عن أن يكونوا منغمسين فيه)[1].

وقرر ابن عاشور في أثناء تفسيره لهذه الآية الكريمة سبب تكرار التحدي فيها مع أن التحدي بمثل القرآن الكريم كان قد سبق في القرآن المكي، وذلك في سورة يونس، **فقال** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد كان المشركون بالمدينة تبعًا للمشركين بمكة، وكان نزول هذه السورة في أول العهد بالهجرة إلى المدينة، فكان المشركون كلهم أَلْبًا[2] على النبي ﷺ يتداولون الإغراء بتكذيبه، وصدِّ الناس عن اتِّباعه، فأعيد لهم التحدي

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٦).

(٢) **الأَلْبُ**: الجمع الكثير من الناس، وهُمْ عليه أَلْبٌ واحدٌ: مُجْتَمِعونَ عليه بالظُّلْمِ والعَداوةِ، **انظر**: لسان العرب (١/ ٢١٥)، القاموس المحيط (ص٧٦).

بإعجاز القرآن الذي كان قد سبق تحديهم به في سورة يونس، وسورة هود، وسورة الإسراء)[١].

وما قرره ابن عاشور من دلالة هذه الآية على الإعجاز هو ما ذكره أهل العلم عند تفسيرهم لهذه الآية[٢].

وفي كلام ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ السابق بعض الوقفات، وهي كالتالي:

١ ـ في القرآن الكريم أمورٌ عديدةٌ تجعل الشكوك في كونه ليس من عند الله تعالى أمرًا مستحيلًا، **وأهم هذه الأمور:**

- **الفصاحة، والبلاغة التي لم يعهد مثلها البلغاء.**
- **اشتماله على المعاني التي لم يطرق مثلها الشعراء، والخطباء، والعلماء.**
- **أن العلم لم يزل يظهر ما فيه من الخبايا.**

٢ ـ التحدي بمماثلة القرآن الكريم هو للمشركين سواء في مكة أو في المدينة، وذلك أنهم هم من ينكر كون القرآن الكريم من عند الله تعالى، والمسلمون يسلمون بذلك، وعليه فلم تكن هناك حاجة لتحديهم كما هي الحاجة إلى تحدي المشركين[٣].

المسألة الثانية: دلالة آية سورة يونس على التحدي:

الفرع الأول: التفسير الإجمالي لآية سورة يونس:

يذكر ربنا تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة أن المشركين قالوا:

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٧).

(٢) **انظر**: جامع البيان (١٢/ ١٨٢ ـ ١٨٤)، تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٩)، فتح القدير (١/ ٦٨).

(٣) **انظر**: إرشاد العقل السليم (١/ ٦٣)، روح المعاني (١/ ١٩٢)، الإعجاز البياني (ص٦٦ ـ ٦٧).

إن النبي ﷺ افترى القرآن، واختلقه من عنده، ولذا يأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم: إن كنت افتريته، وأنا واحد منكم، فأْتوا أنتم بمثل سورة واحدة منه، وافتروها كذلك، واستعينوا بمن شئتم من آلهتكم، ومن يعينكم، فإن صنعتم ذلك دلَّ على صدقكم أني افتريته، وإلا تبين كذبكم[١].

ونلاحظ من خلال هذا التفسير الإجمالي لآية التحدي في سورة يونس التشابه الكبير بين معنى آية التحدي في هذه السورة، وبين معنى آية التحدي في سورة هود، فكِلَا الآيتين سُبِقَت بالحديث عن تشكيك المشركين في القرآن، وزعمهم أن النبي ﷺ افتراه، فتأتي آيات التحدي لإبطال هذا الزعم، وإزالة هذا التشكيك[٢].

الفرع الثاني: دلالة آية سورة يونس على التحدي:

دلَّت هذه الآية الكريمة على التحدي، وأوضح ذلك العلماء رحمهم الله تعالى في كتبهم[٣]، **وفي ذلك يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ **بعد أن بيَّن دعوى المشركين على النبي ﷺ أنه افترى القرآن الكريم:** (وقد أمر الله نبيَّه أن يجيبهم عن دعوى الافتراء بتعجيزهم وأن يقطع الاستدلال عليهم، فأمرهم بأن يأتوا بسورة مثله، والأمر أمر تعجيز، وقد وقع التحدي بإتيانهم بسورة تماثل سور القرآن؛ **أي:** تشابهه في البلاغة وحسن النظم)[٤].

---

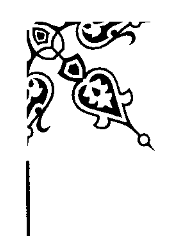
(١) **انظر:** جامع البيان (١٢/ ١٨٢ ـ ١٨٤)، فتح القدير (٢/ ٥٥٧)، التحرير والتنوير (١١/ ١٧٠).

(٢) **انظر:** الإعجاز البياني (ص٥٧).

(٣) **انظر:** مدارك التنزيل (٢/ ٢٢)، تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٦٩).

(٤) التحرير والتنوير (١١/ ١٧٠).







المَبْحَثُ الرَّابِعُ

وُقوعُ التَّحَدِّي بالسُّورِ دُونَ الآيات

يحتاج البحث في هذا الأمر إلى معرفة بعض التعريفات الهامة، والتي لا يتم فهم الموضوع بدونها، ومن أهم تلك التعريفات تعريف كلٍّ من السورة، والآية، وذلك لما يترتب على فهم تعريفهما من تصور القدر المتحدى به، **وفيما يلي تناول ذلك:**

◄ المسألة الأولى: تعريف السورة في اللغة، والاصطلاح:

الفرع الأول: تعريف السورة في اللغة:

تدور معاني السورة في لغة العرب على معنى المنزلة، والبقية من الشيء، ولتقرير ذلك يقول ابن منظور رَحِمَهُ اللهُ: (السُّورَةُ: المنزلة والجمع سُوَرٌ... والسُّورَةُ من البناء: ما حَسُنَ وطال... وهي كل منزلة من البناء، ومنه سُورَةُ القرآن لأنها منزلةٌ بعد منزلة مقطوعةٌ عن الأُخرى، والجمع سُوَرٌ بفتح الواو... سُميت السُّورَةُ من القرآن سُورَةً لأنها درجة إلى غيرها، ومن همزها جعلها بمعنى بقية من القرآن)[1].

ويقول الفيروزآبادي رَحِمَهُ اللهُ: (والسُّورَةُ: المَنْزِلَةُ، ومن القرآنِ: معروفة؛ لأنها منزلة بعد منزلة مقطوعة عن الأخرى، والشرف، وما طال من البناء وحسن، والعلامة، وعرق من عروق الحائط، والجمع: سُوْرٌ

(١) **انظر:** لسان العرب (٤/ ٣٨٤) بتصرف.

وسُوَرٌ)[١].

الفرع الثاني: **تعريف السورة في الاصطلاح:**

يعرف العلماء رحمهم الله تعالى السورة في الاصطلاح بعدد من التعريفات، وكلها تدور حول معنى واحد، وإن اختلفت في بعض الأمور التي لا تؤثر في فهم المراد، ومن تلك التعريفات للسورة ما ذكره ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ **حيث يقول في وصفها:** (السورة قطعة من القرآن معينة بمبدأ ونهاية لا يتغيران، مسمَّاة باسم مخصوص، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر، في غرض تام ترتكز عليه معاني آيات تلك السورة ناشئ عن أسباب النزول، أو عن مقتضيات ما تشتمل عليه من المعاني المتناسبة)[٢].

ويقارب ما ذكره ابن عاشور ما عرَّفها به الزرقاني رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: (ويمكن تعريفها اصطلاحًا بأنها: طائفة مستقلة من آيات القرآن ذات مطلع ومقطع)[٣].

وقيل في تعريفها اصطلاحًا: (السورة: قرآن يشتمل على آي ذوات فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات)[٤].

والملاحظ أن هذه التعريفات تتفق في أن للسورة مبدأً ونهايةً كما يعبِّر ابن عاشور، أو مطلعًا ومقطعًا كما يعبر الزرقاني، وهذا المعنى أقرب إلى المعنى اللغوي القائل إن السورة بمعنى المَنـزلة، وأن السور سُمِّيت بذلك لكونها منازل منـزلة بعد منـزلة.

---

(١) القاموس المحيط (١/ ٥٢٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٨٤).

(٣) مناهل العرفان (١/ ٢٤٢)

(٤) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٦٤).

المسألة الثانية: تعريف الآية في اللغة، والاصطلاح:

الفرع الأول: تعريف الآية في اللغة:

جاء في اللسان لابن منظور رحمه الله في معنى الآية: (سُمِّيت الآية من القرآن آية لأنها علامة لانقطاع كلام من كلام، ويقال سميت الآية آية لأنها جماعة من حروف القرآن وآيات الله عجائبه)(١).

ويقول الفيروزآبادي رحمه الله: (الآيَةُ: العَلَامَةُ، والشخصُ... والأمارة، ومن القُرْآنِ: كلامٌ مُتَّصِلٌ إلى انْقِطَاعِه)(٢).

ولخَّص الزركشي رحمه الله معاني الآية في اللغة في ثلاثة معان:

أحدها: جماعة الحروف.

ثانيها: الآية: العجب، فكأن كل آية عجب في نظمها، والمعاني المودعة فيها

ثالثها: العلامة، فكأن كل آية في القرآن علامة، ودلالة على نبوة محمد ﷺ(٣).

الفرع الثاني: تعريف الآية في الاصطلاح:

يعرف ابن عاشور رحمه الله الآية بقوله: (الآية: هي مقدار من القرآن مركب ولو تقديرًا أو إلحاقًا.

فقولي: ولو تقديرًا لإدخال قوله تعالى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦٤] إذ التقدير: هما مدهامتان، ونحو: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١] إذ التقدير: أقسم بالفجر.

وقولي: أو إلحاقًا: لإدخال بعض فواتح السور من الحروف

---

(١) لسان العرب (١٤/٥٦).
(٢) القاموس المحيط (ص١٦٢٨).
(٣) **انظر**: البرهان في علوم القرآن (١/٢٦٦).

المقطعة، فقد عُدَّ أكثرُها في المصاحف آيات ما عدا: آلر، والمر، وطس، وذلك أمر توقيفي، وسُنَّة متَّبعة، ولا يظهر فرق بينها وبين غيرها)[١].

وقد ذكر العلماء نحوًا مما ذكره ابن عاشور، ومما ذكره الزركشي في تعريف الآية نقلًا عن الجعبري[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنها قرآن مركب من جمل، ولو تقديرًا، ذو مبدأ، ومقطع، مندرج في سورة[٣].

وما ذكره الجعبري في تعريف الآية أولى مما ذكره ابن عاشور، إذ ما ذكره ابن عاشور يندرج فيه السورة من القرآن، فهي مقدار من القرآن مركب، وبقية التعريف الذي ذكره ابن عاشور لم يرد به الاحتراز من إدخال غير الآية معها في التعريف، ولكنه أراد به إدخال ما لم يدخل في عبارته الأولى، والله أعلم.

أما ما يتعلق بكلام ابن عاشور في وقوع التحدي بالسور دون الآيات، **فمن ذلك قوله**: (وإنما كان التحدي بسورة ولم يكن بمقدار سورة من آيات القرآن؛ لأن من جملة وجوه الإعجاز أمورًا لا تظهر خصائصها إلا بالنظر إلى كلام مستوفي في غرض من الأغراض، وإنما تنزل سور القرآن في أغراض مقصودة، فلا غنى عن مراعاة الخصوصيات المناسبة لفواتح الكلام وخواتمه بحسب الغرض، واستيفاء الغرض المسوق له الكلام، وصحة التقسيم، ونكت الإجمال والتفصيل، وأحكام الانتقال من فن إلى آخر من فنون الغرض، ومناسبات الاستطراد

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٤).

(٢) **الجعبري**: برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن عمر بن إبراهيم الجعبري، ولد سنة ٦٤٠هـ، وتوفي سنة ٧٣٢هـ، **انظر**: البداية والنهاية (١٤/ ٥٧٩)، طبقات المفسرين (ص٤٤٠).

(٣) البرهان في علوم القرآن (١/ ٢٦٦).

والاعتراض، والخروج والرجوع، وفصل الجمل ووصلها، والإيجاز والإطناب، ونحو ذلك مما يرجع إلى نكت مجموع نظم الكلام، وتلك لا تظهر مطابقتها جلية إلا إذا تم الكلام، واستوفى الغرض حقه، فلا جرم كان لنظم القرآن وحسن سبكه إعجاز يفوت قدرة البشر، هو غير الإعجاز الذي لجمله وتراكيبه وفصاحة ألفاظه، فكانت السورة من القرآن بمنزلة خطبة الخطيب، وقصيدة الشاعر، لا يحكم لها بالتفوق إلا باعتبارات مجموعها بعد اعتبار أجزائها)[(١)].

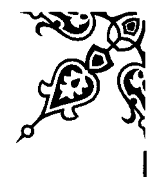
وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإنما وقع التحدي بسورة؛ **أي**: وإن كانت قصيرة دون أن يتحداهم بعدد من الآيات؛ لأن من أفانين البلاغة ما مرجعه إلى مجموع نظم الكلام، وصوغه بسبب الغرض الذي سيق فيه من فواتح الكلام وخواتمه، وانتقال الأغراض والرجوع إلى الغرض، وفنون الفصل، والإيجاز والإطناب، والاستطراد والاعتراض، وقد جعل شرف الدين الطيبي هذا هو الوجه لإيقاع التحدي بسورة دون أن يجعل بعدد من الآيات)[(٢)].

وفي هذا الكلام بيان لرأي ابن عاشور في هذه المسألة، إذ هو ممن يرى أن التحدي وقع بالسور دون الآيات.



(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٧).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠٤).





المَبحَثُ الخَامِسُ

دُخُــولُ الجِــنِّ فــي التَّحَدِّي

تعرَّض العلماء أثناء بحثهم للتحدي إلى مسائل عديدة، ومنها: من المقصود بالتحدي؟ ويندرج ضمن هذه المسألة الكلام عن الجن، وهل هم ممن يدخل في التحدي؟

وسبب الخلاف الوارد في هذه المسألة الاحتمال الوارد في قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

فهذه الآية الكريمة ذكرت الجن مع الإنس في معرض التحدي بالقرآن الكريم، ويحتمل أن ذلك جار على عادة العرب في نسبة الأعمال العظيمة للجن، ويحتمل أن ذكر الجن في التحدي على ظاهره، **وفي ذلك يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وذكر الجن مع الإنس لقصد التعميم كما يقال: لو اجتمع أهل السماوات والأرض، وأيضًا لأن المتحدّين بإعجاز القرآن كانوا يزعمون أن الجن يقدرون على الأعمال العظيمة)[1].

ومن خلال هذا الكلام لابن عاشور يظهر أنه لا يرى الجن ممن يدخل في التحدي، **وإنما ذُكروا في آية الإسراء لأحد أمرين:**

١ ـ تبيين إرادة العموم.

---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٠٢).

٢ ـ أن ذكر الجن جارٍ على عادة العرب في نسبة الأعمال العظيمة للجن، وليس على ظاهره.

وما ذكره ابن عاشور لا يعني أن الجن قادرون على الإتيان بمثل القرآن، أو أن القرآن غير معجز لهم، وإنما المراد هل هم داخلون فيمن تحداهم الله تعالى بمماثلة القرآن أم لا؟.

وقد اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في هذه المسألة على قولين:

القول الأول: الجن داخلون في التحدي، وهو قول أكثر المفسرين رحمهم الله تعالى[١].

القول الثاني: الجن غير داخلين في التحدي، وهو قول حكاه الزركشي[٢].

*** أدلة القول الأول:**

استدل القائلون بهذا القول بظاهر آية الإسراء، إذ ظاهرها أن الجن داخلون في التحدي، وبهذا الظاهر فسَّرها أهل العلم رحمهم الله تعالى[٣].

واستدلوا كذلك بأن الجن عُهِد منهم الإخبار ببعض المغيبات، والقرآن الكريم من جملة وجوه إعجازه أخبار الغيب التي اشتمل عليها، فلوا اجتمع الجن الذين يخبرون ببعض الغيوب، والإنس الفصحاء ليعبروا عن معانيه بألسنتهم لما أتوا بمثله[٤].

---

(١) **انظر:** مدارك التنزيل (٢/ ٢٧٦)، إرشاد العقل السليم (٥/ ١٩٣)، روح المعاني (١٥/ ١٦٦).

(٢) **انظر:** البرهان (٢/ ١١١)، إعجاز القرآن البياني (ص٦٩).

(٣) **انظر:** مدارك التنزيل (٢/ ٢٧٦)، إرشاد العقل السليم (٥/ ١٩٣)، روح المعاني (١٥/ ١٦٦).

(٤) **انظر:** جهود علماء الغرب (ص٤١٧).

ويمكن أن يجاب على هذا بأنه لا يعلم الغيب إلا الله، والذي يقدر عليه الجن الإخبار عما وقع أو بعضًا مما يسترق من الغيوب التي تخرج عن كونها من الغيب بعد إخبار الله تعالى للملائكة بها.

* **أدلة القول الثاني:**

استدل أصحاب هذا القول لقولهم بعدم دخول الجن في التحدي بأن الجن ليسوا من الماهرين باللسان العربي الذي جاء القرآن على أساليبه، ولو وجه التحدي لهم لاحتجوا بأنهم غير ماهرين في اللغة العربية[١].

الترجيح:

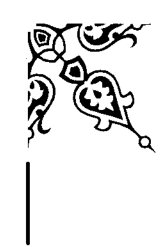
بعد عرض أقوال العلماء رحمهم الله تعالى في هذه المسألة، وأدلتهم يظهر للناظر قوة أدلة القول الأول القائل بأن الجن داخلون في التحدي، وذلك لظاهر الآية الكريمة، ولأنه الأنسب للإعجاز[٢].

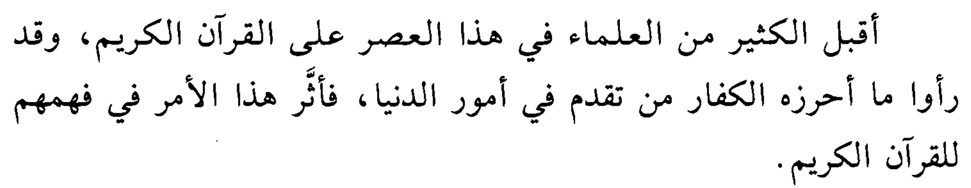
كما يظهر من خلال تأمل أدلّة الطرفين في هذه المسألة أن خلافهم ينبني على الخلاف في المطلوب بالتحدي، فعلى القول القائل بأن المطلوب هو المماثلة في الفصاحة والبلاغة، والمعاني القرآنية جميعًا أدخل أصحاب القول الأول الجن في التحدي، وعلى القول القائل بأن المطلوب هو المماثلة في الفصاحة والبلاغة دون المعاني القرآنية لا يدخل الجن في التحدي عند القائلين بالقول الثاني، والله أعلم.

* * *

(١) **انظر**: البرهان (٢/ ١١١)، إعجاز القرآن البياني (ص٦٩).

(٢) **انظر**: جهود علماء الغرب (ص٤١٧).





المَبحَثُ السَّادِسُ

وُقُوعُ التَّحَدِّي بالإعجازِ العِلْمِي

أقبل الكثير من العلماء في هذا العصر على القرآن الكريم، وقد رأوا ما أحرزه الكفار من تقدم في أمور الدنيا، فأثَّر هذا الأمر في فهمهم للقرآن الكريم.

وبدلًا من الأخذ بالأسباب التي أخذ بها الكفار، وتعلم ما به تتم عمارة الحياة، وتسييرها على مقتضى شرع الله تعالى، أخذ هؤلاء العلماء يبحثون في القرآن الكريم عن بعض ما يشير إلى الحقائق العلمية، واكتفى الناس بأننا ـ أهل الإسلام ـ أحرزنا السبق في معرفة هذه العلوم!

ونشأ من هذه الإشارات القرآنية إلى بعض الحقائق العلمية ما يعرف اليوم بالإعجاز العلمي.

ولا يلزم من الكلام عن الخطأ الذي لازم نشأة الإعجاز العلمي أن هذا النوع من الإعجاز ليس له فوائد وآثار حسنة، إذ هذا أمر آخر، ولا شك أنه لو لم يكن من حسناته إلا إسلام عدد ممن برع في المعارف الدنيوية لما رأوا في القرآن الكريم إشارات إلى تلك المعارف لكان في ذلك كفاية.

ومما يحتاج إلى تناول وبحث، وقوع التحدي بالإعجاز العلمي، وبعبارة أخرى: هل وقع التحدي بالإعجاز العلمي أم لا؟

وفي هذه المسألة **يقول ابن عاشور** رحمه الله **بعد كلام عن الإعجاز العلمي**: (وهذه الجهة من الإعجاز إنما تثبت للقرآن بمجموعه؛ **أي**: مجموع هذا الكتاب، إذ ليست كل آية من آياته ولا كل سورة من سوره

بمشتملة على هذا النوع من الإعجاز، ولذلك فهو إعجاز حاصل من القرآن وغير حاصل به التحدي إلا إشارة نحو قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢][١].

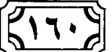
ومن خلال هذا النقل يتبين لنا أن ابن عاشور مع قوله بالإعجاز العلمي لا يرى التحدي به إلا إشارة، ولعل مما يوضح مراده رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحصول التحدي بالإعجاز العلمي **إشارة قوله في تفسير الآية السابقة:** (تحدَّى الله تعالى هؤلاء بمعاني القرآن كما تحدَّاهم بألفاظه لبلاغته، إذ كان المنافقون قد شكُّوا في أن القرآن من عند الله، فلذلك يظهرون الطاعة بما يأمرهم به، فإذا خرجوا من مجلس النبي ﷺ خالفوا ما أمرهم به لعدم ثقتهم، ويشككون ويشكون إذا بدا لهم شيء من التعارض، فأمرهم الله تعالى بتدبر[٢] القرآن)[٣].

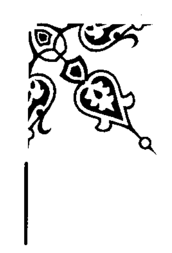
وعليه فالمعاني القرآنية التي كان الناس في زمان الرسالة يفهمونها مرادة في التحدي، وأما تفصيلات الإعجاز العلمي التي لم تعرف إلا في هذا الزمان فلم تكن مرادة بالتحدي، والله أعلم[٤].



---

(١) **انظر:** التحرير والتنوير (١/ ١٢٩).
(٢) في الأصل: بتدبير، ولعل الصواب ما أثبته.
(٣) التحرير والتنوير (٥/ ١٣٧).
(٤) **انظر لمزيد بيان:** إعجاز القرآن البياني (ص٣٨٨ ـ ٥٩٩).





المبحث السابع

القَدْرُ المُتَحَدَّى بــه

تعدُّ هذه المسألة من أهم المسائل في باب التحدِّي، ولذا تعددت أقوال العلماء رحمهم الله تعالى فيها، وفيما يلي ذكر كلام ابن عاشور في هذه المسألة، ثم ذكر الأقوال، وأدلتها، ومناقشة تلك الأدلة:

أما ما يتعلق بكلام ابن عاشور في المقدار المتحدَّى به، **فمن ذلك قوله** رَحِمَهُ اللهُ: (وإنما كان التحدي بسورة ولم يكن بمقدار سورة من آيات القرآن؛ لأن من جملة وجوه الإعجاز أمورًا لا تظهر خصائصها إلا بالنظر إلى كلام مستوفى في غرض من الأغراض، وإنما تنزل سور القرآن في أغراض مقصودة، فلا غنى عن مراعاة الخصوصيات المناسبة لفواتح الكلام وخواتمه بحسب الغرض، واستيفاء الغرض المسوق له الكلام، وصحة التقسيم، ونكت الإجمال والتفصيل، وأحكام الانتقال من فن إلى آخر من فنون الغرض، ومناسبات الاستطراد والاعتراض، والخروج والرجوع، وفصل الجمل ووصلها، والإيجاز والإطناب، ونحو ذلك مما يرجع إلى نكت مجموع نظم الكلام، وتلك لا تظهر مطابقتها جلية إلا إذا تم الكلام، واستوفى الغرض حقه، فلا جرم كان لنظم القرآن وحسن سبكه إعجاز يفوت قدرة البشر، هو غير الإعجاز الذي لجمله وتراكيبه وفصاحة ألفاظه، فكانت السورة من القرآن بمنزلة خطبة الخطيب، وقصيدة الشاعر، لا يحكم لها بالتفوق إلا باعتبارات مجموعها بعد اعتبار أجزائها،

قال الطيبي[1] في حاشية الكشاف عند قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ [الأنفال: ١٧] في سورة الأنفال: ولسر النظم القرآني كان التحدي بالسورة وإن كانت قصيرة، دون الآيات وإن كانت ذوات عدد)[2].

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: (وإنما وقع التحدي بسورة؛ **أي**: وإن كانت قصيرة دون أن يتحداهم بعدد من الآيات؛ لأن من أفانين البلاغة ما مرجعه إلى مجموع نظم الكلام، وصوغه بسبب الغرض الذي سيق فيه من فواتح الكلام وخواتمه، وانتقال الأغراض والرجوع إلى الغرض، وفنون الفصل، والإيجاز والإطناب، والاستطراد والاعتراض، وقد جعل شرف الدين الطيبي هذا هو الوجه لإيقاع التحدي بسورة دون أن يجعل بعدد من الآيات)[3].

وقال ابن عاشور: (وأما الإعجاز فلا يلزم أن يتحقق في كل آية من آي القرآن؛ لأن التحدي إنما وقع بسورة مثل سور القرآن وأقصر سورة ثلاث آيات فكل مقدار ينتظم من ثلاث آيات من القرآن يجب أن يكون مجموعه معجزًا)[4].

وبعد فهذه بعض النقول عن ابن عاشور فيما يتعلق بمقدار المُتَحَدَّى به، وهي تدل أن ابن عاشور يرى أن التحدي يكون في السور، وإن كانت قصيرة، ويكون في الآيات التي تبلغ مقدار سورة من السور، والنقل الأخير عن ابن عاشور يدل أنه يرى الإعجاز بالآيات التي تبلغ

---

(١) **الطيبي**: الحسين بن محمد بن عبد الله شرف الدين الطيبي، توفي سنة ٧٤٣هـ، وحاشيته المذكورة هي «فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب» وقد حققت في الجامعة الإسلامية في رسائل، **انظر**: الدرر الكامنة (٢/ ١٥٦)، طبقات المفسرين (ص٢٧٧).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٣٧).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٠٤).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٦٣).

مقدار سورة من السور، وأما عباراته السابقة ففيها أن أقل ما وقع في القرآن الكريم هو التحدي بسورة، والله أعلم.

وبعد عرض كلام ابن عاشور نعرض أقوال العلماء رحمهم الله تعالى في هذه المسألة، وذلك كالتالي:

أقوال العلماء:

١ ـ القدر المُتَحَدَّى به هو القرآن الكريم كاملًا، وهو قول بعض المعتزلة[(١)] كما نسبه إليهم السيوطي[(٢)] رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٣)].

٢ ـ أقل قدر تحدَّى الله تعالى به الكفار: هو السورة قصيرة كانت أو طويلة، وهذا قول المعتزلة[(٤)].

٣ ـ أقل قدر تحدَّى الله تعالى به الكفار: هو السورة قصيرةً كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها من الآيات، وهو قول الأشاعرة كما نسبه إليهم الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

٤ ـ القدر المُتَحَدَّى به هو الآيات الكثيرة، حكاه السيوطي، ولم ينسبه إلى أحد، وصنيع الباقلاني يفيد أنه من أقوال المعتزلة[(٥)].

---

(١) **المعتزلة**: هم فرقة من فرق أهل البدع، من أبرز أقوالهم: نفي صفات الله تعالى، وإنكار رؤية الله تعالى في الآخرة، والقول بخلق القرآن، ومن أبرز رجالهم: واصل بن عطاء، وأبو الهذيل العلاف، وعمرو بن عبيد، **انظر**: الفرق بين الفرق (ص٩٣ ـ ١٠٢)، الفصل (٤/ ١٤٦)، الملل (١/ ٤٢).

(٢) **السيوطي**: أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد الخضيري الأسيوطي، ولد سنة ٨٤٩هـ، وتوفي سنة ٩١١هـ، **انظر**: شذرات الذهب (٨/ ٥١)، البدر الطالع (١/ ٣٢٨).

(٣) **انظر**: الإتقان (٤/ ٢٠)، مناهل العرفان (٢/ ٢٤١).

(٤) **انظر**: إعجاز القرآن (ص١٦٢)، البرهان (٢/ ١٠٨)، الإتقان (٤/ ٢٠).

(٥) **انظر**: إعجاز القرآن (ص١٦٢)، الإتقان (٤/ ٢٠).

٥ ـ القليل والكثير من القرآن الكريم مُتَحَدًّى به، ونسبه ابن حزم[١] رَحِمَهُ اللَّهُ إلى سائر أهل الإسلام[٢].

*** أدلة الأقوال:**

الملاحظ في هذه الأقوال أن بعضها لم يقل استنادًا إلى الدليل، وإنما هي أقوال قيلت لإلزام المُناظر، أو للتخلص من التزام قول من الأقوال، ومن هذه الأقوال فيما يظهر القول الأول القائل إن التحدي وقع بالقرآن الكريم كاملًا، ولم يقع ببعضه، فهذا القول من الظاهر للمتأمل أن قائله لم يقله استنادًا إلى النظر الشرعي، وإنما قاله للتخلص من بعض اللوازم التي قد تلزم القائل بالأقوال الأخرى، وأدنى نظر في آيات التحدي يكفي لنقض هذا القول، ومن هنا لم يذكر العلماء رحمهم الله تعالى لهذا القول مستندًا من النصوص، **أما بقية الأقوال فأدلتها كالتالي:**

*** أدلة القول الثاني:**

استدل القائلون إن القدر المتحدَّى به هو السورة قصيرة كانت أو طويلة بعدد من الأدلة، **ومنها:**

١ ـ أن التحدِّي في القرآن الكريم إنما وقع بالسور، وأقله التحدي بسورة، كما في قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ وهذا يشمل كل ما يطلق عليه مسمًّى سورة، طويلة كانت أو قصيرة.

---

(١) **ابن حزم:** أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الفارسي ثم الأندلسي القرطبي الوزير، ولد سنة ٣٨٤هـ، وتوفي سنة ٤٥٦هـ، **انظر:** سير أعلام النبلاء (١٨/ ١٨٤ ـ ٢١٢)، البداية والنهاية (١٢/ ٥٥٣).

(٢) **انظر:** الفصل (٣/ ١٣)، الإتقان (٤/ ٢١)، مناهل العرفان (٢/ ٢٤١).

٢ ـ أن من البلاغة، أمورًا لا تظهر إلا في كلام تام الغرض، وهذا لا يحصل إلا في سورة كاملة من القرآن، وإن كانت قصيرة.

*** أدلة القول الثالث:**

وأصحاب هذا القول لهم أدلة منها:

١ ـ ما سبق في أدلة القول الثاني من أدلة تعتبر طرفًا من أدلة أصحاب هذا القول فيما يتعلق بإعجاز السورة قصيرة أو طويلة.

٢ ـ أن المعتبر هو ما يتبين فيه تفاضل قوى البلاغة، وذلك يحصل فيما هو في مقدار سورة من الآيات كما يحصل بالسورة نفسها.

*** أدلة القول الرابع:**

وأصحاب هذا القول يستندون فيما يظهر إلى ما ذكر في أدلة القول الثالث من كون المعتبر في التحدي ما يظهر فيه تفاضل قوى البلاغة، ولم أر من نصَّ على دليلهم.

*** أدلة القول الخامس:**

استدل القائلون بهذا القول بعدد من الأدلة، **ومنها**:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، ووجه الدلالة من الآية الكريمة: أن الحديث يطلق على القليل والكثير[١].

٢ ـ أن كل ما يصدق عليه أنه قرآن يصح التحدي به[٢].

■ **مناقشة أدلة الأقوال:**

تعرضت الأدلة السابقة للمناقشة والبحث في دلالتها، **وفيما يلي عرضٌ لتلك المناقشات:**

---

(١) **انظر**: إعجاز القرآن (ص١٦٢)، الإتقان (٤/ ٢١).

(٢) **انظر**: الفصل (٣/ ١٣).

■ **مناقشة أدلة القول الثاني:**

لم أجد مناقشة مستقيمة لهذا القول فيما وقفت عليه من المصادر، والله أعلم.

■ **مناقشة أدلة القول الثالث:**

يقال لأصحاب هذا القول ما مرادكم بمقدار السورة من الآيات، إذ هذا القول لا يخلو من الاحتمالات التالية: إما أن يريد أصحابه مقدار عدد أقصر سورة من الآيات، وهو ثلاث آيات، وإما أن يريدوا مقدار كلمات أقصر سورة في القرآن، وإما أن يريدوا مقدار حروف أقصر سورة في القرآن، **وفيما يلي مناقشة هذه الاحتمالات:**

١ ـ مناقشة الاحتمال الأول القائل بأن المراد: مقدار أقصر سورة في عدد الآيات، ومناقشة هذا الاحتمال **كما يلي:**

- أن الاستدلال بقوله تعالى: ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] لا يستقيم على هذا القول، إذ جعل أصحاب هذا القول ما ليس بسورة معجزًا متحدًّى به.
- أن الآيات الطويلة كآية الدَّين ليست معجزةً لأنها ليست ثلاث آيات.
- أن هناك آيات وصفها العلماء بأنها في أعلى مراتب البلاغة، والإعجاز، ولم تبلغ هذه الآيات مقدار أقل سورة، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وعلى هذا القول لا تكون هذه الآيات متحدًّى بها؛ لأنها ليست ثلاث آيات.

٢ ـ مناقشة الاحتمالين الثاني والثالث القائلَين بأن المراد: مقدار أقصر سورة في عدد الكلمات، والحروف، ومناقشة هذين الاحتمالين **كما يلي:**

- يلزم من هذين الاحتمالين عدم صحة الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ إذ جعل أصحاب هذا القول ما ليس بسورة معجزًا متحدًّى به.

- أن أقصر سورة في القرآن، وهي سورة الكوثر عشر كلمات، اثنان وأربعون حرفًا، وقد قال الله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ﴾ [النساء: ١٦٣] اثنتا عشرة كلمة، اثنان وسبعون حرفًا، وإن اقتصرنا على الأسماء فقط كانت عشرة كلمات، اثنين وستين حرفًا، فهي أكثر كلمات وحروفًا من سورة الكوثر فينبغي أن تكون هذه الآية معجزةً متحدًّى بها، وتكون آية: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] غير متحدًّى بها مع كونها في أعلى مستوى البلاغة.

■ **مناقشة أدلة القول الرابع:**

يقال لأصحاب هذا القول ما قيل في مناقشة القول الثالث من كون بعض الآيات بلغت أعلى مراتب الفصاحة، والبلاغة، وربما كانت بعض آية، وهي على هذا القول غير متحدًّى بها.

■ **مناقشة أدلة القول الخامس:**

أما الاستدلال بقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤] فيناقش بأن الحديث هنا بمعنى القرآن، وذلك لدلالة السياق، وتفسير السلف[١].

وقد ناقش الباقلاني الاستدلال بهذه الآية، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ فليس بمخالف لهذا؛ لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته في أقل من كلمات سورة قصيرة، وهذا يؤكد ما ذهب إليه أصحابنا[٢] ويؤيده، وإن كان قد يتأوّل قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾

---

(١) **انظر**: إعجاز القرآن (ص١٦٢)، الدر المنثور (١٣/ ٧٠٩)، الإتقان (٤/ ١٨).

(٢) يريد رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأشاعرة.

على أن يكون راجعًا إلى القبيل دون التفصيل)[1].

والملاحظ أن الباقلاني بيَّن أن الاستدلال بالآية لا يصح من وجهين:

الأول: أن الحديث التام لا يكون في أقل من سورة قصيرة، وهذا الوجه الذي ذكره الباقلاني مبنيٌّ على اختياره أن القدر المتحدَّى به سورة قصيرة، أو ما كان بقدرها، ويناقش الباقلاني في تفسيره للحديث هنا بهذا المعنى بما سبق من كون هذا التفسير مخالف للسياق، وتفسير السلف.

الثاني: أن الحديث في الآية الكريمة راجعٌ إلى القبيل دون التفصيل، والمراد أن الآية الكريمة لم تتعرض لمقدار المتحدَّى به، وإنما تعرضت لكون المأتي به يجب أن يكون مماثلًا في ألفاظه، ومعانيه للقرآن الكريم.

وأما الاستدلال بأنَّ كل ما يسمَّى قرآنًا فإنه يصح التحدي به، فهذا هو محل النزاع، ولا يصح الاستدلال بمحل النزاع، والله أعلم.

الترجيح:

بعد استعراض أقوال العلماء، وأدلتهم، ومناقشة تلك الأدلة، يتبين لنا أن هذه الأقوال جميعها لا تخلو من اعتراض، ونقاش، ولعل أقربها للصواب القول الثاني أن المقدار المتحدى به هو السورة قصيرة كانت أو طويلة، والله أعلم.

وهذا الكلام في القدر المتحدَّى به، وأما القدر المعجز من القرآن فهذه مسألة أخرى، **ولعل الأقرب للصواب فيها أن يقال**: كل ما أدى

---

(١) إعجاز القرآن (ص١٦٢).

فكرة كاملة فهو مقدار المعجِز، فربما نقص عن مقدار سورة الكوثر، وقد ورد في كلام بعض العلماء ممن بحث ذلك ما يمكن أن يفهم منه ذلك، فهذا الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ يقرر: (أن القرآن إنما صار معجزًا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني)(١).

والخطابي بهذا القول ينظر إلى تأدية المعاني الصحيحة بألفاظ فصيحةٍ، ولا ينظر إلى مقدار الألفاظ فحسب، وبمثل ما ذكر الخطابي قال ابن عطية، حيث بيَّن رَحِمَهُ اللَّهُ أن المقدار المعجز هو: (ما جمع الجهتين اطِّراد النظم، وتحصيل المعاني، وتركيب الكثير منها في اللفظ القليل)(٢).

وإذا تبين لنا أن القدر المعجز لا يحدد بعدد الآيات، وإنما يحدد بخصائص الجملة القرآنية، ومقدار المعاني التي تضمَّنتها، يتبين لنا عدم صحة حصر معجزات القرآن الكريم بعدد معيَّن بناء على المقدار المعجز، وهو ما حصل لابن عاشور، **إذ يقول** رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإن كل مقدار من مقادير إعجازه آية على صدق الرسول ﷺ، فإن آيات القرآن زهاء ستة آلاف آية، ومقدار كل ثلاث آيات مقدار معجز فيحصل من القرآن مقدار ألفي معجزة، وذلك لم يحصل لأحد من رسل الله)(٣).

فهذا الحصر لمعجزات القرآن الكريم عند ابن عاشور مبني على قوله في مقدار المعجز من القرآن، وأما على القول بأن الجملة القرآنية هي المقدار المعجز، فلا تنحصر معجزات القرآن الكريم، إذ ربما كان من الآية الواحدة عدد من المعجزات لما فيها من المعاني القرآنية التامة،

---

(١) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢٧).

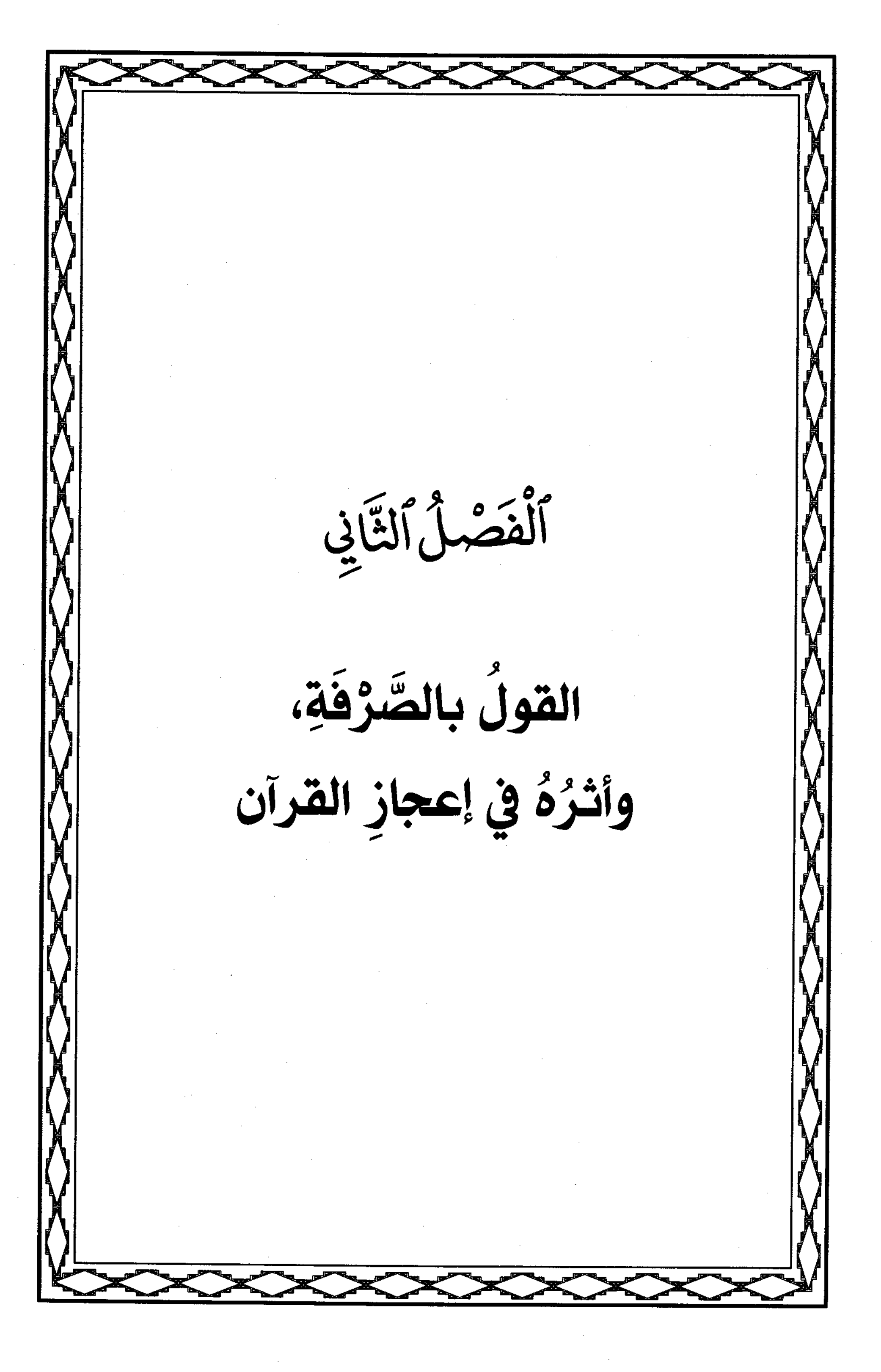
(٢) المحرر الوجيز (٧/ ١٥٢).

(٣) التحرير والتنوير (٢١/ ١٤).

وما فيها من إخبار ببعض المغيبات، ونحو ذلك، وتأمل هذه المعجزات، وعددها بناء على هذا القول باب عظيم من أبواب زيادة الإيمان، وبقدر التفاوت فيه يتفاوت العلماء في علمهم بكتاب الله تعالى، وما فيه من إعجاز، والله أعلم.







ٱلْفَصْلُ ٱلثَّانِي

القولُ بالصَّرْفَةِ، وأثـرُهُ في إعجازِ القرآن



تمهيد

سلك العلماء رحمهم الله تعالى في بيان وجوه إعجاز القرآن الكريم مسالك عديدة، فمنهم من اعتنى ببيان إعجازه في باب البلاغة، والفصاحة، ومنهم من اعتنى ببيان إعجازه في حقائقه العلمية، والتشريعية، ومنهم من اعتنى بإعجازه من جهة أخبار الغيب الواردة فيه، وهذه كلها وجوهٌ من الإعجاز راجعةٌ إلى القرآن الكريم ذاته، وهي بهذا محتملةٌ قريبة.

ولكن الأمر الذي استنكره العلماء رحمهم الله تعالى، وأعلنوا النكير على قائله هو القول بأن إعجاز القرآن الكريم راجعٌ إلى أمرٍ خارج عن ذاته، وأن القرآن الكريم ذاته ليس معجزًا لولا هذا الأمر الخارجي!.

وهذا القول المستغرب عند جماهير أهل العلم هو القول بالصرفة، وهو قولٌ لم ينشأ في أوساط علمية تنشد الحق، والأخذ بالدليل، ولكنه نشأ في أوساط تلقفت المنهج اليوناني، وعلوم قدماء أصحاب الديانات الهندية، وأولعت بكل قول غريب شاذ، تلك هي أوساط المعتزلة، فهم النواة الأولى للقول بالصرفة.

وقد أشار بعض الباحثين إلى أن المعتزلة أخذوا أصول القول بالصرفة من أقوال البراهمة[1] في كتابهم الفيدا[2]، حيث يزعمون

---

(١) **البراهمة**: هم قبيلة بالهند فيهم أشراف أهل الهند، ينتسبون إلى رجل منهم يقال له: براهم، ومن أبرز أقوالهم: إنكار النبوات، والقول بالتناسخ، ومن أبرز فرقهم: أصحاب البددة، وأصحاب الفكرة، وأصحاب التناسخ، **انظر**: الفصل (١/ ٦٣)، الملل (٢/ ٢٤٩ ـ ٢٥٤).

(٢) **الفيدا**، ويقال له أيضًا: بيذ: كلمة معناها: العلم بما ليس بمعلوم، وهذا الكتاب =

أن ما في هذا الكتاب من أشعار ليس في كلام الناس ما يماثلها؛ لأن براهما صرفهم عن أن يأتوا بمثلها[(١)].

وردَّ آخرون قول المعتزلة هذا إلى قولهم بالعدل، إذ معنى العدل عندهم أن العبد قادر على خلق أفعاله خيرها وشرها، وبناءً على ذلك فما لم يقدر عليه العبد فقد انصرف عنه لسبب ما[(٢)].

وأيًّا كان مأخذ المعتزلة في قولهم بالصرفة، فإن هذا المأخذ لم يكن نابعًا من تأملٍ في نصوص الوحي، وصدورٍ عنها.

وفيما يلي بحث ما يتعلق بالصرفة تعريفًا، ومقالًا، وحكمًا، وذلك من خلال تناول الشيخ ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ لها، **وقد قسَّمت الكلام فيها إلى ثلاثة مباحث:**

المبحث الأول: تعريف الصرفة.

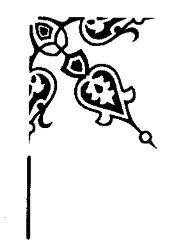
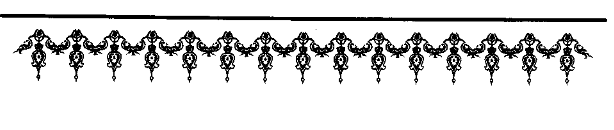
المبحث الثاني: القائلون بالصرفة.

المبحث الثالث: إبطال القول بالصرفة.

= عبارة عن كلام نسبوه إلى الله تعالى على لسان براهما، يتلوه البراهمة من غير فهم لمعناه، ويتلقونه بالسماع، ولا يجوِّزون كتابته، **انظر**: تحقيق ما للهند من مقولة (ص٩٦).

(١) **انظر لقول البراهمة هذا**: تحقيق ما للهند من مقولة (ص٩٦)، المعجزة الكبرى (ص٧٦).

(٢) **انظر**: إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة (ص٥٢)، وفيما يظهر أن ردَّ القول بالصرفة إلى قولهم بالعدل غير صحيح، إذ لو كان الأمر كذلك لكانت الصرفة قولًا لجميعهم، والله أعلم.


المَبْحَثُ الأَوَّلُ

تعـــريفُ الصَّرْفَـــة

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

تعريف الصرفة في اللغة

الصَّرف في اللغة العربية يدور على معنى وهو: ردُّ الشيء عن وجهه، يقال: صرفت الرجل عني فانصرف، والصرفة منزلة من منازلة القمر، سُمِّيت بذلك لانصراف الحَر وإقبال البرد، وقيل: لانصراف البرد وإقبال الحر.

والصرف أن تصرف إنسانًا عن وجه يريده إلى مصرف غير ذلك، وصرف الشيء أعمله في غير وجه، كأنه يصرفه عن وجه إلى وجه، وتصرَّف هو وتصاريف الأمور تخاليفها، ومنه: تصاريف الرياح والسحاب، وكذلك تصريف السيول، والخيول، والأمور، والآيات، وتصريف الرياح: جعلها جنوبًا، وشمالًا، وصبًا، ودبورًا[١].

ومن خلال هذا المعنى للصَّرف، والصَّرفة، يتبين لنا وجه العلاقة بين المعنى اللغوي، والاصطلاحي، حيث إن مؤدَّى الصرفة ردُّ العرب عن الإتيان بمثل القرآن الكريم، **وهذا هو المعنى الاصطلاحي**.

وقد تعرض ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ أثناء تناوله لمعنى الصرفة للكلام عن ضبط الصاد من هذه الكلمة، **فقال**: (ولعلها بفتح الصاد وسكون الراء،

---

(١) **انظر**: لسان العرب (٩/١٨٩)، القاموس المحيط (ص١٠٦٨).

وهي مرة من الصَّرف، وصيغ بصيغة المرة للإشارة إلى أنها صرف خاص، فصارت كالعَلَم بالغلبة)[١].

وفي موضع آخر يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقعت كلمة الصرفة في عبارات المتكلمين، ومنهم أبو بكر الباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن» ولم أر من ضبط الصاد منه، فيجوز أن يكون صاده مفتوحًا على زنة المرة مرادًا بها مطلق وجود الصرف، والأظهر أن يكون الصاد مكسورًا[٢] على صيغة الهيئة، أي: صرفًا[٣] مخصوصًا بقدرة الله، ويشعر بهذا قول الباقلاني في كتاب «إعجاز القرآن» صرفهم الله عنه ضربًا من الصرف)[٤]. ومما سبق يظهر أن الصاد تفتح أحيانًا وتكسر أخرى، وفي هذا سعة، والله أعلم.

المطلب الثاني

تعريف الصرفة في الاصطلاح

تعرض ابن عاشور في ثنايا كلامه عن الأمر الذي صار به القرآن الكريم معجزًا إلى بيان المراد بالصرفة، **وفي ذلك يقول:** (وقد اختلف العلماء في تعليل عجزهم عن ذلك، فذهبت طائفة قليلة إلى تعليله بأن الله صرفهم عن معارضة القرآن فسلبهم المقدرة أو سلبهم الداعي لتقوم الحجة عليهم بمرأى ومسمع من جميع العرب. ويعرف هذا القول بالصرفة كما في المواقف[٥] للعضد[٦]

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٣).

(٢) في الأصل: مقصورًا، ولعل الصواب ما أثبته.

(٣) في الأصل: حرفًا، ولعل الصواب ما أثبته.

(٤) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٧).

(٥) **انظر**: المواقف (٣/ ٣٧٨).

(٦) **العضد**: عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار أبو الفضل الإيجي، ولد سنة ٧٠٠هـ، وتوفي سنة٧٥٦هـ، **انظر**: الدرر الكامنة (٢/ ٤٢٩)، بغية الوعاة (٢/ ٧٥ - ٧٦).

والمقاصد[١] للتفتازاني[٢]، «ولعلها بفتح الصاد وسكون الراء» وهي مرة من الصرف وصيغ بصيغة المرة للإشارة إلى أنها صرف خاص فصارت كالعَلَم بالغلبة)[٣].

ولقد تعددت معاني الصرفة عند القائلين بها، وذلك نتيجة غموض هذا المصطلح، وإجماله، وكثرة الاحتمالات الواردة عليه، **ولذا فقد دارت معاني الصرفة في كلام العلماء الذين تكلموا عنها على ثلاثة معانٍ، وهي:**

١ ـ عدم معارضة القرآن الكريم لعدم توفر بواعث المعارضة، ودواعيها عند العرب؛ لأن الله تعالى سلبهم تلك الدَّواعي، ولو توفرت عندهم الدواعي للمعارضة لعارضوه.

٢ ـ عدم معارضة القرآن الكريم، مع وجود الدَّواعي للمعارضة، وذلك لأن الله تعالى سلب العرب العلوم التي لا بد منها في الإتيان بما يشاكل القرآن.

٣ ـ عدم معارضة القرآن الكريم، مع وجود الدواعي للمعارضة، وتوفر العلوم التي لا بد منها في المعارضة، وذلك لأن الله تعالى منع العرب عن المعارضة على جهة القسر، والإلجاء[٤].

---

(١) هو: كتاب المقاصد في علم الكلام، كما ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/ ١٧٨٠)، ولم أجد هذا الكتاب لأوثِّق ما ذكره ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ منه.

(٢) **التفتازاني**: مسعود ابن القاضي فخر الدين عمر بن برهان الدين الشهير: بسعد الدين التفتازاني، ولد سنة ٧١٢هـ وتوفي سنة ٧٩١هـ رَحِمَهُ اللَّهُ، **انظر**: الدرر الكامنة (٤/ ٣٥٠)، بغية الوعاة (٢/ ٢٨٥).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٠٣).

(٤) **انظر لبيان هذه المعاني**: مناهل العرفان (٢/ ٣٠١)، المعجزة القرآنية (ص٨١)، إعجاز القرآن الكريم بين السيوطي والعلماء (ص٩٤).

ولو تأمل متأمل هذه المعاني الثلاثة وجد الأمر المشترك بين جميعها هو أن إعجاز القرآن الكريم لم يكن أمرًا في ذاته، وإنما هو أمرٌ خارجٌ عنه يتمثل في سلب العرب بواعث المعارضة تارةً، وسلبهم العلوم التي يقولون بها تارة أخرى، ومنعهم عن المعارضة تارة ثالثة، ولو زالت هذه الموانع على هذا القول لجاء العرب بمثل القرآن الكريم؛ لأنه لا يعلو على مستواهم في بلاغته ونظمه[1].



(١) **انظر**: مناهل العرفان (٢/ ٣٠١).






المَبۡحَثُ ٱلثَّانِي

القــائلــونَ بالصَّــرْفَــة

استنكر كثير من العلماء رحمهم الله تعالى القول بأن الصرفة هي وجه إعجاز القرآن الكريم، ومع هذا فقد وجد هذا القول من يأخذ به، ويدافع عنه.

وفي بيان بعض القائلين بالصرفة **يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ولم ينسبوا هذا القول إلا إلى الأشعري(١) فيما حكاه أبو الفضل عياض(٢) في الشفا(٣)، وإلى النظَّام والشريف المرتضى(٤) وأبي إسحاق الإسفرائيني(٥) فيما حكاه عنهم عضد الدين(٦) في المواقف(٧)، وهو قول ابن حزم صرَّح به في كتاب «الفِصَل»(٨)، وقد عزاه صاحب المقاصد في شرحه إلى كثير

---

(١) **الأشعري**: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق الأشعري، ولد سنة ٢٧٠هـ، وتوفي سنة ٣٢٤هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥)، البداية والنهاية (١١/ ٢٢٣).

(٢) **القاضي عياض**: عياض بن موسى بن عياض اليحصبي الأندلسي أبو الفضل، ولد سنة ٤٧٦هـ وتوفي سنة ٥٤٤هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ٢١٢ ـ ٢١٨)، البداية والنهاية (١٢/ ٧٣٣ ـ ٧٣٤).

(٣) الشفا (١/ ٢٠١).

(٤) **الشريف المرتضى**: علي بن الحسين بن موسى الحسيني المرتضى، توفي سنة ٤٣٦هـ، **انظر**: البداية والنهاية (١٢/ ٥٠٣)، بغية الوعاة (٢/ ١٦٢).

(٥) **الإسفرائيني**: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن مهران الإسفرائيني، توفي سنة ٤١٨هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٧/ ٣٥٣ ـ ٣٥٦)، البداية والنهاية (١٢/ ٤٦٤).

(٦) عبد الرحمٰن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو الفضل، عضد الدين الأيجي، توفي سنة ٧٥٦هـ، **انظر**: الدرر الكامنة (٢/ ٣٢٢)، الأعلام (٣/ ٢٩٥).

(٧) المواقف (٣/ ٣٧٨).

(٨) الفصل (٣/ ١٢).

من المعتزلة)[١].

وفي موضع آخر قال ابن عاشور بعد ذكره القول بالصرفة: (قول ذهب إليه فريق، وقد ذكره أبو بكر الباقلاني في كتابه في «إعجاز القرآن»، ولم يعين له قائلًا، وقد نسبه التفتازاني في كتاب «المقاصد إلى القائلين إن الإعجاز بالصرفة»، وهو قول النظام من المعتزلة، وكثير من المعتزلة، ونسبه الخفاجي[٢] إلى أبي إسحاق الإسفرائيني، ونسبه عياض إلى أبي الحسن الأشعري، ولكنه لم يشتهر عنه، وقال به الشريف المرتضى من الشيعة كما في المقاصد)[٣].

ومن خلال هذين النقلين يتبين لنا أن القول بالصرفة على ضعفه، وبُعده عن الصواب قد وجد أنصارًا يقولون به، ومن ذكرهم ابن عاشور هم بعض القائلين بهذا القول، وفي نسبة هذا القول إلى بعضهم نظرٌ عند العلماء، وفيما يلي مناقشة مدى صحة القول بالصرفة عن هؤلاء العلماء الذين ذكرهم ابن عاشور، **وذلك من خلال المطالب التالية:**

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

القائلون بالصرفة من الأشاعرة

نُسب القول بالصرفة إلى طائفة من علماء الأشاعرة، وقد ذكر ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ في كلامه السابق عن القائلين بالصرفة نسبة هذا القول

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٣).

(٢) **الخفاجي:** شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري، ولد سنة ٩٧٧هـ، وتوفي سنة ١٠٦٩هـ، **انظر:** ريحانة الألبا (٢/ ٣٢٥ ـ ٣٦٩)، معجم المؤلفين (٢/ ١٣٨).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٧).

إلى أبي الحسن الأشعري، وأبي إسحاق الإسفرائيني رحمهما الله تعالى، وفيما يلي النظر في صحة نسبة القول بالصرفة لهما، **وذلك من خلال المسائل التالية:**

⮜ المسألة الأولى: نسبة القول بالصرفة إلى أبي الحسن الأشعري:

وممن نسب القول بالصرفة إلى أبي الحسن الأشعري القاضي عياض حيث يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وذهب الشيخ أبو الحسن إلى أنه مما يمكن أن يدخل مثله تحت مقدور البشر، ويقدرهم الله عليه، ولكنه لم يكن هذا، ولا يكون، فمنعهم الله هذا، وعجَّزهم عنه، وقال به جماعة من أصحابه)[١].

وقد تكلم العلماء في صحة نسبة القول بالصرفة لأبي الحسن الأشعري، ووجهوا ما ذكره القاضي عياض **بأحد التوجيهين التاليين:**

١ ـ أن المراد رجلٌ آخر كنيته أبو الحسن غير أبي الحسن الأشعري، ولا يخفى تكلف هذا القول.

٢ ـ أن أبا الحسن الأشعري قال بالصرفة عندما كان معتزليًّا، ثم رجع عنها فيما رجع عنه من أقوال المعتزلة[٢].

والذي يظهر أن القول برجوع أبي الحسن عن هذا القول هو الأقرب، وذلك لما يعلم عنه من رجوعه عن أقوال المعتزلة، وليس في كتبه المطبوعة ما يشير إلى هذه المسألة، والله أعلم.

---

(١) الشفا (١/ ٢٠١).

(٢) **انظر**: إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء (ص١٠٣ ـ ١٠٤).

المسألة الثانية: نسبة القول بالصرفة إلى أبي إسحاق الإسفرائيني:

نسب الإيجي القول بالصرفة إلى أبي إسحاق الإسفرائيني، حيث يقول:

(وقيل: إعجازه بالصرفة على معنى أن العرب كانت قادرة على كلام مثل القرآن قبل البعثة لكن الله صرفهم عن معارضته، واختلف في كيفية الصرف، فقال الأستاذ أبو إسحق ـ منا[١] ـ والنظام من المعتزلة: صرفهم الله عنها مع قدرتهم عليها، وذلك بأن صرف دواعيهم إليها مع كونهم مجبولين عليها خصوصًا عند توفر الأسباب الداعية في حقهم)[٢].

وحكى الآلوسي[٣] نسبة هذا القول لأبي إسحاق الإسفرائيني، وفي ذلك يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني والنظام: إعجازه بصرف دواعي بلغاء العرب عن معارضته)[٤].

ومن خلال هذين النقلين يتبين لنا أن أبا إسحاق الإسفرائيني كان يقول بالصرفة، وكان يقول بالصرفة على التعريف الأول للصرفة، إذ يرى أن الله تعالى صرف دواعي العرب عن المعارضة، ولو لم يكن ذلك لعارضوا.

---

(١) أي: من الأشاعرة.

(٢) المواقف (٣/ ٣٩٢).

(٣) **الآلوسي**: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسني الآلوسي، ولد سنة ١٢١٧هـ، وتوفي سنة ١٢٧٠هـ، **انظر**: المسك الأذفر (ص٦٤ ـ ٨٥)، معجم المؤلفين (١٢/ ١٧٥).

(٤) روح المعاني (١/ ٢٨).

المَطْلَبُ الثَّانِي

القائلون بالصرفة من المعتزلة

المسألة الأولى: نسبة القول بالصرفة إلى النظام:

تكاد كلمة الباحثين في هذا الباب تتفق على أن النظام هو أبرز القائلين بالصرفة، ومؤسس هذا القول[1]، وممن نسب القول بالصرفة إلى النظام أبو الحسن الأشعري[2]، والفخر الرازي[3]، وغيرهم.

والنظام لم يقل بالصرفة وحدها وجهًا لإعجاز القرآن، بل إن أخبار الغيب في القرآن هي كذلك من وجوه إعجاز القرآن الكريم عند النظام، وفي ذلك يقول النظام: (الآية، والأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم فقد كان يجوز أن يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنعٍ وعجزٍ أحْدَثَهُما فيهم)[4].

والملاحظ ما كان عليه النظام من اضطراب في قوله بالصرفة، إذ جمع إليه ما يناقضه، فالقول بأن أخبار الغيب وجهٌ من وجوه إعجاز القرآن يعني أن في القرآن الكريم ما لا يقدر عليه البشر لو حاولوه، والقول بالصرفة يستلزم قدرة البشر على الإتيان بمثل القرآن لو حاولوه، وهذا تناقض بيِّن[5]، كما نلاحظ من خلال النقل السابق عن النظام أنه يقول بالصرفة بالمعنى الأخير من المعاني التي سبق أن ذكرناها في تعريف الصرفة، وهو أن الله تعالى منع الناس من معارضة القرآن مع أنه كان يجوز أن يقدروا عليه.

---

(١) **انظر**: فكرة إعجاز القرآن (ص٥٤)، المعجزة الكبرى (ص٧٧ ـ ٧٨)، بينات المعجزة الخالدة (ص٢٠٥).

(٢) **انظر**: مقالات الإسلاميين (ص٢٢٥). (٣) **انظر**: نهاية الإيجاز (ص٧٨).

(٤) مقالات الإسلاميين (ص٢٢٥).

(٥) وقد نبه على هذا التناقض في قول النظام الدكتور محمد أبو موسى المحاضر في جامعة أم القرى، **انظر**: الإعجاز البلاغي (ص٣٥٦).

المطلب الثالث

القائلون بالصرفة من الفرق الأخرى

المسألة الأولى: نسبة القول بالصرفة إلى الشريف المرتضى:

تشترك الرافضة الإمامية مع المعتزلة في كثير من أصول عقائدهم، ولذا ليس من المستغرب أن يقول بعض الإمامية بالصرفة تأثرًا بالمعتزلة.

وممن نُسب إليه القول بالصرفة من الرافضة الإمامية الشريف المرتضى[1]، فقد كتب في الإعجاز كتابًا لكنه لم يصل إلينا[2]، ولو وصل إلينا هذا الكتاب لأبان عن حقيقة هذه النسبة.

ولمكان الشريف المرتضى في علم الأدب، والبلاغة شكك بعض الباحثين[3] فيما نُسب إليه من القول بالصرفة مستندًا فيما ذكره إلى عبارةٍ للشريف المرتضى في كتابه «طيف الخيال»، حيث يقول بعد كلامٍ له على بعض الأبيات الشعرية: (لكن الله تعالى أودع هؤلاء القوم من أسرار الفصاحة، وهداهم من مسالك البلاغة إلى ما هو ظاهر باهر، ولهذا كان القرآن معجزًا، وعَلَمًا على النبوة؛ لأنه أعجز قومًا هذه صفاتهم، ونعوتهم)[4].

المسألة الثانية: نسبة القول بالصرفة إلى ابن حزم:

وأما ابن حزم رحمه الله، فقد كان من أبرز المحتجّين للقول بالصرفة، والمدافعين عنه، وفي ذلك يقول بعد كلامه في وجه إعجاز

---

(١) انظر: معجم الأدباء (٣/ ٣٩١)، روح المعاني (١/ ٢٨).

(٢) انظر في ذلك: فكرة إعجاز القرآن (ص٦٩)، مقدمة طيف الخيال (ص٣٢)، وذكر محقق طيف الخيال أن اسمه الموضح عن وجه إعجاز القرآن، أو كتاب الصرفة.

(٣) انظر: فكرة إعجاز القرآن (ص٧١).

(٤) طيف الخيال (ص١٠٠).

القرآن الكريم: (فصحَّ أنه ليس من نوع بلاغة الناس أصلًا، وأن الله تعالى منع الخلق من مثله، وكساه الإعجاز، وسلبه جميع كلام الخلق)[1].

وقال في موضع آخر: (كل كلمة قائمة المعنى، يعلم إذا تليت أنها من القرآن، فإنها معجزة، لا يقدر أحد على المجيء بمثلها أبدًا؛ لأن الله تعالى حال بين الناس وبين ذلك)[2].

(وتأمل قوله: منع الخلق عن مثله، وكساه الإعجاز، تجده كلامًا لا يلتئم؛ لأنه لا معنى لأن يكسوه الله الإعجاز، إذا كان عجز البشر عنه منعًا منه سبحانه، وما دام الوجه هو منع الخلق، فلا يوصف النظم بالإعجاز لأن المعجز هو منع الخلق)[3].

ومما قاله ابن حزم يتبين أنه كان يقول بالصرفة وجهًا لإعجاز القرآن الكريم، وهو يقول بالمعنى الثالث من معاني الصرفة، وهو أن الله تعالى منع الخلق عن مماثلة القرآن الكريم، ولو لم يمنعهم لأتوا بمثله.



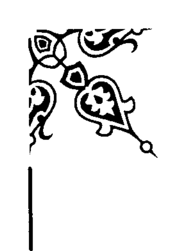
---

(١) الفصل (٣/ ١٢).

(٢) الفصل (٣/ ١٣).

(٣) الإعجاز البلاغي (ص٣٧٦).





المَبْحَثُ الثَّالِثُ

إبطـــال القـــول بالصَّرْفَـــةِ

تكلَّم العلماء رحمهم الله تعالى على القول بالصرفة، وبيَّنوا بطلانه، وسلكوا في ذلك مسالك متعددة، فمنهم من بيَّن ضعف هذا القول إجمالًا، ولم يتعرَّض لتفاصيل الرد عليه، ومنهم من فصَّل القول في بطلانه[1]، وممن نحى المنحى الأول ابن عاشور، وفي بيان ضعف القول بالصرفة **يقول** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بعد حكايته لأقوال القائلين بالصرفة**: (وهو مع كونه كافيًا في أن عجْزهم على المعارضة بتعجيز الله إياهم هو مسلك ضعيف)[2].

وفي موضع آخر ينقل ابن عاشور عن التفتازاني أنه قال: (فوجه الإعجاز أمر من جنس البلاغة والفصاحة لا كما ذهب إليه النظَّام وجمع من المعتزلة أن إعجازه بالصرفة بمعنى أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب قدرتهم عليها)[3].

ومن خلال هذين النقلين السابقين يتبين لنا أن ابن عاشور يرى ضعف القول بالصرفة، وفي نقله عن التفتازاني ما يفيد أنه يرى بلاغة

---

(١) والردود التفصيلية على القول بالصرفة متعددةٌ، ومنها ما يتوجه إلى بعض تعريفات الصرفة دون بعض، ولمَّا لم يتعرض ابن عاشور لهذه الردود آثرت تركها، واكتفي هنا بالإشارة إلى بعضٍ من مظان هذه الردود، **فمنها**: الرسالة الشافية (ص١٤٦ ـ ١١٥٤)، دلائل الإعجاز (ص٣٩٠)، إعجاز القرآن (ص٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٣٤٧).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٠٧).

القرآن الكريم وفصاحته كافيةً في إبطال القول بالصرفة، ومما يؤكد ذلك صنيعه بعد أن عرض أنواعًا من أساليب القرآن الكريم، وبلاغته في المقدمة العاشرة من مقدمات التحرير والتنوير[١].

إذ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكأنك بعد ما قررناه في هذه المقدمة قد صرت قديرًا على الحكم فيما اختلف فيه أئمة علم الكلام من إعجاز القرآن للعرب هل كان بما بلغه من منتهى الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وما احتوى عليه من النكت والخصوصيات التي لا تقف بها عدة ويزيدها النظر مع طول الزمان جدة، فلا تخطر ببال ناظر من العصور الآتية نكتة أو خصوصية إلا وجد آيات القرآن تتحمَّلها بحيث لا يمكن إيداع ذلك في كلام إلا لعلَّام الغيوب وهو مذهب المحققين، أو كان الإعجاز بصرف الله تعالى مشركي العرب عن الإتيان بمثله، وأنه لولا أن الله سلبهم القدرة على ذلك لأمكن أن يأتوا بمثله لأنه مما يدخل تحت مقدور البشر، ونسب هذا إلى أبي الحسن الأشعري وهو منقول في شرح التفتازاني على المفتاح[٢] عن النظام وطائفة من المعتزلة، ويسمَّى مذهب أهل الصرفة، وهو الذي قال به ابن حزم في كتابه[٣] في الملل والنحل)[٤].

ويناقش ما يمكن أن يستدل به القائلون بالصرفة من الآيات،

---

(١) هذه المقدمة هي المقدمة الأخيرة من مقدمات التحرير والتنوير، وهي قطعة أدبية نفيسة ضمنها روائع من القول، وقد خصصها ابن عاشور للكلام عن إعجاز القرآن الكريم، وخاصةً ما يتعلق بالإعجاز اللغوي، وهي مع ذلك جزء يسير من كلام ابن عاشور في إعجاز القرآن، وما ذكره في مواضع أخرى من تفسيره أضعاف هذه المقدمة، وما هذا البحث إلا دليلٌ على ذلك.

(٢) لم أجده في المطول، ولا في المختصر.

(٣) **انظر**: الفصل (٣/ ١٤).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ١٣٠).

ومن تلك الآيات قول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام: ٢٥].

وفي هذه الآية يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (فإن قلت: هل تكون هاته الآية حجة للذين قالوا من علمائنا: إن إعجاز القرآن بالصرفة أي أعجز الله المشركين عن معارضته بأن صرفهم عن محاولة المعارضة لتقوم الحجة عليهم فتكون الصرفة من جملة الأكنة التي جعل الله على قلوبهم، قلت: لم يحتج بهذه الآية أصحاب تلك المقالة لأنك قد علمت أن الأكنَّة تخييل[(١)]، وأن الوقر استعارة[(٢)]، وأن قول النضر[(٣)]: «ما أدري ما يقول»[(٤)] بهتان ومكابرة)[(٥)].

والملاحظ من خلال استعراض هذه النقول عن ابن عاشور أنه لم يتعرض لتفاصيل الرد على القول بالصرفة، وإنما اكتفى بالرد الإجمالي على هذا القول.

---

(١) **الأكنة**: جمع كنان، وهو: الغطاء، والستر، والمراد بها في الآية الكريمة التشبيه لما أصاب القلوب بالأكنة، وهذا معنى قول ابن عاشور تخييل، وهو يستعمل هذه الكلمة بمعنى تشبيه كثيرًا، **انظر**: مفردات ألفاظ القرآن (ص٤٤٢)، تفسير القرآن العظيم (٣/ ٢٤٧)، التحرير والتنوير (٧/ ١٨٠).

(٢) **الوقر في اللغة**: مقدار ما يطيق البعير حمله، وأطلق في الآية الكريمة على آذان المشركين على سبيل الاستعارة، **انظر**: مفردات ألفاظ القرآن (ص٥٢٩)، التحرير والتنوير (٧/ ١٨٠).

(٣) **النضر**: النضر بن الحارث بن كلدة، قتل مشركًا يوم بدر، قتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، **انظر**: البداية والنهاية (٣/ ٣٢٤)، سيرة ابن هشام (٢/ ٦٤٤، ٦٦٥).

(٤) في الكتاب: ما أدري ما أقول، وقد ذكرها على الصواب أثناء سرد القصة في بداية تفسيره للآية.

(٥) التحرير والتنوير (٧/ ١٨٠).

كما نلاحظ أن ابن عاشور لم يبالغ في رده على القائلين بالصرفة، وإنما كان غايةَ ما وصف به هذا القول أنْ وصفه بالضعف، وهذا المنهج في تناول هذا القول القائم على نقده.

وعدم المبالغة في ذلك هو صنيع الكثير من العلماء، فهذا الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول عن القول بالصرفة: (وذهب قوم إلى أن العلة في إعجازه الصرفة... وهذا أيضًا وجه قريب، إلا أن دلالة الآية تشهد بخلافه، وهي قوله سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدل على أن المراد غيرها، والله أعلم)[١].

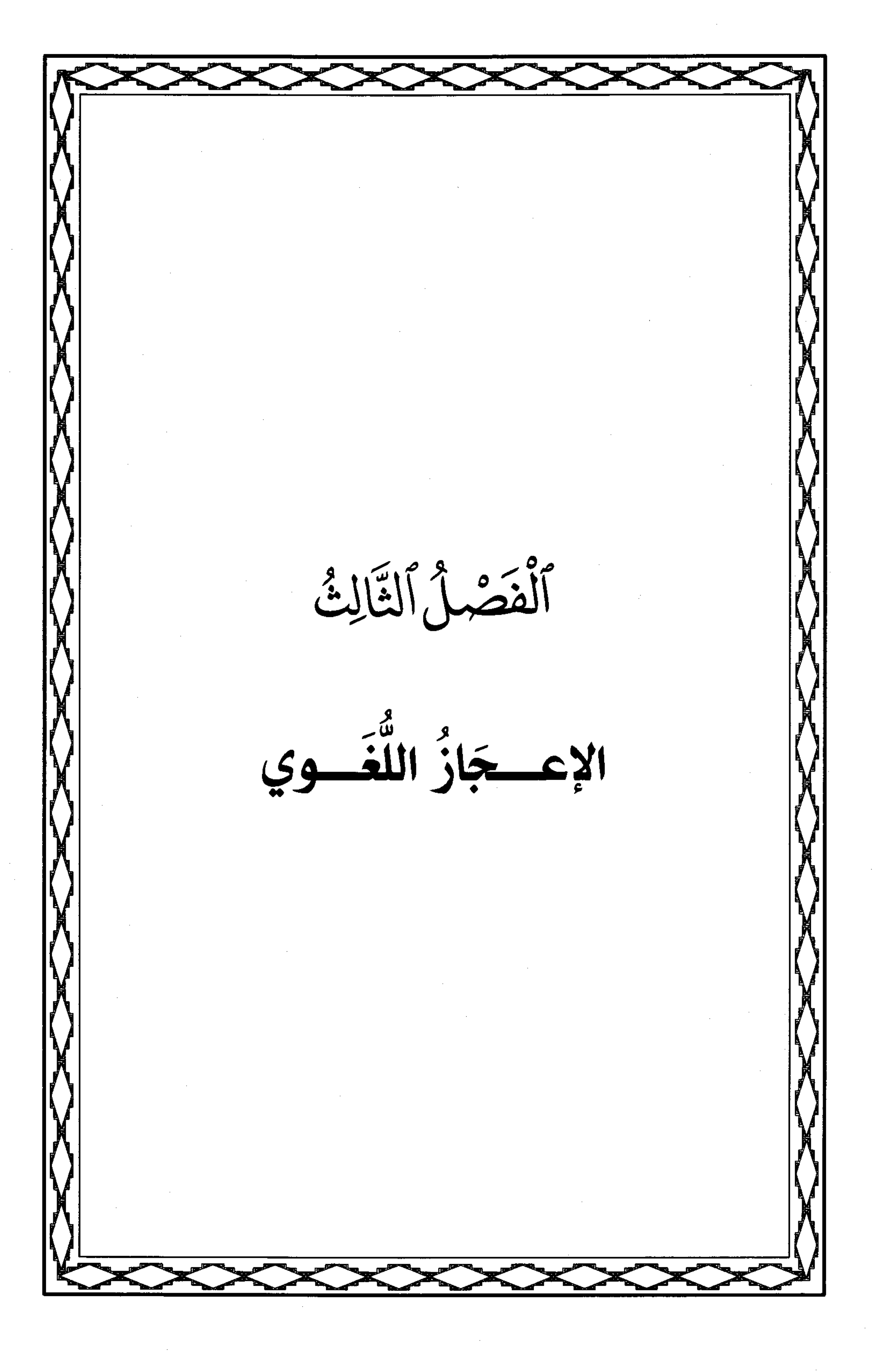
وهذا ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول عن الصَّرفة: (وهذه الطريقة وإن لم تكن مُرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا، إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق)[٢].



---

(١) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢٢ ـ ٢٣).

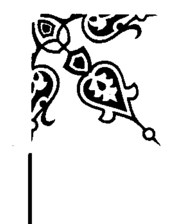
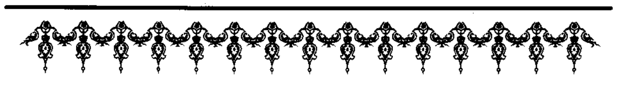
(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٢٠١).



ٱلْفَصْلُ ٱلثَّالِثُ

الإعــجَازُ اللُّغَــوي




التمهيد

المَطْلَبُ الْأَوَّلُ

تعريف الإعجاز اللُّغَوي

يعرِّف العلماء رحمهم الله تعالى الإعجاز عمومًا، فيدخل في تعريفهم الإعجاز اللغوي، وغيره، ومن العلماء من يعرِّف الإعجاز اللغوي فقط، وذلك لأهميته في نظره، أو لأنه لا يرى وجهًا للإعجاز غيره.

وممن عرَّف الإعجاز اللغوي ابن عاشور، وذلك أثناء كلامه على خصائص القرآن الكريم، وأساليبه البلاغية، **وفي ذلك يقول** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَحَدُّ الإعجاز هو الطرف الأعلى للبلاغة الجامع لأقصى الخصوصيات)[١].

وفي موضع آخر قال متكلمًا عن الجهة الأولى من جهات إعجاز القرآن الكريم، وهي إعجازه البلاغي: (فأما الجهة الأولى فمرجعها إلى ما يسمَّى بالطرف الأعلى من البلاغة والفصاحة وهو المصطلح على تسميته حد الإعجاز)[٢].

وهذا الذي ذكره ابن عاشور في بيان حقيقة الإعجاز اللغوي هو ما قرره غير واحدٍ من أهل العلم، ومنهم الآلوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيث يقول:

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٤٥).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠٦).

(حد الإعجاز هو: المرتبة التي يعجز البشر عن الإتيان بمثلها ولا تدخل على قدرته قطعًا، **وهي تشتمل على شيئين**:

الأول: الطرف الأعلى من البلاغة أعني ما تنتهي إليه البلاغة ولا يتصور تجاوزها إياه.

والثاني: ما يقرب من ذلك الطرف، أعني المراتب العليَّة التي تتقاصر القوى البشرية عنها أيضا.

ومعنى إعجاز آيات الكتاب المجيد بأسرها هو كونها مما تتقاصر القوى البشرية عن الإتيان بمثلها، سواء كانت من القسم الأول أو الثاني، فلا يضر تفاوتها في البلاغة)[١].

وما ذُكِرَ من تعريفٍ للإعجاز اللغوي، وأنه الطرف الأعلى للبلاغة، هو ما تناول العلماء بيانه في كتب البلاغة، وسيأتي مزيد بيان له، والله أعلم.

المَطلَبُ الثَّانِي

أهمية الإعجاز اللغوي

* الإعجاز اللغوي من الأوجه التي يرتكز عليها الإعجاز:

من أهم الوجوه التي بني عليها القول في إعجاز القرآن الكريم الإعجاز اللغوي، والعلماء رحمهم الله تعالى وإن اختلفوا في أوجه الإعجاز لا يختلفون في كون الإعجاز اللغوي من أهمها[٢]، وفي أهمية

---

(١) روح المعاني (١٢/ ٦٣).

(٢) اللَّهُمَّ إلا ما كان من القائلين بالصرفة، فهؤلاء لا يرون للقرآن الكريم مزيةً عن كلام العرب، وبالتالي لا يرون وجه الإعجاز في القرآن الكريم إلا الصرفة، وفيما سبق في الفصل الثاني ما يكفي لبيان قولهم، والرد عليه إجمالًا.

هذا الوجه **يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فنرى ملاك وجوه الإعجاز **راجعًا إلى ثلاث جهات**:

الجهة الأولى: بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي البليغ من حصول كيفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتًا من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيده أصل وضع اللغة بحيث يكثر فيه ذلك كثرة لا يدانيها شيء من كلام البلغاء من شعرائهم وخطبائهم.

الجهة الثانية: ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهودًا في أساليب العرب، ولكنه غير خارج عمَّا تسمح به اللغة.

الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحِكَمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن، وفي عصورٍ بعده متفاوتة، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي بكر الباقلاني والقاضي عياض)[١].

والملاحظ هنا أن ابن عاشور يرى أن الإعجاز يرتكز على ثلاثة أمور، وقد ذكر منها جهتين هما مما يندرج تحت الإعجاز اللغوي.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في موضع آخر**: (فإعجاز القرآن من الجهتين الأولى والثانية متوجه إلى العرب، إذ هو معجز لفصحائهم وخطبائهم وشعرائهم مباشرة، ومعجز لعامَّتهم بواسطة إدراكهم أن عجز مقارعيه عن معارضته مع توفر الدواعي عليه هو برهان ساطع على أنه تجاوز طاقة جميعهم، ثم هو بذلك دليل على صدق المنزل عليه لدى بقية البشر الذين بلغ إليهم صدى عجز العرب بلوغًا لا يستطاع إنكاره لمعاصريه بتواتر الأخبار ولمن

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٤).

جاء بعدهم بشواهد التاريخ. فإعجازه للعرب الحاضرين دليل تفصيلي وإعجازه لغيرهم دليل إجمالي)[١].

وفي هذا النقل يبين ابن عاشور فائدة تقسيم جهات الإعجاز، وذلك أن كل جهةٍ تبين عجز فئةٍ من الناس، فالجهتان الأولى والثانية، وهما مما يرجع إلى الإعجاز اللغوي يبينان عجز العرب في زمن الرسالة مباشرة، ويبينان عجز سائر الخلق بما نُقل إليهم من عجز العرب تبعًا، وهذا مما يؤكد أهمية الإعجاز اللغوي، إذ أصبح وسيلةً لبيان عجز البشر عمومًا عن الإتيان بمثل القرآن الكريم.

* الإعجاز اللغوي سبيل لمعرفة انقطاع العرب الواضح عن المعارضة في زمن الرسالة:

تتعدد أغراض الإعجاز اللغوي، وأنواعه، فمن رعايةٍ لأسلوب القصة إلى اهتمامٍ بالألفاظ، إلى عنايةٍ بضرب الأمثال المبتكرة، ويظهر عجز العرب تبعًا لذلك عجزًا من نواحي عديدةٍ لا من ناحية واحدة.

وقد تكلم ابن عاشور عن هذا الأمر عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، **وفي ذلك يقول** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وذكر في هذه الآية متعلّق التصريف بقوله: ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ بخلاف الآية السابقة، لأن ذكر ذلك أَدخل في الإعجاز، فإن كثرة أغراض الكلام أشد تعجيزًا لمن يروم معارضته عن أن يأتي بمثله، إذ قد يقدر بليغ من البلغاء على غرض من الأغراض ولا يقدر على غرض آخر، فعجزهم عن معارضة سورة من

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٥).

القرآن مع كثرة أغراضه عجز بيِّن من جهتين، لأنهم عجزوا عن الإتيان بمثله ولو في بعض الأغراض كما أشار إليه قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣].

فإن (من) للتبعيض وتنوين (مثل) للتعظيم والتشريف؛ أي: من كل مثل شريف، والمراد: شرفه في المقصود من التمثيل.

و(مِن) في قوله (من كل مثل) للتبعيض، و(كل) تفيد العموم، فالقرآن مشتمل على أبعاض من جميع أنواع المثل)[١].

وقد عدَّ العلماء تصريف الأمثال[٢] في القرآن الكريم دليلًا على الإعجاز الأسلوبي في القرآن الكريم، إذ ينتقل من أسلوب الوعد والوعيد إلى ذكر الأحكام إلى ذكر القصص.

وفي ذلك يقول الزرقاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (واعلم أن تصريف القول في القرآن على هذا النحو كان فنًّا من فنون إعجازه الأسلوبي كما ترى، وكان في الوقت نفسه منَّة يمنُّها الله على الناس ليستفيدوا عن طريقها كثرة النظر في القرآن والإقبال عليه قراءة وسماعًا وتدبرًا وعملًا، وأنه لا عذر معها لمن أهمل هذه النعمة وسفَّه نفسه، اقرأ إن شئت قوله سبحانه في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقوله سبحانه في سورة الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]،

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٥).

(٢) المراد بالأمثال في الآية: الأشباه، والأمور المتماثلة، ويدخل في ذلك الأمثال المضروبة لتقرير معنى ما، وليس المراد الأمثال المضروبة لأمور معينة فقط، وهذا التفسير للأمثال هو مقتضى اللغة، وبه فسَّر الأمثال في الآية الكريمة أهل التفسير، وبه تظهر دلالة الآية الكريمة على ما ذكره ابن عاشور، **انظر**: جامع البيان (١٥/ ٧٧)، مفردات ألفاظ القرآن (ص٤٦٢)، تفسير القرآن العظيم (٥/ ١١٧).

وقوله سبحانه في سورة الرعد[١]: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]).

* الإعجاز اللغوي يتحقق به إعجاز أقصر سورة في القرآن:

تتعدد أنواع الإعجاز في القرآن الكريم، ويبقى الإعجاز اللغوي هو الوجه الذي يتحقق به إعجاز القرآن الكريم في كل سورة من سوره، وذلك أن الإعجاز بالحقائق العلمية والتشريعية إنما هو في بعض السور دون بعض، وهكذا الأمر في الإعجاز بأخبار الغيب، فإنه (ليس بالأمر العام الموجود في كل سورة من سور القرآن، وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها، فقال: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] من غير تعيين)[٢]، وما قيل في الإعجاز بالحقائق العلمية والتشريعية، وفي الإعجاز بأخبار الغيب يقال في سائر أنواع الإعجاز، والله أعلم.

وهذا الأمر مما يبيِّن أهمية الإعجاز اللغوي، **وفي ذلك يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذه الناحية من هذه الجهة من الإعجاز هي أقوى نواحي إعجاز القرآن وهي التي يتحقق بها إعجاز أقصر سورة منه)[٣].

وفيما يظهر أن ابن عاشور يريد أن هذه الجهة من الإعجاز يتحقق بها إعجاز السور القصيرة كما يتحقق بها إعجاز السور الطويلة، ويدخل في السور القصيرة سورة الكوثر أقصر سور القرآن الكريم، فإن وجه إعجاز هذه السورة الكريمة إنما يظهر بالإعجاز اللغوي دون

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٢٣٢).

(٢) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢٣ ـ ٢٤).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١١٢).

الإعجاز بأخبار الغيب[1] ونحوها من أوجه الإعجاز، والله أعلم.

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

الدليل على الإعجاز اللغوي

* عدم المعارضة بعد التحدي:

عدَّ كثير من العلماء عدم معارضة القرآن الكريم بعد الإعلان بالتحدي دليلًا على عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم، وهذا العجز يظهر واضحًا في عجزهم عن مماثلة أقصر سور القرآن الكريم في فصاحتها، وبلاغتها،

وقد عدَّ ابن عاشور هذا الانقطاع عن المعارضة بعد التحدي دليلًا إجماليًا للإعجاز اللغوي، **وفي هذا الأمر يقول** رَحِمَهُ اللهُ: (وحسبنا هنا الدليل الإجمالي، وهو أن الله تعالى تحدَّى بُلَغاءهم أن يأتوا بسورة من مثله، فلم يتعرض واحد إلى معارضته اعترافًا بالحق، وربئًا بأنفسهم عن التعريض بالنفس إلى الافتضاح، مع أنهم أهل القدرة في أفانين الكلام نظمًا ونثرًا وترغيبًا وزجرًا، قد خصُّوا من بين الأمم بقوة الذهن وشدة الحافظة، وفصاحة اللسان وتبيان المعاني، فلا يستصعب

---

(١) خلافًا لمن أثبت في هذه السورة أربعة أخبار غيبية، أو أقل من ذلك، وذلك أن ما يقال من أخبار غيبية في السورة الكريمة يبنى على تفاسير ضعيفة لبعض كلمات الآية كقولهم الكوثر معناه الأتباع، فهي على هذا خبر غيبي عن كثرة أتباع النبي ﷺ، أو يبنى على استنباط من آيات السورة لا على صريح الآية كقولهم: إن الأبتر خبر غيبي بانقطاع عقب العاص بن وائل، وهذا الاستنباط إن صدقه التأريخ لم يدل عليه لفظ الأبتر ابتداءً، إذ الأبتر ليس المراد منه لغةً من سينقطع عقبه، وإنما المراد به من لا ولد له، والمنقطع من الخير، وهذا المعنى الأخير، وهو المنقطع عن الخير هو ما دلت الآية الكريمة عليه، والله أعلم، **انظر**: لسان العرب (٤/ ٣٧)، القاموس المحيط (ص٤٤٠)، روح المعاني (١/ ٣٢)، التحرير والتنوير (٣٠/ ٥٧٣ ـ ٥٧٧).

عليهم سابق من المعاني، ولا يجمح بهم عسير من المقامات)[١].

وهذا الدليل الإجمالي للإعجاز اللغوي هو دليلٌ لمن لا يعرف أساليب العرب، وأنواع بلاغتهم، فمثل هذا يستدل بالدليل الإجمالي للإعجاز اللغوي، فيعلم من خلاله عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم في بلاغته وفصاحته، وعجز غيرهم من باب أولى.

* خصوصيات الكلام البليغ، ودقائقه مرادة لله تعالى:

المتأمل في ألفاظ القرآن الكريم، ومعانيه يرى أنواعًا من الأساليب البديعة، والألفاظ الفصيحة مما يجعله يعلم معه أن هذه الأساليب البديعة، والألفاظ الفصيحة لم ترد في القرآن الكريم عرضًا، وإنما وردت في القرآن الكريم مقصودًا بها ما فيها من فصاحة وبلاغة إضافة إلى ما تدل عليه من المعاني.

وفي تقرير هذا الأمر وتوضيحه، **يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (واعلم أنه لا شك في أن خصوصيات الكلام البليغ ودقائقه مرادة لله تعالى في كون القرآن معجزًا وملحوظة للمتَحَدِّين به على مقدار ما يبلغ إليه بيان المبين. وأن إشارات كثيرة في القرآن تلفت الأذهان لذلك، ويحضرني الآن من ذلك أمور: أحدها ما رواه مسلم[٢] والأربعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ**» أي سورة الفاتحة «**بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ:**

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٦).

(٢) **مسلم**: أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن ورد القشيري النيسابوري، ولد سنة ٢٠٤هـ، وتوفي سنة ٢٦١هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٥٧)، البداية والنهاية (١١/ ٤٠).

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي ـ وَقَالَ مَرَّةً ـ فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي، فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»[1].

ففي هذا الحديث تنبيه على ما في نظم فاتحة الكتاب من خصوصية التقسيم[2]، إذ قسم الفاتحة ثلاثة أقسام، وحسن التقسيم من المحسنات البديعية، مع ما تضمنه ذلك التقسيم من مُحسِّن التخلص[3] في قوله: «فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي»، إذ كان ذلك مزيجًا من القسمين الذي قبله والذي بعده.

وفي القرآن مراعاة التجنيس[4] في غير ما آية، والتجنيس من المحسنات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ﴾ [الأنعام: ٢٦].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، (١/ ٢٩٦) برقم (٣٩٥).

(٢) التقسيم عند علماء البلاغة من المحسنات المعنوية، وهو: أن يذكر متعدد، ثم يضاف إلى كل فرد من أفراده ما له على جهة التعيين، ويطلق ويراد به أن تذكر أحوال الشيء مضافًا إلى كل منها ما يليق به، **انظر**: المطول (ص٤٢٨)، عروس الأفراح (٢/ ٣٥٣)، الإتقان (٣/ ٢٦٧)، جواهر البلاغة (ص٣٢٥).

(٣) **التخلص**: هو الخروج، والانتقال مما ابتدئ به الكلام إلى الغرض المقصود برابطة تجعل المعاني آخذًا بعضها برقاب بعض، **انظر**: المثل السائر (٢/ ١٢١)، المطول (ص٤٧٩)، عروس الأفراح (٢/ ٤٢٨).

(٤) **التجنيس، أو الجناس**: هو تشابه لفظين في النطق، واختلافهما في المعنى، وهو من المحسنات اللفظية، وهو نوعان: تام وهو: ما اتفق فيه اللفظان في الحروف، وعددها، وهيئاتها من الحركات والسكنات، وترتيبها مع اختلاف المعنى، وغير تام وهو: ما اختلف فيه اللفظان في واحد من الأمور السابقة في الجناس التام، **انظر**: المطول (ص٤٤٥)، عروس الأفراح (٢/ ٣٧٧)، الإتقان (٣/ ٢٧١).

وفيه التنبيه على مُحسِّن المطابقة[١] كقوله: ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝٤﴾ [الحج: ٤].

والتنبيه على ما فيه من تمثيل[٢] كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥﴾ [إبراهيم: ٢٥])[٣].

وما ذكره ابن عاشور من أدلة تشير إلى مراعاة الخصائص البلاغية هو مع مراعاة المعاني، وهذا ظاهر من خلال الأمثلة التي ذكرها، فإن معانيها مقصودةٌ، وكانت أحسنُ الكيفيات التي تؤدى بها هذه المعاني هي ما جاء في سياق الآيات الكريمة.

* بقاء الآيات التي نُسخ حكمها:

من المعلوم عند العلماء رحمهم الله تعالى ممن كتب في علوم القرآن، وفي أصول الفقه أن النسخ على أقسام متعددةٍ فيما يتعلق بالتلاوة والحكم.

وأحد هذه الأقسام هو نسخ الحكم، وبقاء التلاوة، وقد جعل ابن عاشور هذا القسم دليلًا على إعجاز القرآن اللغوي، **وفي ذلك يقول** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقد بدا لي دليل قوي على هذا وهو بقاء الآيات التي نسخ حكمها وبقيت متلوة من القرآن، ومكتوبة في المصاحف،

---

(١) **المطابقة**: هي الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى، **انظر**: المطول (ص٤١٧)، عروس الأفراح (٢/ ٣٢٩)، الإتقان (٣/ ٢٨٤).

(٢) **التمثيل**: ما كان وجه الشبه فيه وصفًا منتزعًا من متعدد، أمرين، أو أمور، والتمثيل أبلغ من غيره من أنواع التشبيه، وأعظم أثرًا في المعاني، **انظر**: المطول (ص٣٣٩)، عروس الأفراح (٢/ ٢١٨).

(٣) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠٨).

فإنها لما نسخ حكمها لم يبق وجه لبقاء تلاوتها وكتبها في المصاحف إلا ما في مقدار مجموعها من البلاغة، بحيث يلتئم منها مقدار ثلاث آيات متحدًّى بالإتيان بمثلها، مثال ذلك آية الوصية[١] في سورة العقود)[٢].

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (ونسخ الحكم وبقاء التلاوة وهذا واقع، لأن إبقاء التلاوة يقصد منه بقاء الإعجاز ببلاغة الآية)[٣].

وما ذكره ابن عاشور من حكمةٍ لما نُسخ حكمه وبقيت تلاوته لم أر من نصَّ عليها، وإنما نصّ العلماء رحمهم الله تعالى على حِكَمٍ أخرى، **ومنها:**

١ ـ أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه والعمل به، فيتلى لكونه كلام الله تعالى فيثاب عليه، فتركت التلاوة لهذه الحكمة.

٢ ـ أن النسخ غالبًا ما يكون للتخفيف فأبقيت التلاوة تذكيرًا بالنعمة ورفع المشقة[٤].

وهذه الحِكَم التي يذكرها العلماء لنسخ الحُكْم وبقاء التلاوة، هي حِكَمٌ اجتهادية، فكلٌّ يذكر ما يظنه أقرب إلى الصواب، وأليق بحكمة التشريع، وعليه فما ذكره ابن عاشور من دلالة هذه النوع من المنسوخ على الإعجاز هو من هذا الباب، والله أعلم.

---

(١) آية الوصية المراد بها هنا قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ الآية، [المائدة: ١٠٦].

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠٤).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٦٦٣).

(٤) **انظر**: البرهان في علوم القرآن (٢/ ٣٩)، الإتقان (٣/ ٦٩).

* دلالة قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١] على أهمية الإعجاز اللغوي:

يستدل ابن عاشور على إعجاز القرآن اللغوي بقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾، وهذه الآية الكريمة جاءت بهذا اللفظ في مطلع ثلاث سور(١)، وجاءت بإبدال لفظ الحكيم بالعليم في سورة غافر(٢).

وقد بيَّن ابن عاشور وجه استدلاله بهذه الآية، **فقال** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإيثار وصفَي (العزيز الحكيم) بالذكر دون غيرهما من الأسماء الحسنى لإشعار وصف (العزيز) بأن ما نزل منه مناسب لعزته، فهو كتاب عزيز كما وصفه تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]؛ **أي**: هو غالب لمعانديه، وذلك لأنه أعجزهم عن معارضته، ولإشعار وصف ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ بأن ما نزل من عنده مناسب لحكمته، فهو مشتمل على دلائل اليقين والحقيقة، ففي ذلك إيماء إلى أن إعجازه من جانب بلاغته إذ غلبت بلاغة بلغائهم، ومن جانب معانيه إذ أعجزت حكمته حكمة الحكماء، وقد تقدم مثيل هذا في طالعة سورة الزمر، وقريب منه في طالعة سورة غافر)(٣).

وما ذكره ابن عاشور من استدلالٍ بالآية الكريمة، وأن فيها إيماءً إلى الإعجاز من جانب البلاغة والمعاني، **يمكن التعليق عليه في النقاط التالية:**

١ - هذا الاستدلال هو استنباط من الآية الكريمة، وليس مما يؤخذ من نص الآية، أو ظاهرها، وعليه فلا يمكن اعتبار هذه الآية الكريمة

---

(١) وهي: سورة الزمر: آية ١، وسورة الجاثية: آية: ٢، وسورة الأحقاف: آية: ٢.
(٢) سورة غافر: آية: ٢.
(٣) التحرير والتنوير (٢٥/ ٣٢٥ - ٣٢٦).

دليلًا صريحًا في هذا الأمر، وقد نبَّه ابن عاشور أن هذا الاستدلال هو من إيماءات الآية.

٢ ـ هذا الاستدلال ينبني على مراعاة دلالة الأسماء الحسنى التي تختم بها آيات القرآن الكريم على معان تتناسب مع سياق الآيات التي ذكرت فيها، وهذا العلم الشريف هو من أهم علوم القرآن الكريم، وبه تظهر كثير من كنوزه[١].

٣ ـ استنباط الدلالة على الإعجاز من جانب البلاغة، والمعاني من ذكر اسمي الله تعالى «العزيز الحكيم» في خاتمة الآية الكريمة يحسن أن يضاف إليه ما ذكره بعض المفسرين من أن (التعرض لوصفي العزة والحكمة للإيذان بظهور أثريهما في الكتاب بجريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مُدافع ولا مُمانع، وبابتناء جميع ما فيه على أساس الحِكَم الباهرة)[٢]، وذلك أن إيثار الاسمين الكريمين في خاتمة الآية الكريمة كما يحتمل أن يكون للدلالة على الإعجاز في البلاغة والمعاني كما ذكر ابن عاشور، فإنه يشمل أيضًا قوة أحكام القرآن الكريم وتشريعاته، واتفاقه مع مقتضى الحكمة، وبهذا تتسع دلالات الآية الكريمة، واللفظ القرآني يحتمل هذه المعاني.

المَطْلَبُ الرَّابِعُ

أبرز التفاسير المعتنية بالإعجاز اللغوي

لقد كان لكلٍّ من العقيدة، والمذهب الفقهي، وإلمام المفسِّر باللغة آثارها الظاهرة في تفاسير أهل العلم، وترتب على ذلك أن انقسمت هذه

---

(١) وهذا العلم من العلوم المندرجة تحت علم المناسبات بين الآيات، **انظر**: البرهان (١/ ٣٦)، الإتقان (٣/ ٣٦٩).

(٢) إرشاد العقل السليم (٧/ ٢٤٠).

التفاسير إلى مدارس متعددة، فمنها ما نحى منحًى فقهيًّا، ومنها ما غلب عليه الاعتناء باللغة.

وهذه التفاسير التي اعتنت باللغة انقسمت هي كذلك إلى أقسام، فمنها ما يغلب عليه العناية بالنحو، وإعراب الآيات القرآنية، ومنها ما يغلب عليه تحليل المفردات القرآنية، وردها إلى أصولها في اللغة، ومنها ما كانت عنايته ببلاغة القرآن الكريم، ومعرفة إعجازه من جانب البلاغة واللغة.

وهذا القسم الأخير من التفاسير لم يعتن به إلا القليل من العلماء رحمهم الله تعالى، **وفي ذلك يقول ابن عاشور** رحمه الله: (فمن أعجب ما نراه خلو معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول إلى هذا الغرض الأسمى إلا عيون التفاسير، فمن مُقِلٍّ مثل معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج والمحرر الوجيز للشيخ عبد الحق بن عطية الأندلسي، ومن مُكْثِرٍ مثل الكشاف، ولا يُعذر في الخلو عن ذلك إلا التفاسير التي نحت ناحية خاصة من معاني القرآن مثل «أحكام القرآن»، على أن بعض أهل الهمم العليَّة من أصحاب هذه التفاسير لم يهمل هذا العِلق[1] النفيس كما يصف بعض العلماء كتاب «أحكام القرآن» لإسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكي البغدادي[2] وكما نراه في مواضع من «أحكام القرآن» لأبي بكر بن العربي)[3].

وقال في موضع آخر بعد أن ذكر إعجاز القرآن من جهة بلاغته

---

(١) **العِلْق بالكسْر**: النّفيس من كُلِّ شيءٍ، سُمِّي به لتَعَلُّقِ القَلْب به، **انظر**: القاموس المحيط (ص١١٧٦)، لسان العرب (١٠/ ٢٦١).

(٢) **هو**: إسماعيل بن إسحاق بن حماد أبو إسحاق الأزدي القاضي، ولد سنة ١٩٩هـ، توفي سنة ٢٨٢هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٣٣٩)، البداية والنهاية (١١/ ٨٥).

(٣) **هو**: محمد بن عبد الله بن محمد أبو بكر ابن العربي المعافري الأندلسي، ولد سنة ٤٦٨هـ، وتوفي سنة ٥٤٥هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٩٧)، البداية والنهاية (١٢/ ٧٣٨)، **وانظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٠٢).

وفصاحته: (وليس من حظ الواصف إعجاز القرآن وصفًا إجماليًّا كصنعنا ههنا أن يصف هذه الجهة وصفًا مفصلًا لكثرة أفانينها، فحسبنا أن نحيل في تحصيل كلياتها وقواعدها على الكتب المجعولة لذلك مثل دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، والقسم الثالث فما بعده من المفتاح، ونحو ذلك، وأن نحيل في تفاصيلها الواصفة لإعجاز آي القرآن على التفاسير المؤلفة في ذلك وعمدتها كتاب «الكشاف» للعلَّامة الزمخشري[(١)]، وما سنستنبطه ونبتكره في تفسيرنا هذا إن شاء الله)[(٢)].

ومن خلال ما ذكر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ نلاحظ التالي:

١ ـ قلة عدد المفسِّرين الذين اعتنوا ببيان إعجاز القرآن الكريم في بلاغته، وأسلوبه، مع أهمية هذا الأمر.

٢ ـ تفاوت المفسِّرين الذين اعتنوا ببيان الإعجاز من حيث إقلالهم من العناية بهذا الأمر، أو إكثارهم.

٣ ـ كتب أحكام القرآن الكريم هي من الكتب التي لا تتعرض للكلام عن إعجاز القرآن الكريم، ومن تكلم من أصحابها في ثناياها، فذلك حرصًا منه على هذا الأمر النفيس، لا أن موضوع أحكام القرآن الكريم يتطلب مثل ذلك.

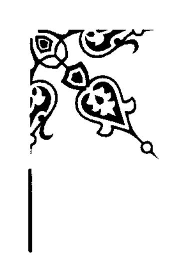
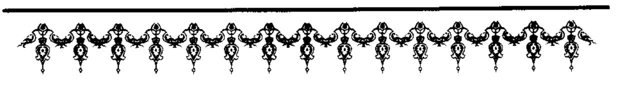
٤ ـ غالب من اعتنى ببيان الإعجاز في ثنايا تفسيره هم من أئمة العربية.

٥ ـ بعض المفسِّرين ممن يعتقد عقيدةً تخالف عقيدة أهل السُّنَّة هم ممن لهم عناية بالإعجاز، وهذا يعني أهمية التنبه أثناء أخذ ما يتعلق بإعجاز القرآن الكريم من هذه التفاسير.

---

(١) **الزمخشري**: محمود بن عمر بن محمد أبو القاسم الزمخشري، ولد سنة ٤٦٧هـ، وتوفي سنة ٥٣٨هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (٢٠/ ١٥١)، البداية والنهاية (١٢/ ٧٢٤).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠٦).

المَبْحَثُ الأَوَّلُ

الإعْــجَاز البــلاغِي

الإعجاز البلاغي هو الذي ذهب إليه كثير من العلماء، وسيطر على مباحث المتكلمين في الإعجاز، يستوي في ذلك العلماء الذين جعلوا الإعجاز اللغوي هو الوجه في إعجاز القرآن الكريم، أو الذين ذكروا أوجهًا أخرى للإعجاز.

(والواقع أن المصنفات الأولى في الإعجاز على اختلاف مذاهب أصحابها، جاءت أشبه بمباحث بلاغية مما قدروا أن إعجاز القرآن يعرف بها، وإن استوعبت أقوال المتكلمين في وجوه الإعجاز، فرسائل الخطابي، والرمَّاني[(١)]، والباقلاني تأخذ مكانها في المكتبة البلاغية.

وبعد أن استقلت البلاغة بالتأليف والتصنيف وجِّهت إلى خدمة الإعجاز البلاغي، فالجرجاني يضع كتابه في البلاغة، ويقدمه باسم «دلائل الإعجاز»[(٢)]، وأبو هلال العسكري[(٣)] يضع علم الفصاحة والبلاغة تاليًا لعلم التوحيد، ويقدم «كتاب الصناعتين»[(٤)] بقوله: (اعلم علَّمك الله

---

(١) **الرماني**: أبو الحسن علي بن عيسى بن عبد الله الرماني، ولد سنة ٢٩٦هـ، وتوفي سنة ٣٨٤هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٦/ ٥٣٣)، البداية والنهاية (١١/ ٣٧٩).

(٢) من الكتب المؤسسة لعلم البلاغة، طبع عدة طبعات من أجودها طبعة دار المدني بتحقيق الشيخ محمود شاكر.

(٣) **أبو هلال العسكري**: الحسن بن عبد الله بن سهل توفي بعد ٤٠٠هـ، **انظر**: بغية الوعاة (١/ ٥٠٦)، طبقات المفسرين (ص٩٦).

(٤) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، من كتب البلاغة المتقدمة، طبع عدة طبعات من =

الخير أن أحق العلوم بالتعلم وأَولاها بالحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه علمُ البلاغة والفصاحة، الذي يعرف به إعجاز كتاب الله)[١].

ولما كان هذا هو شأن الإعجاز البلاغي، وتلك مكانته عند العلماء ممن اعتنى بالإعجاز، لم يكن غريبًا أن يوليه ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ اهتمامًا بالغًا، ولتوضيح عناية ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ بهذا النوع من الإعجاز فقد قسمت هذا المبحث إلى تمهيد، وأربعة مطالب.



= أجودها طبعة المكتبة العصرية بتحقيق علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم.

(١) كتاب الصناعتين (ص٩)، **وانظر**: الإعجاز البياني للقرآن (ص٩٤) بتصرف.

تمهيد

تتميز الجملة القرآنية بخصائص تميزها عن كلام الناس، وتجعلها واسطة العقد في الكلام الذي تكون فيه، يظهر البيان فيها، وتختلف أساليبها عن سائر الكلام، وهذا من أبلغ ما يبين الإعجاز في القرآن الكريم، فإنك ترى الجملة من القرآن (يتمثل بها في تضاعيف كلام كثير وهي غرة جميعه وواسطة عقده والمنادي على نفسه بتميزه وتخصُّصه برونقه وجماله، واعتراضه في حسنه ومائه)[١].

وفي بيان خصائص الجمل القرآنية، ودلالتها **يقول ابن عاشور** رحمه الله: (إن نظم القرآن مبني على وفرة الإفادة، وتعدد الدلالة.

فجمل القرآن لها دلالتها الوضعية[٢] التركيبية التي يشاركها فيها الكلام العربي كله.

ولها دلالتها البلاغية التي يشاركها في مجملها كلام البلغاء ولا يصل شيء من كلامهم إلى مبلغ بلاغتها.

ولها دلالتها المطوية، وهي: دلالة ما يذكر على ما يقدر اعتمادًا على القرينة، وهذه الدلالة قليلة في كلام البلغاء، وكثرت في القرآن مثل تقدير القول، وتقدير الموصوف، وتقدير الصفة.

---

(١) إعجاز القرآن (ص٣٥).

(٢) **الدلالة الوضعية**: هي دلالة اللفظ على ما وضع له، **انظر**: التلخيص، ٢٣٦، عروس الأفراح (٢/ ١٣٨).

ولها دلالة مواقع جمله بحسب ما قبلها وما بعدها؛ ككون الجملة في موقع العلة لكلام قبلها، أو في موقع الاستدراك، أو في موقع جواب سؤال، أو في موقع تعريض، أو نحوه، وهذه الدلالة لا تتأتى في كلام العرب لقصر أغراضه في قصائدهم وخطبهم، بخلاف القرآن فإنه لما كان من قبيل التذكير والتلاوة سمحت أغراضه بالإطالة وبتلك الإطالة تأتي تعدد مواقع الجمل والأغراض.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢] بعد قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، فإن قوله: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى آخره، مفيد بتراكيبه فوائد من التعليم والتذكير، وهو لوقوعه عقب قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ واقع موقع الدليل على أنه لا يستوي من عمل السيئات مع من عمل الصالحات في نعيم الآخرة(١).

وهذا الكلام من ابن عاشور رحمه الله فيه عدد من الفوائد، **ويمكن أن نجملها فيما يلي:**

أولًا: الناحية النظرية لخصائص الجمل القرآنية:

من خلال استعراضنا لما ذكره ابن عاشور عن خصائص الجملة القرآنية نجده قد ألمح إلى عدد من الفوائد الهامة، **ومن ذلك:**

١ - للجمل القرآنية أربع دلالات: ثلاث منها يظهر فيها الإعجاز، وواحدة لا يظهر فيها الإعجاز، وهي الدلالة الوضعية التركيبية التي يشارك القرآن الكريم فيها كل الكلام العربي، ولو لم توجد

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠).

هذه المشاركة في الدلالة الوضعية لما كان القرآن الكريم بلغة العرب.

٢ - دلالات جمل القرآن الكريم على إعجازه تتفاوت، فالدلالة البلاغية في جمل القرآن الكريم أقل في ظهور دلالتها على الإعجاز من الدلالة المطوية، والدلالة المطوية أقل دلالةً على الإعجاز من دلالة مواقع الجمل.

٣ - تتصف أغراض الجملة في كلام العرب بالقصر، وعدم الطول، وذلك لقلة أغراضها، بينما تميزت الجملة القرآنية بالطول لكثرة أغراضها.

ثانيًا: الناحية التطبيقية لخصائص الجمل القرآنية:

ذكر ابن عاشور رحمه الله في أثناء كلامه هنا مثالًا للدلالة الأخيرة من الدلالات الأربع التي ذكرها، وهي دلالة مواقع الجمل، وهو وقوع قول الله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بعد قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ووجه الدلالة أن الآية الثانية لما وقعت بعد الآية الأولى كانت كالدليل على ما تضمنته الآية الأولى من كونه لا يستوي من عمل السيئات مع من عمل الصالحات في نعيم الآخرة، وهذا الذي ذكره ابن عاشور من الدلالة المترتبة على مواقع الجمل هو نوع من المناسبات بين الآيات القرآنية[1].

---

(١) وفي بيان المناسبة بين الآيتين الكريمتين يقول البقاعي رحمه الله: (ولما أنكر التسوية وذمهم على الحكم بها أتبع ذلك الدليل القطعي على أن الفريقين لا يستويان وإلا لما كان الخالق لهذا الوجود عزيزًا ولا حكيمًا)، **انظر**: نظم الدرر (١٨/ ٩١).

وقد أشار المفسِّرون رحمهم الله تعالى إلى هذا المعنى الذي ذكره ابن عاشور، فقال الآلوسي في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: (كأنه دليل على إنكار حسابهم السابق، أو دليل على تساوي محيا كل فريق ومماته، وبيان لحكمته على تقدير كون قوله تعالى: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ استئنافًا، وذلك من حيث أن خلق العالم بالحق المقتضي للعدل يستدعي انتصاف المظلوم من الظالم، والتفاوت بين المسيء والمحسن، وإذا لم يكن في المحيا كان بعد الممات حتمًا)[١].

المَطْلَبُ الْأَوَّلُ

المراد بالإعجاز البلاغي

المسألة الأولى: المراد بالبلاغة:

* البلاغة في اللغة:

ذكر ابن منظور رَحِمَهُ اللَّهُ في لسان العرب في مادة «بَلَغَ» ما يلي: (بَلغَ الشيءُ يَبْلُغُ بُلُوغًا وبَلاغًا وصَلَ وانْتَهَى... والبَلاغةُ: الفَصاحةُ، والبَلْغُ والبِلْغُ: البَلِيغُ من الرجال، ورجل بَلِيغٌ وبِلْغٌ: حَسَنُ الكلام فَصِيحُه، يبلغ بعبارة لسانه كُنْهَ ما في قلبه، والجمعُ: بُلَغاءُ، وقد بَلُغَ بالضم بَلاغةً، أي: صار بَلِيغًا)[٢].

وقال الفيروزآبادي رَحِمَهُ اللَّهُ: (بَلَغَ المكانَ بُلوغًا: وَصَلَ إليه، أو شارَفَ عليه، والغُلامُ: أدْرَكَ، وثَناءٌ أَبْلَغُ: مُبالَغٌ فيه، وشيءٌ بالِغٌ: جَيِّدٌ،

---

(١) روح المعاني (٢٥/ ١٥١)، وقد ذكر أبو السعود قريبًا من هذا المعنى، **انظر**: إرشاد العقل السليم (٨/ ٧٢).

(٢) لسان العرب (٨/ ٤١٩).

وقد بَلَغَ مَبْلَغًا. . . والبَليغُ: الفَصيحُ يَبْلُغُ بِعِبارَتِهِ كُنْهَ ضَميره)[١].

*** البلاغة في الاصطلاح:**

تعدَّدت تعريفات العلماء رحمهم الله تعالى للبلاغة، وكلٌّ يذكر طرفًا مما يندرج تحت البلاغة، ومراعاة المقام في الكلام.

وممَّا قيل في تعريف البلاغة أنها: إصابة المعنى والقصد عند الحجة، وقيل: حُسن العبارة وصحة الدلالة، وقيل: إهداء المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ[٢].

وقد عرَّف العلماء المتأخرون البلاغة بقولهم: البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحة عباراته[٣].

وبمثل هذا التعريف عرَّف ابن عاشور البلاغة، **فقال** رَحِمَهُ اللَّهُ: (والبلاغة هي المطابقة لمقتضى الحال والمقام)[٤].

ومن خلال تعريف ابن عاشور للبلاغة يتبيّن ما يلي:

١ - **الحال أو المقام**: وهو الأمر الذي يدعو المتكلم إلى إيراد خصوصية في التركيب، فمثلًا الوعظ حال ومقام يقتضي الإطناب والبسط.

٢ - **المقتضى**: وهو الصورة المخصوصة التي تورد عليها العبارة، فمثلًا الإطناب والبسط من صور إيراد العبارات.

٣ - **مقتضى الحال**: وهو ما يستلزمه مقام الكلام وأحوال المخاطب من

---

(١) القاموس المحيط (ص١٠٠٧).

(٢) هذه التعريفات هي بعض ما ذكره العلماء في تعريف البلاغة، **انظر**: علوم البلاغة (ص٤١)، جواهر البلاغة (ص٣١ - ٣٢)، من بلاغة النظم العربي (٥٨ - ٥٩).

(٣) **انظر**: علوم البلاغة (ص٣٥)، جواهر البلاغة (ص٢٩).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ١٥٩).

التكلم على وجه مخصوص، فمثلًا إيراد الكلام على صورة الإطناب هو مقتضى حال الوعظ[١].

المسألة الثانية: المراد بالإعجاز البلاغي:

من خلال تعريف البلاغة في اللغة والاصطلاح تتبين العلاقة بين هذا المعنى وبين الإعجاز البلاغي، وقد لاحظ العلماء رحمهم الله تعالى هذه العلاقة، فجعل كثير منهم بلاغة القرآن الكريم هي وجه إعجازه[٢]، وقد قسم الرماني البلاغة إلى ثلاثة أقسام، وجعل أعلاها هو المعجز، وهو بلاغة القرآن الكريم[٣]، وقد ذكر الخطابي قريبًا من هذا التقسيم[٤].

وإذا نظرنا فيما ذكر الرماني والخطابي رحمهما الله تعالى، فإنه يظهر من صنيعهما أنهما أرادا وضع تعريف وضابط للإعجاز البلاغي، وإنما لم يكن التعريف واضحًا لعدم استقرار مصطلح البلاغة في عصرهما، وأما بعد استقرار مصطلح البلاغة، وتحديد المراد به، فإن الإعجاز البلاغي يمكن أن يعرف بأنه: الغاية التي يعجز عنها البشر في مطابقة الخطاب لمقتضى الحال والمقام، وعليه يكون الإعجاز البلاغي نوعًا من الإعجاز اللغوي[٥].

---

(١) **انظر**: علوم البلاغة (ص٣٦)، جواهر البلاغة (ص٢٩).

(٢) **انظر**: القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢٤).

(٣) **انظر**: النكت في إعجاز القرآن (ص٧٥).

(٤) **انظر**: القول في بيان إعجاز القرآن (ص٢٦).

(٥) وما يوهم خلاف هذا من صنيع أهل العلم رحمهم الله تعالى يحمل - والله تعالى أعلم - على عدم استقرار مصطلح البلاغة بحيث يجعل بعض العلماء هذا المصطلح شاملًا للإعجاز اللغوي بأنواعه.

المطلب الثاني

أهمية مراعاة المقام في الإعجاز البلاغي

من أراد أن يخاطب الناس لا بد أن يكون على معرفة بأحوالهم، وبيئاتهم المختلفة، وأن يكون على إلمام كامل، ومعرفة شاملة للغة التي سيستخدمها، وأن يضمِّن كلامه من الأساليب ما يجعل الناظر يرى فيه جديدًا في كل عصر.

وليس بوسع أي إنسان فعل ذلك؛ لأنه محدود بحدود معينة في معرفته بالأحوال، واللغة، وغيرها، ولذا فإن مراعاة المقام فيه قاصرة على المناسبة التي قيلت فيه.

أما ما يتعلق بكلام الله تعالى، فإن مراعاة المقام فيه هي على أتم الوجوه، وأكملها، **ومراعاة مقتضى الحال ومقام الكلام في القرآن الكريم تتضح في حالتين:**

الأولى: حال نزول القرآن الكريم، وهذه الحال قد انقضت، وكانت مراعاة الحال فيها ظاهرة أشد الظهور في آيات القرآن الكريم، وكتب أسباب النزول شاهد واضح على ذلك، فمن خلالها تظهر مراعاة كثير من الآيات للمقام ومقتضى الحال.

الثانية: ما بعد عصر النزول إلى قيام الساعة، وقد راعى القرآن الكريم الأحوال والحاجات الأساسية في الدين والدنيا، وهذا نوع من مراعاة مقتضى الحال والمقام[1].

وقد تعرض ابن عاشور رحمه الله للكلام عن مراعاة المقام في القرآن الكريم،

---

(١) **انظر**: مراعاة مقتضى الحال (ص٢٣).

وأثرها في بيان إعجاز القرآن الكريم، **وفي ذلك يقول** رَحِمَهُ اللهُ: (ومما يجب التنبيه له أن مراعاة المقام في أن ينظم الكلام على خصوصيات بلاغية هي مراعاة من مقومات بلاغة الكلام، وخاصة في إعجاز القرآن، فقد تشتمل آية من القرآن على خصوصيات تتساءل نفس المفسر عن دواعيها وما يقتضيها، فيتصدى لتطلُّب مقتضيات لها ربما جاء بها متكلِّفة أو مغصوبة، ذلك لأنه لم يلتفت إلا إلى مواقع ألفاظ الآية، في حال أن مقتضياتها في الواقع منوطة بالمقامات التي نزلت فيها الآية.

مثال ذلك قوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]، ثم قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، فقد يخفى مقتضى اجتلاب حرف التنبيه في افتتاح كلتا الجملتين، فيأوي المفسر إلى تطلب مقتضاه، ويأتي بمقتضيات عامة مثل أن يقول: التنبيه للاهتمام بالخبر[1]، ولكن إذا قدرنا أن الآيتين نزلتا بمسمع من المنافقين والمؤمنين جميعًا علمنا أن اختلاف حرف التنبيه في الأولى لمراعاة إيقاظ فريقي المنافقين والمؤمنين جميعًا، فالأولون لأنهم يتظاهرون بأنهم ليسوا من حزب الشيطان في نظر المؤمنين، إذ هم يتظاهرون بالإسلام، فكأن الله يقول قد عرفنا دخائلكم، وثاني الفريقين وهم المؤمنون نبِّهوا لأنهم غافلون عن دخائل الآخرين، فكأنه يقول لهم تيقظوا فإن الذين يتولون أعداءكم هم أيضًا عدوٌّ لكم؛ لأنهم حزب الشيطان، والشيطان عدو الله وعدو الله عدو لكم!

---

(١) وممن جعل حرف التنبيه للاهتمام، وتأكيد الخبر أبو السعود، وفي ذلك يقول: (وفي تصدير الجملة بحرفي التنبيه والتحقيق، وإظهار المضافين معًا في موقع الإضمار بأحد الوجهين، وتوسيط ضمير الفصل، من فنون التأكيد ما لا يخفى)، **انظر**: إرشاد العقل السليم (٨/ ٢٢٣).

واجتلاب حرف التنبيه في الآية الثانية لتنبيه المنافقين إلى فضيلة المسلمين لعلهم يرغبون فيها فيرعوون عن النفاق، وتنبيه المسلمين إلى أن حولهم فريقًا ليسوا من حزب الله فليسوا بمفلحين ليتوسموا أحوالهم حق التوسم فيحذروهم)(١).

المَطْلَبُ ٱلثَّالِثُ

من جهود العلماء في بيان الإعجاز البلاغي

المسألة الأولى: الموازنة بين بلاغة القرآن وأبلغ ما حفظ عن العرب:

وازن العلماء رحمهم الله تعالى بين أبلغ ما ورد من كلام العرب نثرًا وشعرًا، وبين بلاغة القرآن الكريم، ولم يكن مرادهم من تلك الموازنة إلا إظهار فضل البلاغة القرآنية، والدعوة إلى هذا الدين من خلال تلك الموازنة.

ولتبيين هذا الأمر يقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فلقد كان منتهى التنافس عند العرب بمقدار التفوق في البلاغة والفصاحة، وقد وصف أئمة البلاغة والأدب هذين الأمرين بما دوِّن له عِلْمَا المعاني والبيان، وتصدوا في خلال ذلك للموازنة بين ما ورد في القرآن من ضروب البلاغة، وبين أبلغ ما حفظ عن العرب من ذلك مما عُدَّ في أقصى درجاتها.

وقد تصدَّى أمثال أبي بكر الباقلاني وأبي هلال العسكري وعبد القاهر والسكاكي(٢) وابن الأثير(٣) إلى الموازنة بين ما ورد في

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١١١).

(٢) **السكاكي**: سراج الدين أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد الخوارزمي السكاكي، ولد سنة ٥٥٥هـ، وتوفي سنة ٦٢٦هـ، **انظر**: بغية الوعاة (٢/ ٣٦٤)، الفوائد البهية (ص٢٣١).

(٣) **ابن الأثير**: أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد الشيباني =

القرآن وبين ما بلغ في بليغ كلام العرب من بعض فنون البلاغة بما فيه مقنع للمتأمل، ومثل للمتمثل)[1].

وفي هذا الكلام يشير ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ إلى بعض العلماء ممن اعتنى بالموازنة بين بليغ كلام العرب، وبين بلاغة القرآن الكريم، **ومن هؤلاء العلماء:**

١ ـ القاضي أبو بكر الباقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد وازن بين بعض النصوص من كلام بلغاء العرب، وبين آيات من القرآن الكريم، ومن موازناته موازنته بين كلام النبي ﷺ، وبين آيات القرآن الكريم، وقال لما انتهى من ذكر بعض الأحاديث: (ولا أطول عليك وأقتصر على ما ألقيته إليك، فإن كان لك في الصنعة حظ، أو كان لك في هذا المعنى حس، أو كنت تضرب في الأدب بسهم، أو في العربية بقسط ـ وإن قلَّ ذلك السهم أو نقص ذلك النصيب ـ فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول ﷺ في خطبه ورسائله، وما عساك تسمعه من كلامه، ويتساقط إليك من ألفاظه، وأقدر أنك ترى بين الكلامين بونًا بعيدًا وأمدًا مديدًا وميدانًا واسعًا ومكانًا شاسعًا)[2].

٢ ـ أبو هلال العسكري رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد وازن بين بليغ كلام العرب، وبين آيات من القرآن الكريم، ومن ذلك قوله: (والتشبيه بعد ذلك في جميع الكلام يجري في وجوه، منها تشبيه الشيء بالشيء صورة، مثل

= المعروف بابن الأثير الجزري، ولد سنة ٥٥٨هـ، وتوفي سنة ٦٣٧هـ، **انظر:** سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٧٢)، الوافي (٢٧/ ٢٤).

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٦).

(٢) إعجاز القرآن (ص٩٤ ـ ٩٥).

قول الله ﷻ: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩]، أخذه ابن الرومي[١] **فقال في ذم الدهر**[٢]:

تَأْتِي عَلَى القَمَرِ السَّارِي نَوَائِبُهُ … حَتَّى يُرَى نَاحِلًا فِي شَخْصِ عُرْجُونِ[٣]

٣ ـ **عبد القاهر الجرجاني** رحمه الله، ومن موازنته بين ما ورد من بليغ شعر العرب، وبين بلاغة القرآن الكريم فيما يتعلق بفوائد تقديم الفاعل، وفي ذلك يقول: (ومثله في الوضوح **قوله**:

هُمَا يَلْبَسَانِ المَجْدَ أَحْسَنَ لِبْسَةٍ … شَحِيحَانِ مَا اسْطَاعَا عَلَيْهِ كِلَاهُمَا[٤]

لا شبهة في أنه لم يرد أن يقصر هذه الصفة عليهما، ولكن نبه لهما قبل الحديث عنهما، وأبين من الجميع قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٦١])[٥].

٤ ـ **السكاكي** رحمه الله، ومن موازنته قوله: (والعلم في الإيجاز قوله علت كلمته: ﴿فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ وإصابته المَحَزَّ بفضله على ما كان عندهم أوجز كلام في هذا المعنى، وذلك قولهم: القتل أنفى للقتل)[٦].

٥ ـ **ابن الأثير** رحمه الله، ومما قاله في ذلك: (قوله تعالى:

---

(١) **ابن الرومي**: علي بن العباس بن جريج أبو الحسن، ولد سنة ٢٢١هـ، وتوفي سنة ٢٨٣هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٤٩٥)، البداية والنهاية (١١/ ٨٢).

(٢) **انظر**: ديوان ابن الرومي (٦/ ٢٤٦٥). (٣) كتاب الصناعتين (ص٢٦٧).

(٤) الشعر لعمرة الخثعمية، ترثي ابنها، وقال أبو رياش: هو: للدرماء بنت سيار بن عبعبة الخثعمية، **انظر**: شرح الحماسة (٣/ ٦٠ ـ ٦٤)، أفاده محقق دلائل الإعجاز (ص١٣١).

(٥) **انظر**: دلائل الإعجاز (ص١٣١). (٦) مفتاح العلوم (ص٢٧٧).

﴿ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ لا يمكن التعبير عنه إلا بألفاظ كثيرة؛ لأن معناه أنه إذا قتل القاتل امتنع غيره عن القتل، فأوجب ذلك حياة للناس، ولا يلتفت إلى ما ورد عن العرب من قولهم: القتل أنفى للقتل)[١].

✧ المسألة الثانية: تأليف علم البلاغة تقريبًا لقواعد الإعجاز:

دَوَّنَ العلماء رحمهم الله تعالى علم البلاغة لتبيين فضل كلام الله تعالى على سائر الكلام، وقديمًا قال القزويني[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ذلك: (فلما كان علم البلاغة، وتوابعها من أجلِّ العلوم قدرًا وأدقها سرًّا، إذ به تعرف دقائق العربية وأسرارها، ويكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستارها)[٣].

وقال التفتازاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فضل علم البلاغة: (به يعرف أن القرآن معجز لكونه في أعلى مراتب البلاغة لاشتماله على الدقائق والأسرار الخارجة عن طوق البشر... فيكون من أجلِّ العلوم لكون معلومه وغايته من أجلِّ المعلومات والغايات)[٤].

وبيَّن ابن عاشور أن إعجاز القرآن البلاغي كان سببًا لتأليف علم البلاغة، **وفي ذلك يقول** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والأول[٥] هو الوجه الذي اعتمده أبو بكر الباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن»، وأبطل ما عداه بما لا حاجة

---

(١) المثل السائر (٢/٣٣٨ ـ ٣٣٩).

(٢) **القزويني**: جلال الدين محمد بن عبد الرحمٰن القزويني المعروف بخطيب دمشق، ولد سنة ٦٦٦هـ، وتوفي سنة ٧٣٩هـ، **انظر**: البداية والنهاية (١٤/٦٠٧)، بغية الوعاة (١/١٥٦).

(٣) التلخيص (ص٢٢).

(٤) مختصر التفتازاني (١/٣٩).

(٥) **أي**: القول بأن إعجاز القرآن الكريم هو لبلاغته، وفصاحته، وحسن نظمه، **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٣٠).

إلى التطويل به[١]، وعلى اعتباره دون أئمة العرب علم البلاغة، وقصدوا من ذلك تقريب إعجاز القرآن على التفصيل دون الإجمال، فجاءوا بما يناسب الكامل من دلائل الكمال)[٢].

المطلب الرابع

من أنواع الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم

المسألة الأولى: من أنواع الإعجاز البلاغي الراجعة إلى علم المعاني:

١ ـ التقديم، والتأخير:

إن من الأساليب البلاغية التي لها أثر واضح في الكشف عن دقائق المعاني، وتجلية المستور منها وراء الألفاظ أسلوب التقديم والتأخير، وذلك أن (القرآن الكريم دقيق في وضع الألفاظ ورصفها بجنب بعض دقة عجيبة، فقد تكون له خطوط عامة في التقديم والتأخير، وقد تكون هناك مواطن تقتضي تقديم هذه اللفظة أو تلك، كل ذلك مراعًى فيه سياق الكلام والاتساق العام في التعبير على أكمل وجه وأبهى صورة)[٣].

ولهذه المكانة للتقديم والتأخير أوضح العلماء رحمهم الله تعالى أثره في بيان إعجاز القرآن، فهذا الجرجاني يعقد في كتابه «دلائل الإعجاز» عددًا من الفصول التي لها صلة بالتقديم والتأخير[٤].

وهذا ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ **يقول:** (وإن للتقديم والتأخير في وضع

(١) من ذلك إبطاله أن يكون البديع وحده وجهًا لإعجاز القرآن، **انظر**: إعجاز القرآن (ص٧٨).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٣٠).

(٣) التعبير القرآني (ص٥٣).

(٤) **انظر**: دلائل الإعجاز (ص١٠٦ ـ ١٤٢).

الجمل وأجزائها في القرآن دقائق عجيبة كثيرة لا يحاط بها وسننبه على ما يلوح منها في مواضعه إن شاء الله[١]، وإليك مثلًا من ذلك يكون لك عونًا على استجلاء أمثاله.

قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢] إلى قوله: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ [النبأ: ٣١، ٣٢] إلى قوله: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣٤، ٣٥] فكان للابتداء بذكر جهنم ما يفسر المفاز في قوله (إن للمتقين مفازًا) أنه الجنة؛ لأن الجنة مكان فوز.

ثم كان قوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ ما يحتمل لضمير «فيها» من قوله: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا﴾ أن يعود إلى ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ وتكون «في» للظرفية المجازية أي الملابسة، أو السببية؛ **أي**: لا يسمعون في ملابسة شرب الكأس ما يعتري شاربيها في الدنيا من اللغو واللجاج، وأن يعود إلى ﴿مَفَازًا﴾ بتأويله باسم مؤنث وهو الجنة، وتكون «في» للظرفية الحقيقية؛ **أي**: لا يسمعون في الجنة كلامًا لا فائدة فيه ولا كلامًا مؤذيًا.

وهذه المعاني لا يتأتى جميعها إلا بجمل كثيرة لو لم يقدم ذكر جهنم ولم يعقب بكلمة ﴿مَفَازًا﴾ ولم يؤخر ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ ولم يعقب بجملة ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾... إلخ)[٢].

وفي كلام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ إشارات لطيفة، ومن أهم ذلك:

أولًا: أن للتقديم والتأخير في وضع الجمل وأجزائها في القرآن دقائق عجيبة كثيرة لا يحاط بها، وذلك أن الألفاظ في القرآن الكريم

(١) انظر على سبيل المثال: التحرير والتنوير (١٣/ ١٢٣)، (١٧/ ١٥٨)، (٢٠/ ١٤٦).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ١١٠ ـ ١١١).

تقدم وتؤخر حسبما يقتضيه المقام، **وللمقام الذي يرد فيه التقديم والتأخير في القرآن الكريم أحوال منها:**

١ ـ التقديم حسب القدم والأولية في الوجود، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومنه تقديم عاد على ثمود، وتقديم القوة على العزة.

٢ ـ التقديم حسب الفضل والشرف، ومثاله قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

٣ ـ التقديم حسب الكثرة والقلة، **وله حالتان:**

- **التدرج من القلة إلى الكثرة إذا اقتضى المقام ذلك**، نحو قوله تعالى: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، ولهذا التدرج سبب اقتضاه المقام، وهو أن الكلام على بيت الله تعالى، والطائفون هم ألصق المذكورين بالبيت.

- **التدرج من الكثرة إلى القلة**، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [فاطر: ٣٢]، وقد قال الزمخشري في بيان فائدة التقديم هنا: (فإن قلت: لِمَ قدَّم الظالم؟ ثم المقتصد ثم السابق؟ قلت: للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتهم، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم، والسابقون أقل من القليل)[1].

---

(١) الكشاف (٣/ ٦٣٥)، وهناك أسباب كثيرة للتقديم والتأخير أوصلها بعضهم إلى عشرين سببًا، وليس هذا مقام سردها كاملة، **انظر**: البرهان (٣/ ٢٣٣)، الإتقان (٣/ ٣٥ ـ ٤١)، التعبير القرآني (ص٥٣ ـ ٥٩).

ثانيًا: مثالٌ يبين فوائد التقديم والتأخير:

مثَّل ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ للتقديم والتأخير بتقديم قوله تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢] على قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ [النبأ: ٣١، ٣٢]، وبتقديم قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ على قوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣٤، ٣٥].

وفائدة التقديم الأول تفسير المفاز بأنه الجنة، وفائدة التقديم الثاني التعبير عن المعاني الكثيرة بجمل قليلة.

وبيان ذلك أن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ [النبأ: ٣١، ٣٢] بعد ذكر جهنم في الآية الكريمة قبلها ما يدل على أن المراد بالمفاز هنا مكان الفوز وهو الجنة من باب مقابلة جزاء المتقين بجزاء الطاغين[1]، وفي هذا النوع من التقديم تفسير للآية الكريمة بعده، وهي فائدة من فوائد التقديم والتأخير.

وفي تقديم قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ: ٣١] على قوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣٤، ٣٥] فائدة أخرى من فوائد التقديم والتأخير، وهي التعبير عن المعاني الكثيرة بجمل قليلة.

---

(١) وفي كون المفاز مكان الفوز أو الفوز نفسه خلاف بين المفسرين، ولعل الأقرب كونه مكان الفوز، وذلك لدلالة السياق عليه، وهو قوله تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾، وقد اختار ابن كثير هذا القول مرجحًا له بدلالة السياق، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: (يقول تعالى مخبرًا عن السعداء وما أعد لهم تعالى من الكرامة والنعيم المقيم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قال ابن عباس والضحاك: متنزهًا، وقال مجاهد وقتادة: فازوا فنجوا من النار، والأظهر ههنا قول ابن عباس لأنه قال بعده ﴿حَدَآئِقَ﴾ والحدائق البساتين من النخيل وغيرها)، ومما يدل على أن المراد بالمفاز في الآية الكريمة مكان الفوز التقديم بذكر مكان العذاب، وهو جهنم، **انظر**: تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٠٨)، الجامع لأحكام القرآن (١٩/ ١٦١).

وبيانه أن ضمير (فيها) يحتمل عوده على المفاز، والمراد: لا يسمع أهل الجنة فيها ما لا فائدة فيه من اللغو والتكذيب، ويحتمل عوده على الكأس، ويكون المراد: لا يسمع أهل الجنة حال شربهم هذه الكأس ما يسمعه أهل الدنيا من اللغو[١]، ولو لم يتأخر الضمير ويتقدم ذكر المفاز والكأس في الآيات قبله لم يكن التعبير عن هذه المعاني الكثيرة بهذه الألفاظ القليلة يسيرًا، والله تعالى أعلم.

٢ ـ الالتفات:

وصف ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ الالتفات بأنه خلاصة علم البيان التي حولها يدندن، وعليها تستند البلاغة وعنها يُعَنعن، وهذا لأهمية الالتفات في إظهار بلاغة الكلام عمومًا، وفي إظهار بلاغة أشرف الكلام خصوصًا، وقد نبه ابن عاشور على أهمية الالتفات **حيث قال** رَحِمَهُ اللَّهُ: (نرى من أفانين الكلام الالتفات، وهو نقل الكلام من أحد طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة إلى طريق آخر منها[٢].

وهو بمجرده معدود من الفصاحة، وسمَّاه ابن جني[٣] شجاعة العربية[٤]، لأن ذلك التغيير يجدد نشاط السامع، فإذا انضم إليه اعتبار

---

(١) وقد رجَّح بعض المفسِّرين عود الضمير على المعنى الأول، وهو الجنة، والمراد لا يسمعون في الجنة لغوًا ولا كذابًا، وذلك لأن الآيات القرآنية في المواضع الأخرى قد بينت المراد هنا، وذلك كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ [الواقعة: ٢٥]، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن، ومن جانب آخر أن تفسير الضمير بالجنة فيه حملٌ لحرف «في» على المعنى الحقيقي للظرفية، وتفسيره بالكأس فيه حملٌ على المعنى المجازي للظرفية، والحمل على الحقيقة مقدم إذا أمكن، **انظر**: جامع البيان (٢٤/ ٤٢)، تفسير القرآن العظيم (٨/ ٣٠٨).

(٢) **انظر**: البرهان (٣/ ٣١٤)، عروس الأفراح (١/ ٣٧٣).

(٣) **ابن جني**: أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، ولد قبل ٣٣٠هـ، وتوفي سنة ٣٩٢هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٧/ ١٧)، بغية الوعاة (٢/ ١٣٢).

(٤) الذي وقفت عليه من كلام ابن جني رَحِمَهُ اللَّهُ أن شجاعة العربية هي: الحذف والزيادة، =

لطيف يناسب الانتقال إلى ما انتقل إليه صار من أفانين البلاغة، وكان معدودًا عند بلغاء العرب من النفائس، وقد جاء منه في القرآن ما لا يحصى كثرة مع دقة المناسبة في الانتقال)[(١)].

وفي موضع آخر قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكذلك الإكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية، فهو في القرآن كثير ثم الرجوع إلى المقصود، فيكون السامعون في نشاط متجدد بسماعه وإقبالهم عليه)[(٢)].

وفيما ذكره ابن عاشور في النقول السابقة ما يمكن أن يعلق عليه فيما يلي:

١ - يعرِّف ابن عاشور الالتفات بما يتفق مع تعريف جمهور علماء البلاغة، وفي بيان خلاف علماء البلاغة في ضابط الالتفات **يقول**: (وفي ضابط أسلوب الالتفات **رأيان لأئمة علم البلاغة:**

أحدهما: رأي من عدا السكاكي من أئمة البلاغة وهو أن المتكلم بعد أن يعبر عن ذات بأحد طرق ثلاثة من تكلم أو غيبة أو خطاب ينتقل في كلامه ذلك فيعبر عن تلك الذات بطريق آخر من تلك الثلاثة.

وخالفهم السكاكي فجعل مسمَّى الالتفات: أن يعبر عن ذات بطريق من طرق التكلم أو الخطاب أو الغيبة عادلًا عن أحدهما الذي هو

= والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى والتحريف، وقد عزا السيوطي هذه التسمية لابن جني، أما الالتفات فممَّن سمَّاه شجاعة العربية ابن الأثير، **انظر**: الخصائص (٢/ ٣٦٠)، المثل السائر (٢/ ١٦٨)، معترك الأقران (١/ ٢٣٤).

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٩).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١١٦).

الحقيق بالتعبير في ذلك الكلام إلى طريق آخر منها)[١].

٢ ـ بيَّن ابن عاشور فائدة الالتفات، وأهميته في تجديد نشاط السامع، وقد زاد رحمه الله هذا الأمر بيانًا في موضع آخر **بقوله**: (ولأهل البلاغة عناية بالالتفات لأن فيه تجديد أسلوب التعبير عن المعنى بعينه تحاشيًا من تكرر الأسلوب الواحد عدة مرار فيحصل بتجديد الأسلوب تجديد نشاط السامع كي لا يمل من إعادة أسلوب بعينه.

قال السكاكي في المفتاح بعد أن ذكر أن العرب يستكثرون من الالتفات: «أفتراهم يحسنون قرى الأشباح، فيخالفون بين لون ولون وطعم وطعم، ولا يحسنون قرى الأرواح فيخالفون بين أسلوب وأسلوب»[٢]، فهذه فائدة مطردة في الالتفات، ثم إن البلغاء لا يقتصرون عليها غالبًا بل يراعون للالتفات لطائف ومناسبات)[٣].

٣ ـ الإيجاز والإطناب:

يعتبر باب الإيجاز والإطناب من أهم أبواب البلاغة، وأدقها حتى عُرِّفت البلاغة بأنها هي الإطناب والإيجاز[٤].

والأصل في الكلام أن يكون على قدر المعاني المراد التعبير عنها ويعبر عن هذه الحالة بالمساواة، ولكن ربما زاد الكلام عن المعنى المراد التعبير عنه لنكتة يقتضيها المقام وهو المعبر عنه بالإطناب، وربما نقص الكلام عن المعنى عن المراد التعبير عنه لنكتة يقتضيها المقام كذلك وهو المعبر عنه بالإيجاز[٥]، ووضع الإطناب موضع الإيجاز ينافي البلاغة في الكلام، وهكذا العكس.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٧٨).
(٢) **انظر**: مفتاح العلوم (ص١٩٩).
(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٧٩).
(٤) **انظر**: سر الفصاحة (ص١٩٤)، جواهر البلاغة (ص٣٢).
(٥) **انظر**: عروس الأفراح (٢/ ٩٤)، جواهر البلاغة (ص١٩٢).

وقد عرف العرب في كلامهم المساواة والإطناب والإيجاز، غير أن القرآن الكريم جاء بهذه الأساليب البلاغية على أتم أوجه الفصاحة والبيان، ذلك أن العرب مع عنايتهم بمواضع الكلام ربما استخدم أحدهم الإطناب فيما حقه الإيجاز من المعاني، وربما جعل الإيجاز في موضع لا يقوم به إلا الإطناب، أما القرآن الكريم فقد جاوز الغاية التي يبلغها الكلام في العناية بهذا الأمر.

أما مكانة الإيجاز في بلاغة القرآن الكريم، وأنواعه، **فقد بيَّنها ابن عاشور** رحمه الله **بقوله**: (ومن أبدع الأساليب في كلام العرب الإيجاز، وهو متنافسهم، وغاية تتبارى إليها فصحاؤهم، وقد جاء القرآن بأبدعه، إذ كان مع ما فيه من الإيجاز المبين في علم المعاني، فيه إيجاز عظيم آخر، وهو صلوحية معظم آياته لأن تؤخذ منها معان متعددة كلها تصلح لها العبارة باحتمالات لا ينافيها اللفظ، فبعض تلك الاحتمالات مما لا يمكن اجتماعه، وبعضها وإن كان فرض واحد منه يمنع من فرض آخر، فتحريك الأذهان إليه وإخطاره بها يكفي في حصول المقصد من التذكير به للامتثال أو الانتهاء، وقد أشرنا إلى هذا في المقدمة التاسعة[1]).

ولولا إيجاز القرآن لكان أداء ما يتضمَّنه من المعاني في أضعاف مقدار القرآن، وأسرار التنزيل ورموزه في كل باب بالغة من اللطف والخفاء حدًّا يدق عن تفطن العالم ويزيد عن تبصره ولا ينبئك مثل خبير.

إنك تجد في كثير من تراكيب القرآن حذفًا[2]، ولكنك لا تعثر على

---

(١) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ٩٣).

(٢) وهذا الحذف هو قسم من أقسام الإيجاز، وقد أشار العلماء إلى هذا النوع، وبينوا أسبابه، **انظر**: النكت في إعجاز القرآن (ص٧٦)، دلائل الإعجاز (ص١٤٦)، الصناعتين (ص١٩٥).

حذف يخلو الكلام من دليل عليه من لفظ أو سياق، زيادة على جمعه المعاني الكثيرة في الكلام القليل.

قال في الكشاف في سورة المدثر: (الحذف والاختصار هو نهج التنزيل)[١]، قال بعض بطارقة الروم لعمر بن الخطاب لما سمع قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢] قد جمع الله في هذه الآية ما أنزل على عيسى من أحوال الدنيا والآخرة[٢].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: ٧] الآية جمع بين أمرين ونهيين وبشارتين[٣].

ومن ذلك قوله: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩] مقابلًا أوجز كلام عرف عندهم وهو «القتل أنفى للقتل»[٤].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ [هود: ٤٤]، ولقد بسط السكاكي في المفتاح آخر قسم البيان نموذجًا مما اشتملت عليه هذه الآية من البلاغة والفصاحة[٥].

وتصدَّى أبو بكر الباقلاني في كتابه المسمَّى «إعجاز القرآن» إلى بيان ما في سورة النمل من الخصائص[٦] فارجع إليهما.

وأعد من أنواع إيجازه إيجاز الحذف مع عدم الالتباس، وكثر ذلك في حذف القول، ومن أبدع الحذف قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ

---

(١) الكشاف (٤/ ٥٠٣).

(٢) **انظر**: الجامع لأحكام القرآن (١٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧١).

(٣) **انظر**: الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٢٢٥).

(٤) **انظر**: البرهان (٣/ ٢٢٢)، الإتقان (٣/ ١٦٦ ـ ١٦٩).

(٥) **انظر**: المفتاح (ص٤١٧ ـ ٤٢١).

(٦) **انظر**: إعجاز القرآن (ص١٢٣ ـ ١٢٦).

﴿ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٠ ـ ٤٢]؛ **أي**: يتذاكرون شأن المجرمين فيقول من علموا شأنهم سألناهم هم فقلنا ما سلككم في سقر.

قال في الكشاف: قوله: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ ليس ببيان للتساؤل عنهم، وإنما هو حكاية قول المسئولين؛ **أي**: أن المسئولين يقولون للسائلين قلنا لهم: ما سلككم في سقر؟ قالوا: لم نك من المصلين. اهـ[١].

ومنه حذف المضاف كثيرًا كقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وحذف الجمل التي يدل الكلام على تقديرها نحو قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] إذ التقدير: فضرب فانفلق.

ومن ذلك الإخبار عن أمر خاص بخبر يعمه وغيره لتحصل فوائد: فائدة الحكم العام وفائدة الحكم الخاص، وفائدة أن هذا المحكوم عليه بالحكم الخاص هو من جنس ذلك المحكوم عليه بالحكم العام...

ومن بديع الإيجاز في القرآن وأكثره ما يسمَّى بالتضمين، وهو يرجع إلى إيجاز الحذف والتضمين[٢]: أن يضمن الفعل أو الوصف معنى فعل أو وصف آخر، ويشار إلى المعنى المضمن بذكر ما هو من متعلقاته من حرف أو معمول فيحصل في الجملة معنيان....)[٣].

من خلال هذا الكلام الذي ذكره ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإيجاز وأنواعه تتبين الأمور التالية:

١ ـ الإيجاز أسلوب من أساليب العرب التي فيها يتنافسون، وقد

---

(١) الكشاف (٤/ ٥٠٣) بتصرف يسير.

(٢) **انظر**: مغني اللبيب (٦/ ٦٧١)، البرهان (٣/ ٣٣٩)، معترك الأقران (١/ ٢٣٠).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٢١ ـ ١٢٣).

جاء القرآن الكريم بأبدعه، وما يبلغ حد الإعجاز منه، ويظهر الإعجاز في أسلوب الإيجاز من خلال دراسة ما ورد عن العرب من كلمات عبروا فيها عن المعاني بإيجاز، ثم تأمل سائر ما جاء في القرآن الكريم من الإيجاز، (وهذا باب واسع جدًّا... فكل آية في القرآن وراءها آفاق رحبة يقرأ فيها القلب كلامًا غير مذكور يجري بمحاذاة الكلام المذكور، ومراجعة الآيات التي ساقها البلاغيون والنحاة في شواهد الحذف والإيجاز تكشف عمق هذا البحث وثراءه، وبعد هذا تصح المقارنة في الإيجاز بين كلام الله وكلام الناس ويظهر الفرق الفائت لقوى البشر)[١].

٢ ـ ذكر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ أنواعًا متعددة للإيجاز، **ويرد كثير من العلماء أنواع الإيجاز إلى نوعين:**

• **الإيجاز بالقصر**: وهو تضمين المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة من غير حذف[٢]، (وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير)[٣]، ومما ذكره ابن عاشور مما يمكن عده من أنواع إيجاز القصر:

• **القصد في اللفظ، والوفاء بالمعنى**: وهذا الأمر يتضح من خلال الأمثلة التي ساقها ابن عاشور من آيات قليلة الألفاظ جامعة للمعاني الكثيرة، ويمكن الوقوف عند إحدى هذه الآيات التي ذكرها ابن عاشور، وهي قول الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ [هود: ٤٤].

وقد أطال السكاكي الحديث عن هذه الآية، وقسّم الحديث عنها مطبقًا عليها قواعد علم البلاغة بأقسامه الثلاثة المعاني والبيان والبديع، **ومما ذكره السكاكي مما له تعلق بالإيجاز في الآية الكريمة:**

---

(١) الإعجاز البلاغي (ص٩٧ ـ ٩٨).
(٢) انظر: جواهر البلاغة (ص١٩٤).
(٣) النكت في إعجاز القرآن (ص٧٧).

أولًا: أن من أسباب اختيار (ابلعي) على ابتلعي هو لكونها أخصر.

ثانيًا: أنه لم يُقَلْ في الآية الكريمة ابلعي ماءك فبلعت، ومن أسباب ذلك مراعاة الإيجاز.

ثالثًا: أنه لِمَ قِيلَ (بعدًا) ولم يُقَلْ: ليبعدوا بعدًا، ومن أسباب ذلك مراعاة الإيجاز[(١)].

وجاء بعده العلماء رحمهم الله تعالى، وأضافوا على ما ذكره من لطائف في الآية الكريمة[(٢)]، ومما يتصل بما في هذه الآية الكريمة من الإيجاز ما ذكره السيوطي حيث قال: (قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ أَمَرَ فيها ونهى، وأخبر ونادى، ونعت وسمى، وأهلك وأبقى، وأسعد وأشقى، وقص من الأنباء ما لو شُرِحَ ما اندرج في هذه الجملة من بديع اللفظ والبلاغة والإيجاز والبيان لجفت الأقلام...)[(٣)].

• الإخبار عن أمر خاص بخبر يعمه وغيره، وهو ما يعرف عند العلماء بالعام الوارد على سبب خاص، ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

---

(١) **انظر**: مفتاح العلوم (ص٤١٧ ـ ٤٢٢).

(٢) ومن هؤلاء العلماء الذين كتبوا في هذه الآية الكريمة شمس الدين الجزري، وقد قصد جمع وجوه أخر غير ما ذكره السكاكي، وممن كتب في الآية الكريمة رسالة مستقلة السيوطي، وقوام الدين الشيرازي، **انظر**: معترك الأقران (١/ ٢٢٥) كشف الظنون (١/ ٩٠١)، هداية العارفين (٢/ ٥٦٣).

(٣) معترك الأقران (١/ ٢٢٥).

يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: (و﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ﴾ موصول، فيجوز حمله على العهد: أي ما خلق من الحيض بقرينة السياق، ويجوز حمله على معنى المعرف بلام الجنس فيعم الحيض والحمل، وهو الظاهر وهو من العام الوارد على سبب خاص)(١).

• **الإيجاز بالحذف**: وهو حذف شيء من العبارة لا يخل بالفهم، عند وجود ما يدل على المحذوف، من قرينة لفظية، أو معنوية(٢).

وفي بيان بلاغته يقول الجرجاني: (هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر شبيه بالسحرِ، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكرِ، والصمت عن الإفادة، أزيد للإفادةِ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تبن)(٣).

ومما ذكره ابن عاشور مما يمكن عده من أنواع الإيجاز بالحذف:

• **حذف القول:**

وقد مثل له ابن عاشور بالآية الكريمة: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، وهذه الآية الكريمة المحذوف فيها تقديره: ﴿قَالُواْ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٣٩٢).

(٢) **انظر**: جواهر البلاغة (ص١٩٥).

(٣) دلائل الإعجاز (ص١٤٦)، ونقله ابن الأثير بلفظه مع تصرف يسير، **انظر**: المثل السائر (٢/ ٢٦٨).

(٤) وفي قائل هذا السؤال خلافٌ بين المفسرين، فمن قائل: هو تساؤل بين المؤمنين فريقٌ يسأل والآخر يجيب قائلًا: سألناهم ما سلككم في سقر قالوا...، وبهذا قال الزمخشري، ويشير إليه كلام ابن عاشور في تعليقه على دلالة هذه الآية الكريمة على إيجاز الحذف، ومن المفسرين من جعل هذا السؤال من المجرمين أنفسهم، يسأل بعضهم بعضًا عن ذلك، ومن المفسرين من جعله سؤالًا من المؤمنين للمجرمين، =

• **حذف المضاف:**

وقد مثَّل ابن عاشور لذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وذلك أن تقدير المعنى: أي بر من آمن أو ولكن ذو البر من آمن(١).

• **حذف الجمل:**

ومثَّل له ابن عاشور بقول الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] إذ التقدير: فضرب فانفلق(٢).

ومِثْلُ هذا النوع من حذف الجمل يسميه ابن الأثير: الاكتفاء بالمسبب عن السبب(٣)، وذلك أن المسبب هنا هو: الانفلاق، والسبب هو: الضرب.

• **التضمين**: وإنما كان من الإيجاز لأن فائدته أن تؤدي كلمة مؤدى كلمتين، وفي هذا نوع إيجاز(٤).

= وليس هذا مقام الترجيح بين هذه الأقوال، وإنما المراد بيان أن في الآية الكريمة إيجازًا بحذف القول على جميع هذه الأقوال، والله تعالى أعلم، **انظر**: الكشاف (٤/ ٥٠٣)، مدارك التنزيل (٣/ ٥٦٨)، التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٢٥ ـ ٣٢٦).

(١) وفي بيان أولى التقديرات في مثل هذه الآية الكريمة يقول ابن الأثير: (ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾؛ **أي**: خصلة من اتقى، وإن شئت كان تقديره: ولكن ذا البر من اتقى، والأولى أولى؛ لأن حذف المضاف ضرب من الاتساع، والخبر أولى بذلك من المبتدأ؛ لأن الاتساع بحذف الأعجاز أولى منه بحذف الصدور). **انظر**: المثل السائر (٢/ ٢٩٦)، التحرير والتنوير (٢/ ١٢٩).

(٢) وقد ذكر هذا التقدير عدد من العلماء، ومنهم البيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، **انظر**: أنوار التنزيل (ص٤٨٩)، مدارك التنزيل (٢/ ٥٦٥)، إرشاد العقل السليم (٦/ ٢٤٥).

(٣) **انظر**: المثل السائر (٢/ ٢٧٥).

(٤) **انظر**: مغني اللبيب (٦/ ٦٧١)، معترك الأقران (١/ ٢٣٠).

وقد مثَّل ابن عاشور للتضمين بأمثلة عديدة، ومنها ما ذكره عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، **حيث يقول** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والاستباق افتعال والمراد به السبق وحقه التعدية باللام، إلا أنه توسع فيه فعدى بنفسه كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥] أو على تضمين استبقوا معنى اغتنموا، فالمراد من الاستباق هنا المعنى المجازي وهو الحرص على مصادفة الخير والإكثار منه)[١].

وأما بيان موقع الإطناب من البلاغة القرآنية **فقد قال ابن عاشور**: (وسلك القرآن مسلك الإطناب لأغراض من البلاغة، ومن أهم مقامات الإطناب مقام توصيف الأحوال التي يراد بتفصيل وصفها إدخال الروع في قلب السامع، وهذه طريقة عربية في مثل هذا **كقول ابن زيابة**[٢]:

نُبِّئْتُ عَمْرًا غَارِزًا رَأْسَهُ ... فِي سِنَةٍ يُوعِدُ أَخْوَالَهُ[٣]

فمن آيات القرآن في مثله قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٢٩]، وقوله: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٣، ٨٤] وقوله: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٣])[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (٢/ ٤٣).

(٢) **ابن زيابة**: عمرو بن الحارث بن همام التيمي، وقيل: سلمة بن ذهل، شاعر جاهلي وزيابة اسم أمه، **انظر**: سمط اللآلي (١/ ٥٠٤).

(٣) معنى البيت: غرز الرأس كناية عن الجهل والذهاب عما له وعليه من التحفظ، والسِّنَة: أول النوم، يقول: هذا الرجل كأنه وسنان قد تغير عقله، فهو يوعد من لا يجب أن يوعده، وهذا كما يقال للرجل إذا أخطأ: أنت نائم، **انظر**: شرح الحماسة (١/ ١٤٢).

(٤) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٢٣).

أما كلام ابن عاشور على مقامات الإطناب، وبيانه لمقام من مقاماته، وهو مقام توصيف الأحوال، فذلك أمرٌ قد أشار العلماء إليه، كما أشاروا إلى بعض مقامات الإطناب الأخرى، **فمن ذلك**:

١ ـ بطلان عبادة المشركين، وتقرير التوحيد، وثواب أهله، وعقاب مخالفيه.

٢ ـ آيات الأحكام، وذلك لأنها تتعرض لما يكلف الله تعالى به عباده، ولا بد أن يكون ذلك واضحًا للمكلف، ومثال ذلك قوله تعالى في تحريم الخمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُواْ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٠ ـ ٩٣].

٣ ـ القصص القرآني، وذلك لما فيه من مواضع للعبرة والتسلية للنبي ﷺ.

٤ ـ توجيه النظر إلى الكون وما فيه من خلق السماوات والأرض وما بينهما.

٥ ـ مناقشة أهل الكتاب، والرد عليهم، وبيان مخالفتهم لما أنزل إليهم[1].

وأما ما ذكره ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أمثلة على الإطناب، فنختار

---

(١) **انظر**: المعجزة الكبرى (ص٣١٠ ـ ٣١٣).

منها مثالًا واحدًا فيه توضيح للمراد، وهو قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٢٩].

وهذه الآية الكريمة مثالٌ على الإطناب، إذ فيها توصيفٌ لأحوال الموت، وما يحدث عند المحتَضَر، والملاحظ من خلال هذا المثال أن دلالة هذه الآيات الكريمة على أصل المعنى، وهو مجيء سكرة الموت فيها إطناب، وهو زيادة الألفاظ على المعاني، أما دلالتها على تفاصيل أحوال الموت فليس فيها إطناب، ومن هنا فإن من أنكر أن يكون في الإطناب زيادةً في اللفظ على المعنى إنما نظر إلى كون الآيات الكريمة يدل كل منها على ما جاء فيه من أحوال، ولا إطناب فيها بهذا الاعتبار، ومن نظر إلى الدلالة على أصل المعنى بعيدًا عن أحواله وصَف الآيات الكريمة بالإطناب[1].

◄ المسألة الثانية: من أنواع الإعجاز البلاغي الراجعة إلى علم البيان:

يعتبر علم البيان[2] أحد العلوم الثلاثة التي عليها مدار علم

---

(١) وقد أنكر الشيخ محمد أبو زهرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ على من يقول بالإطناب بمعنى زيادة اللفظ على المعنى، وجعل هذا مما يتنافى مع الكلام البليغ المستحسن، ولا شك أن اللفظ لو زاد على المعنى لغير غرض وفائدة يتنافى مع بليغ الكلام، أما إذا زاد اللفظ على المعنى لفائدة أخرى فهذا لا يتنافى مع بلاغة الكلام، ولذا جعل العلماء الإطناب هو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، وميَّزوه عن التطويل بكون الإطناب لفائدة، والتطويل زيادة اللفظ على المعنى لغير فائدة، وعليه فالإطناب بلاغة، والتطويل عيٌّ، **انظر**: النكت في إعجاز القرآن (ص٧٨)، المثل السائر (٢/ ٣٤٤)، المعجزة الكبرى (ص٣١٠ ـ ٣١٣)، علوم البلاغة (ص١٩١).

(٢) **علم البيان هو**: أصول وقواعد يعرف بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة مع مطابقة كل منها لمقتضى الحال، **انظر**: علوم البلاغة (ص٢٠٧)، جواهر البلاغة (ص٢١٢).

البلاغة، وهو من العلوم المعينة على الوقوف على أسرار كلام العرب، ومعرفة ما فيه من التفاوت في الفصاحة، وتباين درجات البلاغة[١]، وقد تعرض ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمباحث علم البيان، وقام بالتمثيل لها في كثير من المواضع في تفسيره، **وفيما يلي أقتصر على بعض أبواب علم البيان التي ذكر ابن عاشور لها أمثلةً قرَّرَ أنها بلغت حد الإعجاز:**

١ ـ التشبيه، والاستعارة:

للتشبيه[٢] والاستعارة[٣]مكانتهما العليَّة في البلاغة العربية، أما التشبيه فهو من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم، وكلما كان المشبه منهم في تشبيهه ألطف كان باللغة أعرف، وقد قال المبرد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والتشبيه جار كثيرًا في كلام العرب، حتى لو قال قائل: هو أكثر كلامهم، لم يبعد)[٤].

وأما الاستعارة فهي (أمد ميدانًا، وأشد افتنانًا، وأوسع سعة، وأبعد غورًا، وأذهب نجدًا في الصِّناعة وغَوْرًا، من أن تُجمعَ شُعَبها وشُعُوبها، وتُحصَر فنونها وضروبها. . . تُعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تُخرجَ من الصدَفة الواحدة عِدّةً من الدُّرَر، وتجني من الغُصْن الواحد أنواعًا من الثَّمر. . . إن شئت أرتك المعانيَ اللطيفةَ التي

---

(١) **انظر**: علوم البلاغة (٢٠٨)، جواهر البلاغة (٢١٣).

(٢) **التشبيه**: هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى، وقيل: هو إلحاق شيء بذي وصف في وصفه، **انظر**: حلية اللب المصون (ص١٣٥)، معترك الأقران (١/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٣) **الاستعارة**: هي استعمال اللفظ في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنى المنقول عنه، والمعنى المستعمل فيه مع قرينة صارفة عن إرادة المعنى الأصلي، **انظر**: جواهر البلاغة (ص٢٦٤)، علوم البلاغة (ص٢٥٩).

(٤) **انظر**: الكامل (٣/ ٩٣).

هي من خبايا العقل؛ كأنها قد جُسِّمت حتى رأتها العيون، وإن شئتَ لطَّفتِ الأوصاف الجسمانية حتى تعود رُوحانية لا تنالها إلّا الظنون)[١].

وقد اعتنى القرآن الكريم بهذين الأسلوبين من أساليب العرب، **وفي ذلك يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وكان للتشبيه والاستعارة عند القوم المكان القصي والقدر العلي في باب البلاغة، وبه فاق امرؤ القيس[٢] ونبهت سُمعته، وقد جاء في القرآن من التشبيه والاستعارة ما أعجز العرب كقوله: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾ [مريم: ٤]، وقوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ٢٤]، وقوله: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ [هود: ٤٤]، وقوله: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨] إلى غير ذلك من وجوه البديع.

ورأيت من محاسن التشبيه عندهم كمال الشبه، ورأيت وسيلة ذلك الاحتراس[٣]، وأحسنه ما وقع في القرآن كقوله تعالى: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥] احتراس عن كراهة الطعام ﴿وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ احتراس عن أن تتخلّله أقذاء من بقايا نحله.

وانظر التمثيلية[٤] في قوله تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن

(١) **انظر**: أسرار البلاغة (ص٤٢).

(٢) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، الملك الضلِّيل أبو زيد وأبو وهب وأبو الحارث، اسمه جندح، وامرئ القيس لقبه لجماله، أشعر أهل الجاهلية، **انظر**: الشعر والشعراء (ص١٠٨)، خزانة الأدب (١/ ٣٢٩).

(٣) **الاحتراس، ويقال له التكميل، وهو**: أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفع ذلك الوهم، **انظر**: حلية اللب المصون (ص١٣١)، علوم البلاغة (ص١٩٥)، جواهر البلاغة (ص٢٠١).

(٤) **المراد هنا الاستعارة التمثيلية، وهي**: تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي، **انظر**: جواهر البلاغة (ص٢٨٦).

﴿نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٦٦] الآية، ففيه إتمام جهات كمال تحسين التشبيه لإظهار أن الحسرة على تلفها أشد، وكذا قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ إلى قوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ [النور: ٣٥] فقد ذكر من الصفات والأحوال ما فيه مزيد وضوح المقصود من شدة الضياء، وما فيه تحسين المشبه وتزيينه بتحسين شبهه، وأين من الآيتين **قول كعب**(١):

شُجَّتْ بِذي شَبَمٍ مِنْ مَاءِ مَحْنِيَةٍ ... صَافٍ بِأَبْطَحَ أَضْحَى وَهْوَ مَشْمُولُ

تَنْفِي الرِّيَاحُ القَــذَى عَنْهُ وَأَفْرَطَهُ ... مِنْ صَـوْبِ سَارِيَةٍ بِيضٌ يَعَالِيلُ(٢)

إن نظم القرآن مبني على وفرة الإفادة، وتعدد الدلالة...)(٣).

وما سبق من كلام ابن عاشور تضمَّن دررًا يمكن أن نقف عندها من خلال النقاط التالية:

أولًا: الناحية النظرية في تناول التشبيه والاستعارة:

وقد تناول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ **التشبيه والاستعارة من خلال التالي:**

١ - التشبيه والاستعارة لهما مكانة عالية عند العرب، وقد مرَّ قول المبرد: لو قال قائل هو أكثر كلام العرب لم يبعد.

---

(١) كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني الشاعر صاحب القصيدة المشهورة «بانت سعاد» أسلم عام الفتح، **انظر**: الاستيعاب (٣/ ١٣١٣)، الإصابة (٣/ ٣٠٢).

(٢) وهذه الأبيات التي قالها كعب بن زهير رضي الله تعالى عنه جاءت في أثناء حديثه عن وصف الخمر ومعنى هذين البيتين: أن هذه الخمر كسرت حدتها بماء بارد صاف من منعطف الوادي من الأبطح، وهو: المسيل فيه دقاق الحصا، لذا يأتي عليه وقت الضحى وقد ضربته ريح الشمال حتى برد، وهذا الماء البارد في الأبطح تطرد الرياح عنه ما يمكن سقوطه فيه من أذى، وقد مُلِأ هذا الأبطح من ماء سحابة آتية بالليل ماءَ جبال شديدة البياض، هذا هو حاصل معنى البيتين، وفي بعضه خلاف بين شراح القصيدة، **انظر**: شرح قصيدة كعب بن زهير (ص٨٨ - ١١٤).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٠٩).

٢ ـ التشبيه والاستعارة في القرآن الكريم هما مما بلغ الإعجاز، وطريقة معرفة كون التشبيه والاستعارة بابًا من أبواب الإعجاز في القرآن أن تستقصى التشبيهات والاستعارات التي عرفها اللسان العربي قبل نزول القرآن الكريم، وتُحدد أغراضها، ومدى وفائها بالمعاني التي سيقت لها، ثم تجمع تشبيهات واستعارات القرآن الكريم، وتحدد طرقها في كشف المعاني، وأبواب المعاني التي تناولتها ولم يعرفها اللسان العربي قبل[1].

٣ ـ من محاسن التشبيه عند العرب التشبيه الذي وسيلته الاحتراس.

ثانيًا: الناحية التطبيقية في تناول التشبيه والاستعارة:

وقد تناول ابن عاشور هذه الناحية بالعديد من الأمثلة، وليس الغرض هنا أن تُحصر هذه الأمثلة، وإنما المراد تبيين القاعدة النظرية، وعليه فإن الكلام في الناحية التطبيقية سيكون من خلال مثال واحد لكل من التشبيه والاستعارة:

*** مثال التشبيه:**

مثَّل ابن عاشور للتشبيه في القرآن الكريم بأمثلة كثيرة، ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

وفي بيان التشبيه في هذه الآية الكريمة يقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والمثل هنا لمَّا أضيف إلى الذين كفروا كان ظاهرًا في تشبيه حالهم عند سماع دعوة النبي ﷺ إياهم إلى الإسلام بحال الأنعام عند سماع دعوة من ينعق بها في أنهم لا يفهمون إلا أن النبي ﷺ يدعوهم إلى متابعته من غير تبصر في دلائل صدقه وصحة دينه، فكل من الحالة المشبهة والحالة

---

(١) **انظر**: الإعجاز البلاغي (ص١١٣، ١٣٣).

المشبه بها يشتمل على أشياء: داع ومدعو ودعوة وفهم وإعراض وتصميم، وكل من هاته الأشياء التي هي أجزاء التشبيه المركب صالح لأن يكون مشبهًا بجزء من أجزاء المشبه به، وهذا من أبدع التمثيل، وقد أوجزته الآية إيجازًا بديعًا، والمقصود ابتداء هو تشبيه حال الكفار لا محالة ويستتبع ذلك تشبيه حال النبي وحال دعوته.

وللكفار هنا حالتان: إحداهما حالة الإعراض عن داعي الإسلام، والثانية: حالة الإقبال على عبادة الأصنام، وقد تضمَّنت الحالتين الآية السابقة وهي قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [البقرة: ١٧٠] وأعظمه عبادة الأصنام فجاء هذا المثل بيانًا لما طوى في الآية السابقة.

فإن قلت: مقتضى الظاهر أن يقال: ومثل الذين كفروا كمثل غنم الذي ينعق؛ لأن الكفار هم المشبهون والذي ينعق يشبهه داعي الكفار، فلماذا عدل عنه؟ وهل هذا الأسلوب يدل على أن المقصود تشبيه النبي ﷺ في دعائه لهم بالذي ينعق؟

قلت: كلا الأمرين منتف؛ فإن قوله: ومثل الذين صريح في أنه تشبيه هيئة بهيئة كما تقدم[1] في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ﴾ [البقرة: ١٧] وإذا كان كذلك كانت أجزاء المركبين غير منظور إليها استقلالًا، وأيها ذكرت في جانب المركب المشبه والمركب المشبه به أجزأك... وعليه فالتقديرات الواقعة للمفسرين هنا تقادير لبيان المعنى، والآية تحتمل أن يكون المراد تشبيه حال المشركين في إعراضهم عن الإسلام بحال الذي ينعق بالغنم، أو تشبيه حال المشركين في إقبالهم على الأصنام بحال الداعي للغنم، وأيًا ما كان فالغنم تسمع صوت الدعاء والنداء ولا تفهم ما يتكلم به الناعق، والمشركون لم يهتدوا بالأدلة التي

---

(١) **انظر:** التحرير والتنوير (١/٣٠٧).

جاء بها النبي ﷺ فيكون قوله: ﴿إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ من تكملة أوصاف بعض أجزاء المركب التمثيلي في جانب المشبه به. وذلك صالح لأن يكون مجرد إتمام للتشبيه إن كان المراد تشبيه المشركين بقلة الإدراك، ولأن يكون احتراسًا في التشبيه إن كان المراد تشبيه الأصنام حين يدعوها المشركون بالغنم حين ينعق بها رعاتها فهي لا تسمع إلا دعاء ونداء، ومعلوم أن الأصنام لا تسمع لا دعاء ولا نداء فيكون حينئذٍ مثل قوله تعالى: ﴿فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ثم قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقد جوَّز المفسِّرون أن يكون التمثيل على إحدى الطريقتين وعندي أن الجمع بينهما ممكن ولعله من مراد الله تعالى؛ فقد قدمنا أن التشبيه التمثيلي يحتمل كل ما حملته من الهيئة كلها وهيئة المشركين في تلقي الدعوة على إعراض عنها وإقبال على دينهم كما هو مدلول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ﴾ الآية، فهذه الحالة كلها تشبه حال الناعق بما لا يسمع، فالنبي يدعوهم كناعق بغنم لا تفقه دليلًا وهم يدعون أصنامهم كناعق بغنم لا تفقه شيئًا، ومن بلاغة القرآن صلوحية آياته لِمعانٍ كثيرة يفرضها السامع)[1].

وبعد هذا البحث النفيس الذي ذكره ابن عاشور رحمه الله في بيان التشبيه في الآية الكريمة، **فإن الكلام في هذا المثال من وجوه:**

١ ـ هذا التشبيه من أبدع التشبيهات، وقد وصفه ابن عاشور رحمه الله كما مرَّ بأنه من أبدع التمثيل، ووصفه أبو حيان[2] بالتشبيه

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١١١ ـ ١١٢).

(٢) **أبو حيان الأندلسي**: محمد بن يوسف بن علي الجياني، أبو حيان أثير الدين الأندلسي، ولد سنة ٦٥٤هـ، وتوفي سنة ٧٤٥هـ، **انظر**: الدرر الكامنة (٤/ ٣٠٢ ـ ٣١٠)، طبقات المفسرين (ص٢٧٨).

العجيب[١]، ووصفه البقاعي[٢] بأنه من أعلى خطاب العرب[٣].

٢ ـ اختلف العلماء رحمهم الله تعالى في هذا التشبيه على أقوال عديدة ترجع إلى أربعة أقوال، **وهي**:

- **أنَّ التشبيه هو لتشبيه الكافر بالناعق**، فعلى هذا القول: يكون التقدير: ومثل الذين كفروا في قلة فهمهم؛ كمثل الرعاة يكلمون أغنامهم، والغنم لا تعقل شيئًا، وقيل: يكون التقدير: ومثل الذين كفروا في دعائهم آلِهتهم التي لا تفقه دعاءهم؛ كمثل الناعق بغنمه؛ لا ينتفع من نعيقه بشيء غير أنه في عناء.
- **التشبيه هنا هو لتشبيه الكافر بالمنعوق به**، والمعنى على هذا القول: ومثل الذين كفروا في دعائهم إلى الله تعالى، وعدم سماعهم؛ كمثل بهائم الذي ينعق، وقيل: التقدير: ومثل الذين كفروا في عدم فهمهم عن الله ورسوله ﷺ؛ كمثل المنعوق به من البهائم التي لا تفقه من الأمر والنهي غير الصوت، فيراد بالذي ينعق: الذي ينعق به، ويكون هذا من القلب.
- **التشبيه هنا هو لتشبيه داعي الكافر بالناعق**، والمعنى على هذا القول: ومثل داعي الذين كفروا كمثل الناعق بغنمه؛ في كون الكافر لا يفهم مما يخاطبه به داعيه إلا دوي الصوت، دون إلقاء فكر وذهن؛ كما أن البهيمة كذلك.
- **التشبيه هنا هو لتشبيه الداعي والكافر بالناعق، والمنعوق به**، والمعنى

---

(١) **انظر**: البحر المحيط (١/ ٦٨٤).

(٢) **البقاعي**: إبراهيم بن عمر بن الحسن الرباط البقاعي، برهان الدين، توفي سنة ٨٨٥هـ. **انظر**: طبقات المفسرين (ص٣٤٧)، البدر الطالع (١/ ١٩ ـ ٢٢).

(٣) **انظر**: نظم الدرر (٢/ ٣٣٢).

على هذا القول: مثلك يا محمد، ومثل الذين كفروا؛ كمثل الناعق والمنعوق به، وعلى هذا القول يكون التشبيه من التشبيه المركب[١]، وهو اختيار ابن عاشور لما في حمل الآية عليه من زيادة معنى، والله أعلم[٢].

*** مثال الاستعارة:**

(إن القرآن الكريم حافل بالروائع من الصور الاستعارية التي يخر لها الفحول، ولا تتطاول إليها أعناق العماليق)[٣]، ومن الآيات الكريمة التي فيها بيان الاستعارة في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤].

وفي بيان الاستعارة في هذه الآية الكريمة يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: (وشبه عموم الشيب شعر رأسه أو غلبته عليه باشتعال النار في الفحم بجامع انتشار شيء لامع في جسم أسود. تشبيهًا مركبًا تمثيليًّا قابلًا لاعتبار التفريق في التشبيه[٤]، وهو أبدع أنواع المركب، فشبه الشَّعر الأسود بفحم والشعر الأبيض بنار على طريق التمثيلية المكنية[٥]، ورمز إلى الأمرين بفعل (اشتعل)، وأسند الاشتعال إلى الرأس، وهو مكان الشعر الذي عمَّه الشيب؛ لأن الرأس لا يعمه الشيب إلا بعد أن يعم اللحية غالبًا، فعموم الشيب في الرأس أمارة التوغل في كبر السن،

---

(١) **التشبيه المركب**: هو الهيئة الحاصلة من تشبيه شيئين، أو أشياء، بغيرها، **انظر**: جواهر البلاغة (ص٢١٧).

(٢) **انظر**: اللباب (٣/ ١٦٣ ـ ١٦٤)، الكشاف (١/ ١٩٦)، البحر المحيط (١/ ٦٨٤).

(٣) أسلوب القرآن الكريم (ص٢٥٢).

(٤) **التشبيه المفروق**: هو ما أتي فيه بمشبه ومشبه به ثم بآخر، **انظر**: جواهر البلاغة (ص٢٢٥).

(٥) **الاستعارة المكنية**: هي أن يذكر في الكلام لفظ المشبه فقط، ويحذف فيه المشبه به، ويشار إليه بذكر لازمه، **انظر**: جواهر البلاغة (ص٢٦٥).

وإسناد الاشتعال إلى الرأس مجاز عقلي[١] لأن الاشتعال من صفات النار المشبه بها الشيب فكان الظاهر إسناده إلى الشيب، فلما جيء باسم الشيب تمييزًا لنسبة الاشتعال حصل بذلك خصوصية المجاز وغرابته، وخصوصية التفصيل بعد الإجمال، مع إفادة تنكير (شيبًا) من التعظيم، فحصل إيجاز بديع، وأصل النظم المعتاد: واشتعل الشيب في شعر الرأس، ولما في هذه الجملة من الخصوصيات من مبني المعاني والبيان كان لها أعظم وقع عند أهل البلاغة)[٢].

ويمكن توضيح الاستعارة في هذه الآية، وتبيين بلاغتها من خلال التالي:

١ ـ أشار كثير من العلماء رحمهم الله تعالى إلى ما في هذه الاستعارة من بلاغة[٣]، وأن (هذه الاستعارة من أبدع الاستعارات وأحسنها)[٤].

٢ ـ هذه الاستعارة فيها تشبيه الشيب في الرأس بانتشار النار في الحطب، فالمستعار منه هو النار، والمستعار له الشيب، ووجه الاستعارة هو مشابهة ضوء النار لبياض الشيب[٥].

٣ ـ يرى الجرجاني رَحِمَهُ اللَّهُ أن الاستعارة في الآية الكريمة ليست هي وجه البلاغة الوحيد، وفي ذلك يقول: (ومن دقيق ذلك وخفيه أنك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ لم يزيدوا فيه على ذكر

---

(١) **المجاز العقلي**: هو إسناد الفعل، أو ما في معناه من اسم فاعل، أو اسم مفعول، أو مصدر إلى غير ما هو له في الظاهر، لعلاقة مع قرينة تمنع من أن يكون الإسناد إلى ما هو له، **انظر**: جواهر البلاغة (ص٢٥٨).

(٢) التحرير والتنوير (١٦/ ٦٤).

(٣) **انظر**: الكشاف (٣/ ٩٣)، الجامع لأحكام القرآن (١١/ ٧٤).

(٤) فتح القدير (٣/ ٤٠٣).

(٥) **انظر**: معترك الأقران (١/ ٢٠٩ ـ ٢١٠).

الاستعارة ولم ينسبوا الشرف إلا إليها ولم يروا للمزيَّة موجبًا سواها. هكذا ترى الأمر في ظاهر كلامهم وليس الأمر على ذلك. ولا هذا الشَّرف العظيم ولا هذه المزية الجليلة وهذه الرَّوعة التي تدخل على النفوس عند هذا الكلام لمجرد الاستعارة. ولكن لأنه سلك بالكلام طريق ما يسند الفعل فيه إلى الشيء وهو لما هو من سببه فيرفع به ما يسند إليه ويؤتى بالذي الفعل له في المعنى منصوبًا بعده مبينًا أن ذلك الإسناد وتلك النسبة إلى ذلك الأول إنما كان من أجل هذا الثاني ولما بينه وبينه من الاتصال والملابسة...)[١]، وهكذا يظهر لنا من كلام الجرجاني أنه يرى النظم مع الاستعارة هما اللذان أظهرا بلاغة الآية الكريمة.

٢ ـ الكناية:

الكناية[٢] من ألطف أساليب البلاغة وأدقها، فهي (فن من التعبير توخَّاه العرب استكثارًا للألفاظ التي تؤدي ما يقصد بها من المعاني، وبها يتنوفون[٣] في الأساليب، ويزينون ضروب التعبير، ويكثرون من وجوه الدلالة... وليس بالخفي ما للكناية من فضيلة في إلباس المعقول ثوب المحسوس... إلى ما فيها من حيلة في ترك بعض ألفاظ إلى ما هو أجمل في القول وآنس للنفس... وإنك لترى فيها من العجب العجاب ومن غريب الصنعة ومن بديع السحر)[٤].

ولمكانة الكناية في إظهار بلاغة الكلام اعتنى المفسرون رحمهم الله

---

(١) دلائل الإعجاز (ص١٠٠).

(٢) **الكناية**: هي لفظ أريد به غير معناه الذي وضع له، مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته، **انظر**: جواهر البلاغة (ص٢٩٧).

(٣) **النَّيِّفُ**: الفَضْلُ، والإِحسانُ، والسَّنامُ العالِي، والمراد هنا بالكناية يتفاضلون ويعلو بعضهم بعضًا، **انظر**: لسان العرب (٩/ ٣٤٢)، القاموس المحيط (ص١١٠٩).

(٤) علوم البلاغة (ص٣٠٨ ـ ٣٠٩).

تعالى بإبرازها في الآيات القرآنية، وممن فعل ذلك ابن عاشور، ومن الأمثلة لما ذكره ابن عاشور من كناية بالغةٍ حد الإعجاز ما ذكره عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والضرب على الآذان كناية عن الإنامة؛ لأن النوم الثقيل يستلزم عدم السمع لأن السمع السليم لا يحجبه إلا النوم بخلاف البصر الصحيح فقد يحجب بتغميض الأجفان، وهذه الكناية من خصائص القرآن لم تكن معروفة قبل هذه الآية وهي من الإعجاز)[١].

وحاصل القول في هذا المثال من أمثلة الكناية ما يلي:

١ ـ أشار العلماء رحمهم الله تعالى إلى ما أشار إليه ابن عاشور من كون الكناية في هذه الآية الكريمة هي من خصائص القرآن الكريم التي لم يعرفها العرب، وفي بيان ذلك يقول الدميري[٢] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ﴾، وهذا من فصاحات القرآن، التي أقرَّت العرب القصور عن الإتيان بمثله)[٣].

٢ ـ ذكر العلماء عدم إمكان ترجمة الكناية في الآية الكريمة إذ يذهب رونق العبارة وجمالها[٤]، وهذا من أدلة إعجاز هذه الآية الكريمة.

---

(١) التحرير والتنوير (١٥/٢٦٨).

(٢) **الدميري**: محمد بن موسى بن عيسى الدميري، كمال الدين أبو البقاء المصري، ولد سنة ٧٤٢هـ، وتوفي سنة ٨٠٨هـ، **انظر**: الضوء اللامع (١٠/٥٩ ـ ٦٢)، البدر الطالع (٢/٢٧٢).

(٣) حياة الحيوان الكبرى (٢/٢٤٩).

(٤) **انظر**: الصاحبي في فقه اللغة (ص١٣).

◆ المسألة الثالثة: من أنواع الإعجاز البلاغي الراجعة إلى علم البديع:

يعتبر علم البديع[١] ثالث علوم البلاغة العربية، وخاتمتها، وقد ذكر بعض العلماء كالباقلاني رَحِمَهُ اللَّهُ عدم دلالة علم البديع على إعجاز القرآن الكريم، وعلَّل ذلك بقوله: (وقد قدَّر مقدرون أنه يمكن استفادة إعجاز القرآن من هذه الأبواب التي نقلناها، وأن ذلك مما يمكن الاستدلال به عليه، وليس كذلك عندنا؛ لأن هذه الوجوه إذا وقع التنبيه عليها أمكن التوصل إليها بالتدريب والتعود والتصنع لها، وذلك كالشعر الذي إذا عرف الإنسان طريقه صح منه التعمل له وأمكنه نظمه، والوجوه التي تقول: إن إعجاز القرآن يمكن أن يعلم منها، فليس مما يقدر البشر على التصنع له والتوصل إليه بحال، ويبين ما قلنا: أن كثيرًا من المحدثين قد تصنَّع لأبواب الصَّنعة، حتى حشا جميع شعره منها، واجتهد أن لا يفوته بيت إلا وهو يملؤه من الصنعة)[٢]، والمتأمل في هذا الكلام يتبين له أن هناك عددًا من الملاحظات الواردة عليه، **وذلك كالتالي**:

١ ـ لم يقل قائل من العلماء أن مجرد وجود البديع في القرآن الكريم يعني أن هذا العلم معجز، ولا يمكن أن يأتي أحد بنوع من أنواعه، وإنما يريد من عدَّ البديع نوعًا من إعجاز القرآن الكريم أن أنواع البديع في القرآن الكريم بلغت الغاية، وإن كانت موجودة في كلام العرب بما هو دون ذلك، وعليه فكون وجوه البديع يمكن أن يوصل إليها بالتدرب والتصنع لا يعني أن أصحابها يمكن أن يصلوا إلى ما بلغه البديع في القرآن الكريم.

---

(١) **علم البديع**: هو علم تعرف به الوجوه والمزايا التي تكسب الكلام حُسنًا وقَبولًا بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال التي يورد فيها، **انظر**: علوم البلاغة (ص٣١٨).

(٢) إعجاز القرآن (ص٧٨).

٢ ـ كون كثير من الشعراء ونحوهم من أهل اللسان قد حاولوا الإتيان بجميع أنواع البديع في شعرهم لا يعني أنهم يقدرون على مماثلة البديع في القرآن الكريم، بل هو دليل على عدم إمكان مماثلة ما جاء في القرآن الكريم من أنواع البديع، وذلك لما يظهر من تكلف في أنواع البديع المصنوعة في الشعر وما يقابله من ورود البديع القرآني موافقًا لما يتطلبه المعنى، ولا يغني غيره غناءه.

٣ ـ يذكر الباقلاني في موضع آخر كلامًا مفاده أنه يمكن أن يقال إن البديع وجه من أوجه إعجاز القرآن الكريم فيقول رَحِمَهُ اللَّهُ: (ولكن قد يمكن أن يقال في البديع الذي حكيناه وأضفناه إليهم، إن ذلك باب من أبواب البراعة، وجنس من أجناس البلاغة، وإنه لا ينفك القرآن عن فن من فنون بلاغاتهم، ولا وجه من وجوه فصاحتهم، وإذا أورد هذا المورد، ووضع هذا الموضع كان جديرًا)[1]، وهذا الكلام من الباقلاني هو مؤدَّى كلام العلماء ممن يقول بالإعجاز في البديع الوارد في القرآن الكريم.

وبعد استعراض ما قاله الباقلاني من عدم إعجاز ما ورد من علم البديع في القرآن الكريم ومناقشته، ننتقل إلى بعض الأمثلة على علوم البديع وأنواعه التي ذكر ابن عاشور دخولها في حد الإعجاز.

١ ـ المطابقة:

المطابقة[2] فن من فنون القول التي وردت في لسان العرب وجاء

---

(١) إعجاز القرآن (ص٨١).

(٢) **المطابقة أو الطباق**: هي الجمع بين لفظين متقابلين في المعنى، **انظر**: حلية اللب المصون (ص١٦٣)، جواهر البلاغة (ص٣١٣).

بها القرآن الكريم على أتمِّ الوجوه وأحسنها، وقد أشار ابن عاشور إلى بلاغة المطابقة، **وفي ذلك يقول** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد رأيت المحسِّنات في البديع جاءت في القرآن أكثر مما جاءت في شعر العرب وخاصة الجناس كقوله: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤][(١)]، والطباق كقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤]).

وفي موضع آخر يبيِّن رَحِمَهُ اللَّهُ الغرض من المطابقة عند بلغاء العرب **فيقول**: (والأذلة والأعزة وصفان متقابلان وصف بهما القوم باختلاف المتعلَّق بهما... وإثبات الوصفين المتقابلين للقوم صناعة عربية بديعية وهي المُسمَّاة: الطباق، وبلغاء العرب يغربون بها، وهي عزيزة في كلامهم، وقد جاء كثير منها في القرآن)[(٢)].

ومن خلال كلام ابن عاشور يمكن أن يُمثل للمطابقة بقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

وقد قال ابن عاشور عند تفسيره لهذه الآية: (وفي الجمع بين ﴿يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ﴾ محسن الطباق بالمضادة)[(٣)]، وهذا الذي ذكره ابن عاشور واضح لا يحتاج إلى مزيد تعليق والله أعلم.

٢ ـ الجِنَاسُ:

تتنوع المحسنات البديعية فمنها ما يرجع إلى المعنى كالمطابقة، ومنها ما يرجع إلى اللفظ، ومن أهم الأنواع الراجعة إلى اللفظ الجناسُ[(٤)]، وقد ذكر ابن عاشور هذا النوع من أنواع البديع أثناء ذكره

---

(١) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١١٩).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٢٣٧).

(٣) التحرير والتنوير (١٧/ ١٩٥).

(٤) **الجناس**: ويسمى التجنيس كذلك، وهو نوعان: تام وغير تام، **فالجناس التام هو**: أن يتفق اللفظان في أنواع الحروف وأعدادها وهيئاتها وترتيبها، **وغير التام هو**: =

إعجاز القرآن الكريم، **وفيه يقول** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وقد رأيت المحسنات في البديع جاءت في القرآن أكثر مما جاءت في شعر العرب وخاصة الجناس كقوله: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤])(١).

وفي موضع آخر يبيِّن ابن عاشور ضابطًا هامًّا في إيراد الجناس وغيره من المحسنات اللفظية في لغة العرب، وهو أنها تتناسب مع مقام الرضى لا مع مقام الغضب، وأن هذا الضابط روعي في القرآن الكريم الذي جاء على طريقة العرب في كلامهم، **وفي هذا يقول عند تفسيره لقوله تعالى:** ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الصافات: ١٢٥]: (وفي مفاتيح الغيب: (كان الملقب بالرشيد الكاتب(٢) يقول: لو قيل: أتدعون بعلًا وتدعون أحسن الخالقين أوهم أنه أحسن؛ **أي**: أوهم كلام الرشيد أنه لو كانت كلمة (تدعون) عوضًا عن (تذرون).

وأجاب الفخر بأن فصاحة القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكاليف بل لأجل قوة المعاني وجزالة الألفاظ. اهـ(٣).

وهو جواب غير مقنع إذ لا سبيل إلى إنكار حسن موقع المحسنات

= ما اختلف فيه اللفظان في واحد فأكثر من الأمور الأربعة السابقة، **انظر**: عروس الأفراح (٢/ ٣٧٧)، علوم البلاغة (ص٣٥٤).

(١) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١١٩).

(٢) **قال ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ: (لم أقف على ذكر كاتب يلقب بالرشيد وأحسب أنه راشد بن إسحاق بن راشد أبا حليمة الكاتب، كان شاعرًا ماجنًا ترجمه ياقوت وذكر أنه اتصل بالوزير عبد الملك بن الزيات وزير المعتصم)، والذي في معجم الأدباء أن كنيته أبو حُكَيمة، **انظر**: معجم الأدباء (٣/ ١٢٩٨)، التحرير والتنوير (٢٣/ ١٦٨).

(٣) **انظر**: مفاتيح الغيب (٢٦/ ١٦١ ـ ١٦٢).

البديعية بعد استكمال مقتضيات البلاغة. قال السكاكي: «وأصل الحسن في جميع ذلك [أي: ما ذكر من المحسنات البديعية] أن تكون الألفاظ توابع للمعاني لا أن تكون المعاني لها توابع، أعني أن لا تكون متكلفة»(١)، فإذا سلَّمنا أنَّ (تذرون) و(تدعون) مترادفان لم يكن سبيل إلى إبطال أن إيثار (تدعون) أنسب، فالوجه إما يجاب بما قاله سعد الله(٢) محشِّي البيضاوي(٣) بأن الجناس من المحسنات فإنما يناسب كلامًا صادرًا في مقام الرضى لا في مقام الغضب والتهويل؛ **يعني**: أن كلام إلياس(٤) المحكي هنا محكي عن مقام الغضب والتهويل فلا تناسبه اللطائف اللفظية؛ «**يعني**: بالنظر إلى حال المخاطبين به؛ لأن كلامه محكي في العربية بما يناسب مصدره في لغة قائله، وذلك من دقائق الترجمة» وهو جواب دقيق، وإن كابر فيه الخفاجي بكلام لا يليق(٥)، وإن تأملته جزمت باختلاله)(٦).

ومن خلال كلام ابن عاشور رحمه الله يتبين لنا ما يلي:

١ ـ الجناس من المحسنات البديعية التي بلغت في القرآن الكريم حدَّ الإعجاز خلافًا لما ذهب إليه الباقلاني من كون المحسنات البديعية ليس لها مدخل في الإعجاز(٧).

---

(١) مفتاح العلوم (ص٤٣٢).

(٢) سعد الله بن عيسى بن أمير خان الشهير بسعدي أفندي، توفي سنة ٩٤٥هـ، **انظر**: الفوائد البهية (ص٧٨)، معجم المؤلفين (١/ ٧٥٩).

(٣) **البيضاوي**: هو عبد الله بن عمر بن محمد أبو الخير البيضاوي ناصر الدين، توفي سنة ٦٨٥هـ، وقيل: ٦٩١هـ، **انظر**: بغية الوعاة (٢/ ٥٠)، طبقات المفسرين (ص٢٥٤).

(٤) **أي**: نبي الله إلياس عليه السلام.

(٥) **انظر**: عناية القاضي (٧/ ٢٨٤).

(٦) التحرير والتنوير (٢٣/ ١٦٨).

(٧) **انظر**: إعجاز القرآن (ص٧٨).

٢ ـ أشار ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى زلة الرشيد الكاتب، وقد تناول العلماء رحمهم الله تعالى هذه الزلة بالنقد، **وأجابوا على ما ذكره بعدد من الأجوبة**(١)، **ومنها:**

- فصاحة القرآن ليست لأجل رعاية هذه التكلُّفات، بل لأجل قوة المعاني وجزالة الألفاظ.
- مراعاة المعاني أولى من مراعاة الألفاظ، ولو قيل: أتدعون، وتَدَعُون لوقع الالتباس على القارئ فيجعلهما بمعنًى واحد تصحيفًا(٢).
- التجنيس تحسين، وإنما يستعمل في مقام الوعد والإحسان لا في مقام التهويل(٣).
- أن هناك اختلافًا في المعنى بين يدع، ويذر، وذلك أن يدع أعم من يذر، فكلمة (تذرون) تعني تتركون تركًا مطلقًا مع الرفض والإعراض،

---

(١) **انظر**: معترك الأقران (١/ ٣٠٥)، عناية القاضي (٧/ ٢٨٤)، حاشية القونوي (١٦/ ٣١٢).

(٢) وقد علَّق السيوطي على هذا الجواب بقوله: (وهذا جواب غير ناضج)، **انظر**: معترك الأقران (١/ ٣٠٥).

(٣) وهذا القول هو القول الذي أشار ابن عاشور إلى أن الخفاجي أنكره بكلام لا يليق، ونص عبارة الخفاجي هي: (وأما ما قيل من أن الجناس ونحوه من المحسنات فهو مناسب مقام الرضا والمسرة لا مقام الغضب والتهويل فمما لم يقله أحدٌ سواه مع مخالفته للمعقول والمنقول، أما الأول فلأنه لا علاقة بين البلاغة وبين ما ذُكر، وأما الثاني فلأنهم قالوا: لم يقع الجناس التام في القرآن إلا في موضعين في قوله: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، وقوله: ﴿...يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣، ٤٤]، جمع بصر وبصيرة، وهما في المقام الذي زعم أنه غير مناسب... وإنما أطلنا الكلام لما ذكره المتصلِّفون، وهم يحسبون أنهم يحسنون)، ومن خلال عرض عبارة الخفاجي يظهر قوة رده لهذا القول، وعليه فإنه لا يظهر وجهٌ لقول ابن عاشور: (وإن تأملته جزمت باختلاله)، **انظر**: عناية القاضي (٧/ ٢٨٤).

وكلمة (تدعون) تعني الترك مع الاعتناء بالأمر المتروك[١].

٣ ـ مثَّل ابن عاشور للجناس بأمثلة عديدة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وهذا المثال ذكره ابن عاشور للجناس المصحف[٢]، **وفي ذلك يقول** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وبين (يحسبون) و(يحسنون) جناس مصحف وقد مُثِّلَ بهما في مبحث الجناس)[٣].

٣ ـ المقلوب المستوي (ما لا يستحيل بالانعكاس):

من المحسنات البديعية التي ذكرها ابن عاشور ما لا يستحيل بالانعكاس[٤]، أو ما يسمى بالمقلوب المستوي، **وفيه يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن بدائع الإعجاز في هذه الآية أن قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ [الأنبياء: ٣٣] فيه محسِّن بديعي، فإن حروفه تقرأ من آخرها على الترتيب كما تقرأ من أولها مع خفة التركيب ووفرة الفائدة وجريانه مجرى المثل من غير تنافر ولا غرابة، ومثله قوله تعالى (ربك فكبر) بطرح واو العطف وكلتا الآيتين بني على سبعة أحرف، وهذا النوع سمَّاه السكاكي «المقلوب المستوي» وجعله من أصناف نوع سمَّاه القلب[٥]. وخصَّ هذا الصنف بما يتأتَّى القلب في حروف كلماته. وسمَّاها

---

(١) وممن أشار إلى اختلاف معنى الكلمتين الراغب الأصفهاني، وقد علق الخفاجي على ذلك بقوله: (وهذا مما لا مرية فيه)، **انظر**: مفردات ألفاظ القرآن (ص٨٦٣)، عناية القاضي (٧/ ٢٨٤).

(٢) **الجناس المصحَّف**: هو ما تماثل ركناه وضعًا واختلفا نقطًا بحيث لو زال إعجام أحدهما لم يتميز عن الآخر، **انظر**: جواهر البلاغة (ص٣٤٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٦/ ٤٧).

(٤) **ما لا يستحيل بالانعكاس**: هو كون اللفظ يقرأ طردًا وعكسًا، **انظر**: جواهر البلاغة (ص٣٥٥)، معجم البلاغة العربية (ص٦٣٠).

(٥) **انظر**: مفتاح العلوم (ص٤٣١).

الحريري[١] في المقامات «ما لا يستحيل بالانعكاس» وبني عليه المقامة السادسة عشرة[٢]، ووضح أمثلته نثرًا ونظمًا، وفي معظم ما وضعه من الأمثلة تكلف وتنافر وغرابة، وكذلك ما وضعه غيره على تفاوتها في ذلك والشواهد مذكورة في كتب البديع فعليك بتتبعها، وكلما زادت طولًا زادت ثقلًا.

قال العلَّامة الشيرازي[٣] في شرح المفتاح: وهو نوع صعب المسلك قليل الاستعمال، قلت: ولم يذكروا منه شيئًا وقع في كلام العرب فهو من مبتكرات القرآن)[٤].

ومن خلال عرض كلام ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ يمكن التعليق على هذا النوع فيما يلي:

١ ـ المستحسن من هذا النوع في لغة العرب هو ما كان رقيق الألفاظ سهل التركيب غير متنافر الألفاظ ولا غريب المعاني.

٢ ـ بعض ما أورده بعض العلماء رحمهم الله تعالى من هذا النوع في القرآن الكريم إنما تم لهم إيراده بعد نوع من الحذف في الجملة التي ورد في سياقها كحذف الواو من قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ وهذا الحذف يجعل تلك الآيات القرآنية لا تصح مثالًا لهذا النوع إلا بنوع تكلف.

---

(١) **الحريري**: هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد البصري الحريري، ولد سنة ٤٤٦هـ، وتوفي سنة ٥١٦، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٤٦٠)، البداية والنهاية (١٢/ ٦٨٧).

(٢) **انظر**: المقامات (ص١٢٢).

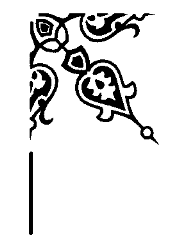
(٣) **الشيرازي**: هو قطب الدين محمود بن مسعود بن مصلح الفارسي الشيرازي، ولد سنة ٦٣٤هـ، وتوفي سنة ٧١٠هـ، **انظر**: الدرر الكامنة (٤/ ٣٣٩)، بغية الوعاة (٢/ ٢٨٢).

(٤) التحرير والتنوير (١٧/ ٦١).

٣ ـ ما قيل في أنواع البديع عمومًا من كون إعجازها إنما هو لبلوغها الغاية في بابها، وتطلب المعنى لها يقال هنا كذلك.

والله أعلم.






المَبْحَثُ ٱلثَّانِي

الإعـــجاز اللَّفْـــظِي

(لقد اهتم العرب بالألفاظ، ووضعوا لها شروطًا، وما يجب أن يتوفر فيها، لتقوم بتأدية المعنى كاملًا، وبرشاقة ووقع على النفس، يقول ابن جني: (اعلم أنه لما كانت الألفاظ للمعاني أزمَّة، وعليها أدلة، وإليها موصلة، وعلى المراد منها محصلة، عنيت العرب بها، فأولتها صدرًا صالحًا من تثقيفها وإصلاحها)[١]... إن الفكرة بحاجة إلى تجسيم، وتجسيمها يتم عن طريق الألفاظ)[٢].

وما جاء في القرآن الكريم من استعمال للألفاظ معدود من دقائق الاستعمال، وفي بيان ذلك يقول ابن عاشور بعد كلام له في بيان بعض الوجوه التي تأتي عليها الألفاظ في القرآن الكريم، **قال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهذه الوجوه كلها لا تخالف أساليب الكلام البليغ بل هي معدودة من دقائقه ونفائسه التي تقل نظائرها في كلام بلغائهم لعجز فطنة الأذهان البشرية عن الوفاء بجميعها)[٣].

وفي موضع آخر بيَّن ابن عاشور أهمية الإعجاز اللفظي، **وذلك بقوله**: (جُعِلَ الإعجاز اللفظي علامةً على كون القرآن من عند الله لأهل الفصاحة والبلاغة من العرب كما أشير إليه بقوله:

---

(١) الخصائص (١/ ٣١٢).

(٢) الإعجاز الفني في القرآن (ص٦٧ ـ ٦٨).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١١٣).

﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢] إلى قوله: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾...)[١].

والاهتمام بالألفاظ يدعو إلى الاهتمام بالمعاني، وذلك أن (اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم: يضعف بضعفه، ويقوى بقوته)[٢].

وربما لا تتفق المعاني مع الألفاظ في الجودة، أو العكس، وذلك بأن تكون المعاني التي تحملها الألفاظ ضعيفة، أو العكس، وحينئذٍ يكون الحرص على اللفظ مع ضعف المعنى تضييع للإعجاز.

وفي مثل هذا التعلق بالأمور اللفظية دون مراعاة للمعنى **يقول ابن عاشور** رحمه الله: (التعلق بمثل هاته الأمور اللفظية في نكت الإعجاز إضاعة للألباب وتعلق بالقشور)[٣]. وذلك أن للمعاني ألفاظًا تشاكلها، فتحسن فيها، وتقبح في غيرها، فهي (كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسنًا في بعض المعارض دون بعض، وكم من معنى حسن قد شين لمعرضه الذي أبرز فيه، وكم من معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح أُلبسه)[٤].

وفيما يلي بيان المراد بالإعجاز اللفظي، وأنواعه عند ابن عاشور رحمه الله.

المطلب الأول

المراد بالإعجاز اللفظي

يذكر العلماء رحمهم الله تعالى إعجاز ألفاظ القرآن الكريم في أثناء حديثهم عن الفصاحة بينما يذكرون ما يتعلق بمراعاة مقتضى الحال ومقام

---

(١) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ٤٥٨).
(٢) العمدة (١/ ٢٠٠).
(٣) التحرير والتنوير (٢/ ٣٥٤).
(٤) عيار الشعر (ص٨).

الكلام، ونحو ذلك مما مرده إلى المعنى عند حديثهم عن البلاغة، وهم بهذا يشيرون إلى ما بين الفصاحة والبلاغة من فرق، **وعليه فإن الإعجاز اللفظي أو الإعجاز في ألفاظ القرآن الكريم هو**: مراعاة المحاسن اللفظية وفصاحة اللفظ وانسجام النظم، وذلك بسلامة الكلام في أجزائه ومجموعه مما يجر الثقل.

وإلى هذا أشار ابن عاشور بقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفي هذه الجهة ناحية أخرى وهي ناحية فصاحة اللفظ وانسجام النظم وذلك بسلامة الكلام في أجزائه ومجموعه مما يجر الثقل إلى لسان الناطق به، ولغة العرب لغة فصيحة وأهلها مشهورون بفصاحة الألسن، قال فخر الدين الرازي في مفاتيح الغيب[1]: «إن المحاسن اللفظية غير مهجورة في الكلام الحكمي، والكلام له جسم وهو اللفظ، وله روح وهو المعنى، وكما أن الإنسان الذي نور روحه بالمعرفة ينبغي أن ينور جسمه بالنظافة، كذلك الكلام، ورُبَّ كلمة حكيمة لا تؤثر في النفوس لركاكة لفظها»)[2].

المَطْلَبُ الثَّانِي

من أنواع الإعجاز اللفظي

◄ المسألة الأولى: سلامة ألفاظ القرآن الكريم من التنافر:

البحث عن التنافر[3] والتآلف بين الحروف والكلمات (علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه، ولا أهل عصمة تفطن لما فيه.

---

(١) مفاتيح الغيب (٢٨/ ٢٠٦). (٢) التحرير والتنوير (١/ ١١٢).

(٣) **التنافر**: هو وصف في الكلمة أو الكلام يوجب الثقل في السمع، وصعوبة الأداء باللسان، بسبب تقارب المخارج في الكلمة الواحدة، أو تجاور كلمات متقاربة المخارج وتكرير الكلمة في الكلام، وضابط معرفة الثقل والصعوبة هو الذوق السليم الناشئ عن ممارسة كلام البلغاء، **انظر**: حلية اللب المصون (ص٢٠)، جواهر البلاغة (ص٨).

وهو أدق من السحر، وأهول من البحر، وأعجب من الشعر، وكيف لا يكون كذلك: وأنت تحسب أن وضع «الصبح» في موضع «الفجر» يحسن في كل كلام إلا أن يكون شعرًا أو سجعًا؟ وليس كذلك، فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع، وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه، وتضرب بجرَّانها، وتراها في مظانها، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها، وتجد الأخرى ـ لو وضعت موضعها ـ في محل نفار، ومرمى شراد، ونابية عن استقرار)[(١)].

ومن هنا اعتنى العلماء رحمهم الله تعالى ببيان التنافر في الحروف والكلمات ووضعوا ضوابط للكلمات الفصيحة مَن تأمَّلها ثم أتْبَعَ ذلك بالنظر في كلمات القرآن الكريم علِمَ سلامة كلمات القرآن الكريم وحروفه من كل ما يخلُّ بالفصاحة ويؤدي إلى التنافر، وذلك أن (التآخي في المعاني والألفاظ ونسقها ونغمها ومعانيها واضح في كل آيات القرآن، لا في آية دون أخرى، ولا في سورة دون سورة، فلا تجد في لفظٍ معنى يوجه الخاطر إلى ناحية، ويليه آخر يوجهه إلى ناحية أخرى، بل تجد النواحي متَّحدة إما بالتقابل، وإما بالتلاصق والمجاورة، وفي كلتا الحالتين تجد معنى كل لفظ يمهد لمعنى اللفظ الآخر، فلا تنافر في المعاني كما لا تنافر في الألفاظ، وهما في مجموعهما ينسابان في النفس غذاءً رطيبًا مريئًا)[(٢)].

وفي الإشارة إلى سلامة القرآن الكريم من التنافر يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: (وكان مما يعرض لشعرائهم وخطبائهم ألفاظ ولهجات لها بعض الثقل على اللسان، فأما ما يعرض للألفاظ فهو ما يسمَّى في علم

---

(١) إعجاز القرآن (ص١٢٠).

(٢) المعجزة الكبرى (ص١٢٨).

الفصاحة بتنافر حروف الكلمة أو تنافر حروف الكلمات عند اجتماعها، مثل: مستشزرات[١] والكَنَهْبل[٢] في معلقة امرئ القيس، وسفنَّجة[٣] والخَفَيْدد[٤] في معلقة طرفة[٥]، وقول القائل: «وليس قرب قبر حرب

---

(١) وذلك في قول امرئ القيس:

غَـدَائِـرُهُ مُـسْـتَـشْـزِرَاتٌ إِلَـى الْـعُـلَا   تَـضِلّ العِقَـاصُ فِي مُثَنًّى وَمُـرْسَلِ

ومعنى مستشزرات: مرفوعات، وأصل الشزر: الفتل على غير جهة، ومعنى البيت: إن ذوائب هذه العشيقة مرفوعات إلى فوق الرأس مشدودة على الرأس بخيوط تغيب خصال شعرها المجموعة في شعر بعضه متجعد وبعضه غير متجعد، **انظر**: فتح الكبير المتعال (١/ ٩٩).

(٢) وذلك في قول امرئ القيس:

فَأَضْحَى يَسُحُّ الـمَاءَ حَوْلَ كُتَيْفَةٍ   يَـكُـبُّ عَلَى الأَذْقَانِ دَوْحَ الـكَـنَـهْبَلِ

ومعنى الكنهبل: نوع من شجر البادية، ومعنى البيت: يقول: إن السحاب المشتمل على البرق المذكور في بيت سابق صبَّ الماء في وقت الضحى بغزارة شديدة حول الموضع المسمى بكتيفة، فهو لشدة غزارته يقتلع شجرة الكنهبل العظيم من أصوله ويلقيه على أم رأسه لشدة سحّه وانصبابه، **انظر**: فتح الكبير المتعال (١/ ١٥٣).

(٣) وذلك في قول طرفة:

جَـمَـالِـيَّـةٍ وَجْـنَـاءَ تَـرْدِي كَـأَنَّـهَـا   سَـفَـنَّـجَـةٌ تَـبْـرِي لِأَزْعَـرَ أَرْبَـدِ

ومعنى السفنَّجة: النعامة، ومعنى البيت: إن الناقة التي أمضي همي وأدفعه بركوبي عليها تشبه الجمل في وثاقة الخلق وهي مكتنزة اللحم، تعدو كأنها نعامة تعرض لظليم قليل الشعر يضرب لونه إلى لون الرماد، **انظر**: فتح الكبير المتعال (١/ ١٩٠).

(٤) وذلك في قول طرفة:

وَإِنْ شِئْتُ سَامَى وَاسِطَ الكُورِ رَأْسُهَا   وَعَامَتْ بِضَبْعَيْهَا نَجَاءَ الْخَفَيْدَدِ

والخفيدد: هو الظليم، وهو ذكر النعام، ومعنى البيت: يقول: إن شئت جعلت رأس الناقة المذكورة موازنًا لواسط رحلها في العلو من فرط نشاطها وجذبي زمامها إليَّ، وإن شئت جعلتها تسرع في سيرها إسراعًا مثل إسراع الظليم في جريه، **انظر**: فتح الكبير المتعال (١/ ٢١٦).

(٥) **طرَفة**: هو عمرو بن العبد بن سفيان الملقب طرَفة، أشعر الشعراء بعد امرئ القيس، قتله زوج أخته عمرو بن هند الملقب بالمحرق، **انظر**: الشعر والشعراء (ص٥٢)، خزانة الأدب (٢/ ٤١٩).

قبر»[١]، وقد سلم القرآن من هذا كله مع تفننه في مختلف الأغراض وما تقتضيه من تكاثر الألفاظ، وبعض العلماء أورد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ [يس: ٦٠]، وقوله: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]، وتصدَّى للجواب[٢]، والصواب أن ذلك غير وارد كما قاله المحققون[٣] لعدم بلوغه حد الثقل، ولأن حسن دلالة اللفظ على المعنى بحيث لا يخلفه فيها غيره مقدم على مراعاة خفة لفظه، فقد اتفق أئمة الأدب على أن وقوع اللفظ المتنافر في أثناء الكلام الفصيح لا يزيل عنه وصف الفصاحة[٤]، فإن العرب لم يعيبوا معلقة امرئ القيس ولا معلقة طرفة.

قال أبو العباس المبرد: «وقد يضطر الشاعر المفلق والخطيب المصقع والكاتب البليغ فيقع في كلام أحدهم المعنى المستغلق واللفظ المستكره، فإذا انعطفت عليه جنبتا الكلام غطتا على عواره وسترتا من شينه»)[٥].

وما قرره ابن عاشور يمكن أن يعلق عليه كما يلي:

١ ـ التنافر من عوارض الألفاظ في الأصل، وقد يعرض للمعاني، وذلك إذا كانت بعض المعاني تناقض بعضًا، ولا تلائمه[٦].

---

(١) **هو**: عجز بيت صدره هو: وقبر حرب بمكان قفر، ولا يعلم قائله، **انظر**: الحيوان (٧/ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).

(٢) وممن فعل ذلك السبكي، وفي ذلك يقول رَحِمَهُ اللهُ: (ولا يرد قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ لأن في مَخرجي الميم والنون وهما طرف اللسان والشفة وذلاقتهما وتوسطهما بين الضعف والقوة ما أزال ثقل التكرار)، **انظر**: عروس الأفراح (١/ ١٩٩).

(٣) **انظر**: عروس الأفراح (١/ ١٩٩).

(٤) **انظر**: معجم البلاغة العربية (ص٦٧٠).

(٥) الكامل (١/ ٢٧)، **وانظر**: التحرير والتنوير (١/ ١١٢ ـ ١١٣).

(٦) **انظر**: المعجزة الكبرى (ص١٢٧).

٢ ـ سلامة القرآن الكريم من التنافر وبناؤه على التآلف اللفظي والمعنوي مع كثرة ألفاظه وتنوع أغراضه هو وجهٌ من وجوه إعجازه(١).

٣ ـ ألفاظ القرآن الكريم التي ظاهرها الثقل اللفظي لا يصح أن يطلق عليها وصف التنافر **لسببين**:

- أنها لم تبلغ حد الثقل الواقع في الألفاظ المتنافرة.
- أن مراعاة دلالة اللفظ على المعنى بحيث لا يخلفه غيره مقدمةٌ على مراعاة خفة اللفظ.

المسألة الثانية: استعمال أحسن اللهجات الواردة في أداء اللفظ القرآني:

(الأصل فيمن نزل القرآن بلغتهم قريش... وكان طبيعيًّا أن يكون القرآن بلغة قريش؛ لأن رسول الله ﷺ قرشي، ثم ليكون هذا الكلام زعيم اللغات كلها كما استمازت قريش من العرب بجوار البيت وسقاية الحاج، وعمارة المسجد الحرام، وغيرها من خصائصهم، وقد أَلِفَ العربُ أمرَهم ذلك واحتملوا عليه، وأفردوهم به، فلأن يألفوا مثله في كلام الله أولى)(٢).

وفي معرض بيان المزية في لهجة قريش على سائر العرب، وما لذلك من أثر في اللفظ القرآني **قال ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما ما يعرض للهجات العرب فذلك شيء تفاوتت في مضماره جياد ألسنتهم، وكان المجلي فيها لسان قريش ومن حولها من القبائل المذكورة في المقدمة السادسة(٣)، وهو مما فُسِّر به حديث: (أُنْزِلَ القُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ)(٤)، ولذلك جاء القرآن بأحسن اللَّهجات وأخفها وتجنب المكروه

---

(١) **انظر**: معترك الأقران (١/ ٢٣).
(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص٦٢ ـ ٦٣).
(٣) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ٥١).
(٤) أخرجه البخاري، كتاب الخصومات، باب كلام الخصوم بعضهم في بعض، =

من اللهجات، وهذا من أسباب تيسير تلقي الأسماع له ورسوخه فيها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧])[1].

المسألة الثالثة: استعمال أصرح الألفاظ في لغة العرب دلالة على المعاني المقصودة:

إن ألفاظ القرآن الكريم تستعمل في مواضعها من الجملة، وهذه الألفاظ هي وحدها التي يمكن أن تؤدي المعنى المراد من السياق القرآني كاملًا، وهذا ما يسمِّيه ابن عاشور صراحةَ كلماتِ القرآنِ الكريم، ويسمِّيه بعض الباحثين بالدقة في الاختيار[2].

وفي بيان صراحة كلمات القرآن الكريم قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: (ومما أعده في هذه الناحية صراحة كلماته باستعمال أقرب الكلمات في لغة العرب دلالة على المعاني المقصودة وأشملها لمعان عديدة مقصودة بحيث لا يوجد في كلمات القرآن كلمة تقصر دلالتها عن جميع المقصود منها في حالة تركيبها ولا تجدها مستعملة إلا في حقائقها، مثل إيثار كلمة حرد في قوله تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥] إذ كان جميع معاني الحرد صالحًا للإرادة في ذلك الغرض، أو مجازات أو استعارات أو نحوها مما تنصب عليه القرائن في الكلام، فإن اقتضى الحال تصرفًا في معنى اللفظ كان التصرف بطريق التضمين وهو كثير في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠]، فجاء فعل أتوا مضمنًا معنى مرُّوا فعُدِّي بحرف على؛ لأن الإتيان تعدَّى إلى اسم القرية والمقصود منه الاعتبار بمآل أهلها فإنه يقال أتى أرض

= (٢/ ٨٥١) برقم (٢٢٨٧)، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه، (١/ ٥٦٠) برقم (٨١٨).

(١) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١١٣). (٢) **انظر**: الإعجاز الفني (ص٧٥).

بني فلان، ومر على حي كذا)[١].

وما ذكره ابن عاشور يتضمن بعض الأمور الهامة في تبيين صراحة كلمات القرآن الكريم، وعلاقتها بإعجاز القرآن، **وهي كما يلي:**

أولًا: الجانب النظري:

وعرض فيه ابن عاشور رحمه الله **للقضايا التالية:**

١ ـ صراحة كلمات القرآن الكريم تعني استعمال أقرب الكلمات في لغة العرب دلالة على المعاني المقصودة وأشملها لمعان عديدة مقصودة.

٢ ـ ما يرد من استعمال لكلمات مع وجود ما هو أقرب منها في الظاهر هو لاقتضاء الحال والمقام ذلك، وهذا يوضح العلاقة بين مراعاة مقتضى الحال، والتي هي أساس معنى البلاغة، وبين الألفاظ القرآنية[٢].

ثانيًا: الجانب التطبيقي:

وقد تناول ابن عاشور في هذه المسألة عددًا من الأمثلة، **ومنها:** قوله تعالى: ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥].

---

(١) التحرير والتنوير (١/١١٣).

(٢) وهذا خلافًا لما يظهر من كلام الجرجاني في دلائل الإعجاز حيث يجعل المزية كلها للمعاني، وحال الكلام، ولا يعطي اللفظ مزية تُذكر، والظاهر أن المزية في الكلام لهما معًا، وما يظهر من استعمال للألفاظ له تعلق بالمعاني، وهذه القضية، وهي علاقة اللفظ بالمعنى أكبر من أن تذكر في هذه العجالة، وإنما جاءت مناسبتها من خلال ما يفيده كلام ابن عاشور من تأثر اللفظ بالمعنى، وما يقتضيه الحال، **انظر:** دلائل الإعجاز (ص٢٥٥)، أسس النقد الأدبي (ص٣٥٧ ـ ٣٦٧)، قضايا النقد الأدبي (ص١٤٩).

وجه الدلالة: استعمال كلمة حرد في الآية الكريمة لأن جميع معاني الحرد تشمله الآية الكريمة، ومعاني الحرد في اللغة العربية متعددة، ومنها: القصد إلى الشيء، والغضب، والإسراع، والانفراد، وقلة الخير أو المنع، والجدّ في الأمر، والتنحي عن القوم(١)، وهذه المعاني جميعًا يحتملها السياق القرآني، ولا توجد كلمة أخرى تدل على هذه المعاني كدلالة كلمة حرد.

◆ المسألة الرابعة: إيثار لفظ على آخر يقاربه في المعنى مراعاة للإعجاز اللفظي:

(يتأنق أسلوب القرآن في اختيار ألفاظه، ولما بين الألفاظ من فروق في دلالتها يستخدم كلًّا حيث يؤدي معناه في دقة فائقة تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما كانت(٢) له تلك الكلمة بعينها وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذي وفت به أختها)(٣).

وإيثار بعض ألفاظ القرآن الكريم على بعض يسمِّيه بعض الباحثين الدقة في الوضع(٤)، وهذا الإيثار لبعض الألفاظ في القرآن الكريم على ما يقاربها في المعنى هو مما يبين عدم صحة القول بالترادف في اللغة العربية، و(من قديم شغلت قضية الترادف علماء العربية، واختلفت مذاهبهم فيها، والبيان القرآني يجب أن يكون له القول فيما اختلفوا فيه، حين يهدي إلى سرِّ الكلمة لا تقوم مقامها كلمةٌ سواها من الألفاظ

---

(١) **انظر:** القاموس المحيط (ص٣٥٣)، لسان العرب (٣/ ١٤٤).

(٢) في الكتاب المنقول عنه: كأنما خلقت له تلك الكلمة، وكلمة «خلقت» مما يوهم أن كلمات القرآن الكريم مخلوقة، وهو قول المعتزلة، لذا آثرت تغييرها بكلمة كانت.

(٣) من بلاغة القرآن (ص٥٧).

(٤) **انظر:** الإعجاز الفني (ص٧٢).

المقول بترادفها)(١).

وقد كان لابن عاشور دورٌ في الإشارة إلى هذا الإيثار لبعض الألفاظ على بعض، **ومن ذلك قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عند تفسيره لقوله تعالى:** ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤] **حيث قال:** (وإيثار لفظ كرَّتين في هذه الآية دون مرادفه نحو مرتين وتارتين لأن كلمة كَرَّة لم يغلب إطلاقًا على عدد الاثنين فكان إيثارها في مقام لا يراد فيه اثنين أظهر في أنها مستعملة في مطلق التكرير دون عدد اثنين أو زوج، وهذا من خصائص الإعجاز، ألا ترى أن مقام إرادة عدد الزوج كان مقتضيًا تثنية مرة في قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩] لأنه أظهر في إرادة العدد إذ لفظ مرة أكثر تداولًا، وتثنية ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ ليس المراد بها عدد الاثنين الذي هو ضعف الواحد إذ لا يتعلق غرض بخصوص هذا العدد، وإنما التثنية مستعملة كناية عن مطلق التكرير، فإن من استعمالات صيغة التثنية في الكلام أن يراد بها التكرير... فمعنى ﴿ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ عاود التأمل في خلق السماوات وغيرها غير مرة. والانقلاب: الرجوع، يقال: انقلب إلى أهله؛ **أي:** رجع إلى منزله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١] وإيثار فعل ﴿يَنقَلِبْ﴾ هنا دون: يرجع، لئلَّا يلتبس بفعل ﴿ٱرْجِعِ﴾ المذكور قبله، وهذا من خصائص الإعجاز، نظير إيثار كلمة ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ كما ذكرناه آنفًا)(٢).

وفي هذه الآية الكريمة يذكر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلمتين آثرهما القرآن الكريم على مرادفاتهما، وهما ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ و﴿يَنقَلِبْ﴾، وفيما يلي مزيد بيان لما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن (ص١٩٣). (٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ١٩ ـ ٢٠).

أولًا: إيثار لفظ ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾ على ما يرادفه في المعنى:

جاء في الآية الكريمة لفظ ﴿كَرَّتَيۡنِ﴾ ولم يأتِ مرتين أو تارتين أو نحوه، وقد قال بعض العلماء رحمهم الله تعالى بعدم وجود فرق بين اللفظين، وأن المراد هو إعادة النظر مرتين فقط[(١)]، **وخصَّ المرتين لأسباب:**

١ ـ أنه يمكن الغلط في الأولى فيستدرك بالثانية.

٢ ـ أن النظرة الأولى ليرى حسن السماء واستواءها، والثانية، ليبصر كواكبها في سيرها وانتهائها.

٣ ـ أن المراد النظر بالقلب والبصر[(٢)].

وقال بعض العلماء بوجود فرق بين التعبيرين، وأن استعمال لفظ (كرَّتين) دون ما عداه إنما كان لحكمةٍ، وفائدة[(٣)]، وقد استدل القائلون بهذا القول بقوله تعالى في ختام الآية الكريمة: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ [الملك: ٤]، ووجه الدلالة أن ما تضمَّنته الآية الكريمة لا يتحقق من المرتين غالبًا[(٤)]، كما استدلوا بأن تكرير النظر مرتين فقط لا يتعلق به غرض صحيح[(٥)]، وأن كلمة كرَّة لم يعهد استخدامها مثناةً للدلالة على الاثنين[(٦)]، وهذا القول يؤيده أن أسلوب القرآن الكريم يراعي اختيار الألفاظ ويؤثر بعضها على بعض لفائدةٍ وحكمة، والله أعلم.

---

(١) وممن قال بهذا القول القرطبي، والثعالبي رحمهما الله تعالى، **انظر**: الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ١٨٤)، الجواهر الحسان (٥/ ٤٥٨).

(٢) **انظر**: النكت والعيون (٦/ ٥١)، روح المعاني (٢٩/ ٧).

(٣) بهذا القول قال أكثر المفسرين، **انظر**: تفسير القرآن العظيم (٨/ ١٧٧)، البحر المحيط (٨/ ٢٩٣)، مفاتيح الغيب (٣٠/ ٥٩).

(٤) **انظر**: البحر المحيط (٨/ ٢٩٣)، روح المعاني (٢٩/ ٧).

(٥) **انظر**: التحرير والتنوير (٢٩/ ١٩).

(٦) **انظر**: السابق.

ثانيًا: إيثار لفظ ﴿يَنقَلِبْ﴾ على ما يرادفه في المعنى:

جاء في الآية الكريمة لفظ ﴿يَنقَلِبْ﴾ دون لفظ يرجع ونحوه من الألفاظ القريبة في المعنى، وقد علَّل ابن عاشور ذلك **بقوله:** (لئلَّا يلتبس بفعل ﴿أَرْجِعِ﴾ المذكور قبله)، ولم أقف على من نبَّه على هذا المعنى من المفسِّرين، والله أعلم.

المسألة الخامسة: استعمال الألفاظ الوجيزة للدلالة على المعاني العديدة:

تميز القرآن الكريم عن سائر الكلام باحتواء المعاني الكثيرة في ألفاظٍ، وجملٍ قصيرة، وهذه المزية قد لقيت عناية من ابن عاشور، **ومما قاله** رَحِمَهُ اللَّهُ **فيها:** (فالقرآن من جانب إعجازه يكون أكثر معاني من المعاني المعتادة التي يودعها البلغاء في كلامهم، وهو لكونه كتاب تشريع وتأديب وتعليم كان حقيقًا بأن يودع فيه من المعاني والمقاصد أكثر ما تحتمله الألفاظ في أقل ما يمكن من المقدار بحسب ما تسمح به اللغة الوارد هو بها التي هي أسمح اللغات بهذه الاعتبارات، ليحصل تمام المقصود من الإرشاد الذي جاء لأجله في جميع نواحي الهدى، فمعتاد البلغاء إيداع المتكلم معنى يدعوه إليه غرض كلامه وترك غيره، والقرآن ينبغي أن يودع من المعاني كل ما يحتاج السامعون إلى علمه وكل ما له حظ في البلاغة سواء كانت متساوية أم متفاوتة في البلاغة إذا كان المعنى الأعلى مقصودًا وكان ما هو أدنى منه مرادًا معه لا مرادًا دونه سواء كانت دلالة التركيب عليها متساوية في الاحتمال والظهور أم كانت متفاوتة بعضها أظهر من بعض ولو أن تبلغ حد التأويل وهو حمل اللفظ على المعنى المحتمل المرجوح[1]... وقد

---

(١) **انظر:** المختصر في أصول الفقه (ص١٣١).

تكثر المعاني بإنزال لفظ الآية على وجهين أو أكثر تكثيرًا للمعاني مع إيجاز اللفظ وهذا من وجوه الإعجاز)[١].

وموضوع الألفاظ، والتراكيب القرآنية، وكثرة دلالاتها موضوعٌ أفرده ابن عاشور بمقدمة من مقدمات تفسيره، وهي المقدمة التاسعة[٢]، **وحاصل ما قرره** رَحِمَهُ اللَّهُ **في هذا الموضوع يمكن إجماله في النقاط التالية:**

أولًا: السبب في استعمال الألفاظ الوجيزة في معانٍ عديدة:

إن السبب في استعمال الألفاظ الوجيزة في معانٍ عديدة هو مراعاة أساليب العرب في كلامهم ذلك أن (العرب أمة جبلت على ذكاء القرائح وفطنة الأفهام، فعلى دعامة فطنتهم وذكائهم أقيمت أساليب كلامهم، وبخاصة كلام بلغائهم، ولذلك كان الإيجاز عمود بلاغتهم لاعتماد المتكلمين على أفهام السامعين)[٣]، **ومن الأسباب في استعمال الألفاظ الوجيزة ما أشار إليه ابن عاشور بقوله:** (وقد تكثر المعاني بإنزال لفظ الآية على وجهين أو أكثر تكثيرًا للمعاني مع إيجاز اللفظ)[٤].

ثانيًا: أدلة تبين استعمال الألفاظ الوجيزة للدلالة على معانٍ عديدة:

ذكر ابن عاشور عددًا من الأدلة على استعمال القرآن الكريم للألفاظ الوجيزة للدلالة على معانٍ عديدة، **ومن تلك الأدلة:**

١ ـ دلالة القراءات القرآنية: إذ إن هذه القراءات قد تختلف في قراءة لفظ من الألفاظ اختلافًا يؤثر في المعنى، فيكون المعنى متعددًا

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٩٣ ـ ٩٤).
(٢) **انظر:** التحرير والتنوير (١/ ٩٣ ـ ١٠٠).
(٣) التحرير والتنوير (١/ ٩٣).
(٤) التحرير والتنوير (١/ ٩٤).

والـلـفـظ واحـدًا، **وفـي ذلـك يـقـول ابـن عـاشـور** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإن الـقـراءات المتواترة إذا اختلفت في قراءة ألفاظ القرآن اختلافًا يفضي إلى اختلاف المعاني لمما يرجع إلى هذا الأصل)[١].

٢ ـ دلالة النصوص التفسيرية الواردة عن النبي ﷺ: وفي بيان وجه دلالة هذه النصوص **يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ: (ويدل لتأصيلنا هذا ما وقع إلينا من تفسيرات مروية عن النبي ﷺ لآيات، فنرى منها ما نوقن بأنه ليس هو المعنى الأسبق من التركيب؛ ولكنا بالتأمل نعلم أن الرسول عليه الصلاة والسلام ما أراد بتفسيره إلا إيقاظ الأذهان إلى أخذ أقصى المعاني من ألفاظ القرآن)[٢].

*** مثال على دلالة النصوص التفسيرية الواردة عن النبي ﷺ:**

لقد مثَّل ابن عاشور لهذه النصوص في المقدمة التاسعة بأربعة أمثلة نقتصر منها على مثال واحد يبين المراد، وهو حديث أبي سعيد بن المعلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[٣] قال: (دعاني رسول الله ﷺ وأنا في الصلاة فلم أجبه، فلما فرغت أقبلت إليه فقال: (**مَا مَنَعَكَ أَنْ تُجِيبَنِي؟**) فقلت: يا رسول الله كنت أصلي، فقال: (**أَلَمْ يَقُلِ اللهُ** عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤])[٤].

يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ **معلقًا على هذا الحديث:** (فلا شك أن

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٩٦) والأصل المراد هنا هو دلالة الألفاظ الوجيزة على المعاني الكثيرة.

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٩٤).

(٣) **أبو سعيد بن المعلَّى:** هو الحارث بن نفيع بن المعلَّى الأنصاري الزرقي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، توفي سنة ٧٤هـ، **انظر:** الاستيعاب (٤/ ١٦٧٠)، الإصابة (٧/ ١٧٥).

(٤) الحديث: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ما جاء في فاتحة الكتاب (٤/ ١٦٢٣) برقم (٤٢٠٤).

المعنى المسوقة فيه الآية هو الاستجابة بمعنى الامتثال كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢] وأن المراد من الدعوة الهداية كقوله: ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] وقد تعلق فعل ﴿دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] بقوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] أي لما فيه صلاحكم، غير أن لفظ الاستجابة لما كان صالحًا للحمل على المعنى الحقيقي أيضًا وهو إجابة النداء حمل النبي ﷺ الآية على ذلك في المقام الصالح له بقطع النظر عن المتعلق وهو قوله: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾)[١].

٣ - دلالة فهم الصحابة رضي الله عنهم: فقد فهم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أن ألفاظ القرآن الكريم يمكن استعمالها في معانٍ عديدة غير المعاني الأصلية التي جاءت الآيات الكريمة لتقريرها، ومن ذلك ما جاء عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: (احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذَاتِ السَّلَاسِلِ[٢] فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك فتيمّمت ثم صلّيت بأصحابي الصبح فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: (**يَا عَمْرُو، صَلَّيْتَ بِأَصْحَابِكَ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟**) فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئًا)[٣].

قال ابن عاشور عقب هذا الحديث: (مع أن مورد الآية أصله في

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٩٤ - ٩٥).

(٢) غزوة ذات السلاسل سُمِّيت بمياه يقال لها سلسل، والجمع: سلاسل، **انظر**: عيون الأثر (٢/ ٢١٤).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب إذا خاف الجنب البرد أيتيمم؟ (١/ ١٤٥) برقم (٣٣٤)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الطهارة، باب التيمم، (٤/ ١٤٢) برقم (١٣١٥) وصححه الألباني.

النهي عن أن يقتل الناس بعضهم بعضًا)(١).

ثالثًا: من أهم ما يندرج تحت هذه المسألة:

إن من أهم ما يندرج تحت هذه المسألة استعمال اللفظ المشترك على جميع معانيه، واللفظ في معناه الحقيقي والمجازي معًا، **وقد نبه ابن عاشور** رحمه الله **على هذا الأمر حيث يقول:** (ومن أدق ذلك وأجدره بأن ننبه عليه في هذه المقدمة استعمال اللفظ المشترك في معنييه أو معانيه دفعة، واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي ومعناه المجازي معًا. بله إرادة المعاني المكنى عنها مع المعاني المصرَّح بها وإرادة المعاني المستتبَعات «بفتح الباء» من التراكيب المستتبِعة «بكسر الباء»، وهذا الأخير قد نبَّه عليه علماء العربية الذين اشتغلوا بعلم المعاني والبيان، وبقي المبحثان الأولان وهما استعمال المشترك في معنييه أو معانيه واستعمال اللفظ في حقيقته ومجازه محل تردد بين المتصدِّين لاستخراج معاني القرآن تفسيرًا وتشريعًا سببه أنه غير وارد في كلام العرب قبل القرآن أو واقع بندرة، فلقد تجد بعض العلماء يدفع محملًا من محامل بعض آيات بأنه محمل يفضي إلى استعمال المشترك في معنييه أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ويعدون ذلك خطبًا عظيمًا... والذي يجب اعتماده أن يحمل المشترك في القرآن على ما يحتمله من المعاني سواء في ذلك اللفظ المفرد المشترك والتركيب المشترك بين مختلف الاستعمالات سواء كانت المعاني حقيقية أو مجازية محضة أو مختلفة)(٢).



---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٩٦).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ٩٨ - ٩٩).





الإعجازُ بترتيبِ الآياتِ

(انعقد إجماع الأمة على أن ترتيب آيات القرآن الكريم على هذا النمط الذي نراه اليوم بالمصاحف كان بتوقيف من النبي ﷺ عن الله تعالى وأنه لا مجال للرأي والاجتهاد فيه)[1].

يقول ابن عاشور رحمه الله: (وأما ترتيب الآي بعضها عقب بعض فهو بتوقيف من النبي ﷺ حسب نزول الوحي، ومن المعلوم أن القرآن نزل منجمًا آيات، فربما نزلت عدة آيات متتابعة أو سورة كاملة كما سيأتي قريبًا، وذلك الترتيب مما يدخل في وجوه إعجازه من بداعة أسلوبه، كما سيأتي في المقدمة العاشرة[2]، فلذلك كان ترتيب آيات السورة الواحدة على ما بلغتنا عليه متعيِّنًا بحيث لو غُيِّر عنه إلى ترتيب آخر لنزل عن حد الإعجاز الذي امتاز به، فلم تختلف قراءة النبي ﷺ في ترتيب آي السور على نحو ما هو في المصحف الذي بأيدي المسلمين اليوم، وهو ما استقرت عليه رواية الحفاظ من الصحابة عن العرضات الأخيرة التي كان يقرأ بها النبي ﷺ في أواخر سني حياته الشريفة)[3].

فترتيب الآيات داخل في وجوه إعجاز القرآن الكريم اللغوي، وقد تناول العلماء هذا الترتيب بالتأمل والبيان، وصنفوا في ذلك علم

---

(١) مناهل العرفان (١/ ٢٣٩).

(٢) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٢٠).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٧٩).

المناسبات القرآنية، وهذا العلم وإن كان معتنيًا بالمناسبات بين السور أيضًا إلا أن غالبه في التناسب بين الآيات القرآنية، وإبراز ما يتعلق بترتيبها، و(ترتيب الآيات بهذه الطريقة مع الانفصال التاريخي بين أول ما نزل وآخر ما نزل، ومع ما نعلمه عنه من ارتباط كل نجم بحادثة معينة من أحداث الزمن ووقائعه، ثم ما نجده فيه من الانسجام والترابط، خارج عن طوق البشر)(١).

ولذا فإن من الأمور المبينة للإعجاز بترتيب الآيات: النظر في علم المناسبات بين الآيات.

وقد ذكر ابن عاشور عددًا من الأمثلة التي تبيِّن الإعجاز في ترتيب الآيات، أو في مواقع الجُمل كما يعبر عنه أحيانًا، ومن ذلك:

١ ـ تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]:

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: (لهذه الجملة موقع تتجلَّى فيه صورة من صور إعجاز القرآن في ترتيب مواقع الجُمل بعضها بعد بعض كما نبهت عليه في مواقع سلفت. فهذه الجملة لها موقع الاستئناف البياني ناشئ عمَّا اشتملت عليه جمل ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾، لأن استعداد السامعين لليقين بما تضمَّنته تلك الجُمل متفاوت، فقد يستبعد بعض السامعين تحقق الوعد لأمثاله بما تضمَّنته تلك الجمل يعرضها على ارتباك أحواله أو يتردد يقينه فيقول: أين أنا من تحصيل هذا حين يتبع نظره فيرى بونًا عن حصول الموعود بسبب انعدام وسائله لديه فيتملكه اليأس.

فهذا الاستئناف البياني وقع عقب الوعد تذكيرًا بأن الله علم

---

(١) الإعجاز القرآني، وجوهه وأسراره (ص٣٦) بتصرف يسير.

مواعيده وهيأ لها مقادير حصولها لأنه جعل لكل شيء قدرًا.

ولها موقع التعليل لجملة ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾، فإن العدة من الأشياء فلما أمر الله بإحصاء أمرها علّل ذلك بأن تقدير مدة العدة جعله الله فلا يسوغ التهاون فيه.

ولها موقع التذييل لجملة: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾؛ **أي**: الذي وضع تلك الحدود قد جعل لكل شيء قدرًا لا يعدوه كما جعل الحدود.

ولها موقع التعليل لجملة: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ لأن المعنى إذا بلغن القدر الذي جعله الله لمدة العدة فقد حصل المقصد الشرعي الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾﴾، **فالمعنى**: فإن لم يحدث الله أمر المراجعة فقد رفق بكم وحط عنكم امتداد العدة.

ولها موقع التعليل لجملة: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾، فإن الله جعل الشهادة قدرًا لرفع النزاع، فهذه الجملة جزء آية وهي تحتوي على حقائق من الحكمة)[1].

٢ - تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١]:

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإنما حَملت الآية هذه المعاني بحسن موقعها في هذا الموضع، وهذا من بلاغة نظم القرآن، ولو وقعت إثر قوله: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٩] لتمحض ضمير ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ للعود إلى سقر، وهذا من الإعجاز بمواقع جمل القرآن)[2].

٣ - تفسير قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/ ٣١٣ - ٣١٤). (٢) التحرير والتنوير (٢٩/ ٣٢٠).

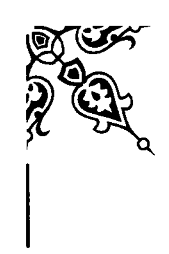
لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١ ـ ٣٥].

قال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وجاء ترتيب الآيات في منتهى الدقة، فبدأت بذكر إكرامهم بقوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾، ثم بذكر أن الجنة جزاؤهم الذي وعدوا به فهي حق لهم، ثم أومأت إلى أن ذلك لأجل أعمالهم بقوله: ﴿...لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾... إلخ، ثم ذكرت المبالغة في إكرامهم بعد ذلك كله بقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾، ثم طمأنهم بأن ذلك نعيمٌ خالدٌ، وزِيدَ في إكرامهم بأن لهم ما يشاؤون مما لم يروه حين الدخول، وبأن الله وعدهم بالمزيد من لدنه)[1].



(١) التحرير والتنوير (٢٦/٣٢١ ـ ٣٢٢).





المَبْحَثُ الرَّابِعُ

الإعجــازُ الأُسْلُــوبِي

(جاء القرآن الكريم بأساليب متنوعة في توجيهاته، ووجوه خطابه، نظرًا لاختلاف المخاطبين في أحوالهم ومستوياتهم، وتعدد الأغراض التي قصد إليها، والمواضيع التي عالجها، والحقائق التي كشف لهم عنها)[١]، **وفيما يلي مزيد بيان لذلك:**

تمهيد

المسألة الأولى: الإعجاز الأسلوبي لا يُبْحَثُ في علم البلاغة:

بيَّن العلماء رحمهم الله تعالى أن ما يتعلق بالأسلوب من مباحث لا تُذكر في كتب البلاغة، **وفي هذا يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ اللهُ: (وأما الجهة الثانية وهي ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في أساليب الكلام البليغ، وهذه جهة مغفولة من علم البلاغة)[٢].

وقريبًا من هذا قول ابن خلدون[٣] رَحِمَهُ اللهُ: (ولنذكر هنا سلوك لفظة الأسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في إطلاقهم. فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي تنسج فيه التراكيب، أو القالب الذي يفرغ فيه.

(١) لغة القرآن الكريم (ص٢٨٧). (٢) التحرير والتنوير (١/ ١١٣).

(٣) أبو زيد عبد الرحمٰن بن محمد بن محمد، ابن خلدون، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، ولد سنة ٧٣٢هـ، وتوفي سنة ٨٠٨هـ، **انظر**: الضوء اللامع (٤/ ١٤٥)، الأعلام (٣/ ٣٣٠).

ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته كمال المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته أصل المعنى من خواص التراكيب، الذي هو وظيفة البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض. فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية)[١].

وليس هذا تقصيرًا وقعت فيه كتب البلاغة كما ظنه بعضهم[٢]، وإنما هو التخصص وتقسيم العلوم إلى أقسام وفروع كل فرع منها يتناول جانبًا لا يتناوله الآخر.

◄ المسألة الثانية: أنواع أساليب العرب:

عرف العرب الأوائل عددًا من الأساليب البيانية التي تؤدى من خلالها الفكرة، **وكانت هذه الأساليب ترجع في مجملها إلى نوعين: النثر والشعر، وفي ذلك يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فاعلم أن أدب العرب نوعان: شعر ونثر[٣]، والنثر: خطابة وأسجاع كهَّان، وأصحاب هذه الأنواع وإن تنافسوا في ابتكار المعاني وتفاوتوا في تراكيب أدائها في الشعر فهم بالنسبة إلى الأسلوب قد التزموا في أسلوبي الشعر والخطابة طريقة واحدة تشابهت فنونها، فكادوا لا يَعْدون ما ألفوه من ذلك، حتى إنك لتجد الشاعر يحذو حذو الشاعر في فواتح القصائد، وفي كثير من تراكيبها، فكم من قصائد افتتحت بقولهم: (بانت سعاد) للنابغة[٤]

---

(١) مقدمة ابن خلدون (ص٧٨٥ ـ ٧٨٦). (٢) **انظر**: الأسلوب (ص٣٦).

(٣) **انظر**: العمدة (١/ ٩).

(٤) **النابغة**: زياد بن معاوية بن ضباب، أبو أمامة النابغة الذبياني، وهو من الطبقة الأولى المقدمين على سائر الشعراء، توفي في سنة ١٨ قبل الهجرة تقريبًا، **وبيته المقصود هنا هو**:

بَانَتْ سُعَادُ وَأَمْسَى حَبْلُهَا انْصَرَمَا وَاحْتَلَّتِ الشَّرْعَ فَالأَجْزَاعَ مِنْ إِضَمَا

انظر: ديوان النابغة (ص٦١)، وترجمته في: الأعلام (٣/ ٥٤).

وكعب بن زهير[١]، وكم من شعر افتتح بـ(يا خليلي اربعا واستخبرا)، وكم من شعر افتتح بـ(يا أيها الراكب المزجي مطيته)[٢].

وقال امرؤ القيس في معلَّقته:

وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ... يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكْ أَسًى، وَتجَمَّلِ[٣]

فقال طرفة في معلَّقته بيتًا مماثلًا له سوى أن كلمة القافية منه: وتجلَّد[٤]، وكذلك القول في خطبهم تكاد تكون لهجة واحدة وأسلوبًا واحدًا فيما بلغنا من خطب سحبان[٥]، وقس بن ساعدة[٦]، وكذلك أسجاع الكهَّان وهي قد اختصَّت بقصر الفقرات وغرابة الكلمات، وإنما كان الشعر الغالب على كلامهم وكانت الخطابة بحالة ندور لندرة مقاماتها، قال عمر: (كان الشعر علم القوم ولم يكن لهم علم أصح منه)[٧]، فانحصر تسابق جياد البلاغة في ميدان الكلام المنظوم)[٨].

---

(١) **قال كعب بن زهير:**

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ ... مُتَيَّمٌ إِثْرَهَا لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

انظر: ديوان كعب بن زهير (ص٦٠).

(٢) ممن ابتدأ بهذا المطلع من الشعراء: رويشد الطائي، وجرير، والأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن بن علي، **انظر**: نفح الطيب (٣/ ١٠٢).

(٣) **انظر**: شرح المعلقات العشر (ص٣٢).

(٤) **انظر**: شرح المعلقات العشر (ص٩١).

(٥) **سحبان**: سحبان بن زفر بن إياس الوائلي، يضرب به المثل في البيان، اشتهر في الجاهلية وعاش زمنًا في الإسلام، أسلم في زمن النبي ﷺ ولم يجتمع به، توفي سنة ٥٤هـ رحمه الله، **انظر**: الإصابة (٣/ ٢٥٠)، الأعلام (٣/ ٧٩).

(٦) **قس**: قس بن ساعدة بن حذافة الإيادي، أحد حكماء العرب، ومن كبار خطبائهم، في الجاهلية، توفي سنة ٢٣ قبل الهجرة، **انظر**: الأعلام (٥/ ١٩٦).

(٧) لم أجد هذا الأثر فيما وقفت عليه من المصادر.

(٨) التحرير والتنوير (١/ ١١٣ ـ ١١٤).

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

المراد بالإعجاز الأسلوبي

(إذا سمع الناس كلمة الأسلوب فهموا منها هذا العنصر اللفظي الذي يتألف من الكلمات فالجمل والعبارات، وربما قصروه على الأدب وحده دون سواه من العلوم والفنون، وهذا الفهم... يُعوزه شيء من العمق والشمول ليكون أكثر انطباقًا على ما يجب أن يؤديه هذا اللفظ من معنى صحيح)(١)، **وفيما يلي محاولة لتجلية معنى الأسلوب:**

◄ المسألة الأولى: المراد بالأسلوب:

أولًا: المراد بالأسلوب في اللغة:

يطلق الأسلوب في اللغة على عدد من المعاني يجمعها قول الفيروزآبادي: (والأُسْلُوبُ: الطَّريقُ، وعُنُقُ الأَسَدِ، والشُّمُوخُ في الأَنْفِ)(٢).

وفي لسان العرب: (ويقال للسَّطْر من النخيل أُسْلوبٌ، وكلُّ طريقٍ ممتدٍّ فهو أُسلوبٌ... والأُسْلوبُ: الطريق، والوجهُ، والمَذْهَبُ، يقال: أَنتم في أُسْلُوبِ سُوءٍ، ويُجمَعُ: أَسالِيبَ، والأُسْلُوبُ: الطريقُ تأْخذ فيه، والأُسْلوبُ بالضم: الفَنُّ، يقال: أَخَذ فلانٌ في أَسالِيبَ من القول؛ **أَي**: أَفانِينَ منه، وإِنَّ أَنْفَه لفي أُسْلُوبٍ، إِذا كان مُتكبِّرًا)(٣).

ثانيًا: المراد بالأسلوب في الاصطلاح:

بعد استعراض المعاني اللغوية للأسلوب نتعرَّف على معنى

---

(١) الأسلوب (ص٤٠).
(٢) القاموس المحيط (ص١٢٥).
(٣) لسان العرب (١/ ٤٧١).

الأسلوب في الاصطلاح، وقد تعددت عبارات العلماء رحمهم الله تعالى في بيان المراد من الأسلوب في الاصطلاح، فمن ذلك قول الجرجاني: (والأسلوبُ: الضربُ مِنَ النَّظمِ والطريقةُ فيه)[١].

ومن ذلك قول ابن خلدون: (لنذكر هنا سلوك الأسلوب عند أهل هذه الصناعة؛ [أي: صناعة الشعر] وما يريدون بها في إطلاقهم، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب، أو القالب الذي يفرغ فيه، ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب، ولا باعتبار إفادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان، ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض، فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية)[٢].

وقيل في تعريف الأسلوب: هو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير[٣] وقيل هو: طريقة

---

(١) دلائل الإعجاز (ص٤٦٨)، وهذا التعريف الذي ذكره الجرجاني للأسلوب جاء في معرض كلامه عن الشعر؛ لذا فهو تعريفٌ للأسلوب من ناحية أدبية، ولا يصلح تعريفًا للأسلوب القرآني، والله أعلم.

(٢) مقدمة ابن خلدون (ص٧٨٥ ـ ٧٨٦)، وظاهر من خلال عرض كلام ابن خلدون أنه يتكلم عن الأسلوب في باب الشعر، وهذا الكلام لا يصلح تعريفًا لأسلوب القرآن الكريم لما بين الأسلوبين من مباينة ظاهرة.

(٣) وينتقد هذا التعريف بكونه غير جامع لأنواع الأساليب القرآنية، ومن جهة أخرى فإنه لا يتناسب مع حقيقة الأسلوب القرآني، فالقرآن وإن تميز بأسلوبه الأدبي فإنه قد حوى كذلك خصائص الأسلوب العلمي، ومن جهة ثالثة يقال: إذا تناسب هذا التعريف مع الأدباء من بني البشر لقصور علمهم فقد تشتبه عليهم الألفاظ المتقاربة إلا أنه لا يتناسب مع أسلوب العليم الحكيم الذي أحاط بكل شيء علمًا وأتقن كل شيء صنعًا، وأخيرًا فإن هذا التعريف يشير أن أفكار المتكلم ومعانيه تبع لألفاظ اللغة المحصورة، مع أن المعاني القرآنية قد سخرت لها الألفاظ تسخيرًا، =

التعبير[١]، ولكن هذه التعريفات كلها لم تخل من نقد، ولعل الأقرب، والأنسب للأسلوب القرآني، أن يقال في تعريفه هو: الطريقة الخاصة التي انفرد بها القرآن في إفادة المعاني بالألفاظ[٢].

المسألة الثانية: المراد بالإعجاز الأسلوبي:

يذكر العلماء رحمهم الله تعالى المراد بالإعجاز الأسلوبي عند حديثهم عن أساليب القرآن الكريم، وهذا هو صنيع ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد ذكر عند حديثه على أساليب القرآن الكريم قول الفخر الرازي في المراد بالإعجاز الأسلوبي: (إن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، هو أيضًا معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه، أرادوا ذلك)[٣].

وقال الزرقاني: (أسلوب القرآن الكريم هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه)[٤].

ومن خلال تعريف الزرقاني للأسلوب القرآني يظهر أنه ضمَّنه ما يفيد انفراد هذا الأسلوب عمَّا سواه ببعض الخصائص، وهذا هو المراد بإعجاز القرآن الأسلوبي، وبالتالي فإن الكلام عن أساليب القرآن الكريم، وتعريف الأسلوب القرآني، هو بيان للمراد بالإعجاز الأسلوبي، وإن لم ينص المتقدمون رحمهم الله تعالى على عبارة الإعجاز الأسلوبي.

= **انظر**: الأسلوب (ص٤٤)، لغة القرآن (ص٢٨٨).

(١) انتقد بعض الباحثين هذا التعريف بكونه غير مانع لاشتراك الأساليب غير القرآنية مع أسلوب القرآن في كونها طرق تعبيرٍ عن المراد، مع أن القرآن الكريم متميز بذاته عن كل الأساليب المعروفة، **انظر**: الأسلوب (ص٤٤)، لغة القرآن (ص٢٨٨).

(٢) **انظر**: لغة القرآن (ص٢٨٩)، التعبير الفني في القرآن (ص١٧٩).

(٣) مفاتيح الغيب (٧/ ١١٢)، **وانظر**: التحرير والتنوير (١/ ١١٧).

(٤) مناهل العرفان (٢/ ٢١٨).

المطلب الثاني

من أنواع الإعجاز الأسلوبي

تتعدَّد مظاهر الإعجاز الأسلوبي وأنواعه، وذلك لتعدُّد أساليب اللغة العربية، وقد وقف ابن عاشور مع أساليب القرآن الكريم فأطال النفس[(١)]، **وفي المسائل التالية بيان لأنواعٍ من الأساليب القرآنية التي ذكرها ابن عاشور:**

المسألة الأولى: الجمع بين الموعظة والتشريع:

لقد جمع أسلوب القرآن الكريم مقاصد متعددة هي أمَّهات المقاصد، وقد سبق ذكر مقاصد القرآن الكريم الثمانية التي أشار إليها ابن عاشور، ومن هذه المقاصد تقرير التشريعات مع العناية بالموعظة، وهما مقصدان لا يجتمعان في كلام البشر إلا ظهر أحدهما، وبرز في أسلوب صاحبه.

وفي هذا الأسلوب من أساليب القرآن الكريم يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: (نرى من أعظم الأساليب التي خالف بها القرآن أساليب العرب أنه جاء في نظمه بأسلوب جامع بين مقصديه، وهما: مقصد الموعظة، ومقصد التشريع، فكان نظمه يمنح بظاهره السَّامعين ما يحتاجون أن يعلموه، وهو في هذا النوع يشبه خطبهم، وكان في مطاوي معانيه ما يستخرج منه العالم الخبير أحكامًا كثيرة في التشريع،

---

(١) تناول ابن عاشور مبحث الإعجاز الأسلوبي في مقدمته في إعجاز القرآن من (ص١١٣ إلى ص١٢٤)، وهو ما يشكل ثلث مقدمته المتعلقة بإعجاز القرآن، **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١١٣ ـ ١٢٤).

والآداب، وغيرها، وقد قال في الكلام على بعضه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، هذا من حيث ما لمعانيه من العموم، والإيماء إلى العلل، والمقاصد، وغيرها)[١].

وأسلوب الجمع بين الموعظة والتشريع يظهر في مواطن عديدة من القرآن الكريم، فمن تلك المواطن القصص القرآني فهو إلى ما فيه من الموعظة والعبرة متضمِّن لتشريعات متعددة، **وفي ذلك يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأبصر أهل العلم أن ليس الغرض من سَوقها[٢] قاصرًا على حصول العبرة والموعظة مما تضمَّنته القصة من عواقب الخير أو الشر، ولا على حصول التنويه بأصحاب تلك القصص في عناية الله بهم، أو التشويه بأصحابها فيما لقوه من غضب الله عليهم كما تقف عنده أفهام القانعين بظواهر الأشياء، وأوائلها، بل الغرض من ذلك أسمى وأجل، إن في تلك القصص لعبرًا جمَّة وفوائد للأمة؛ ولذلك نرى القرآن يأخذ من كل قصة أشرف مواضيعها، ويُعرِض عمَّا عداه ليكون تعرُّضه للقصص منزَّهًا عن قصد التفكُّه بها)[٣].

وفي موضع آخر يشير ابن عاشور إلى بروز أسلوب الجمع بين الموعظة والتشريع في بعض السور، **ففي سورة البقرة يقول ابن عاشور**: (وكان أسلوبها أحسن ما يأتي عليه أسلوب جامع لمحاسن الأساليب الخطابية وأساليب الكتب التشريعية وأساليب التذكير والموعظة يتجدد بمثله نشاط السامعين بتفنُّن الأفانين)[٤].

وقد جعل ابن عاشور أسلوب الجمع بين الموعظة والتشريع من

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١١٥ ـ ١١٦).
(٢) الضمير عائد على القصص القرآنية.
(٣) التحرير والتنوير (١/ ٦٤).
(٤) التحرير والتنوير (١/ ٢٠٣).

أسباب وقوع المتشابهات في القرآن الكريم، **وفي ذلك يقول** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وسبب وقوع المتشابهات في القرآن: هو كونه دعوة، وموعظة، وتعليمًا، وتشريعًا باقيًا، ومعجزة، وخوطب به قوم لم يسبق لهم عهد بالتعليم والتشريع، فجاء على أسلوب مناسب لجمع هذه الأمور بحسب حال المخاطبين الذين لم يعتادوا الأساليب التدريسية، أو الأمالي العلمية، وإنما كانت هجيراهم الخطابة والمقاولة، فأسلوب المواعظ والدعوة قريب من أسلوب الخطابة، وهو لذلك لا يأتي على أساليب الكتب المؤلفة للعلم أو القوانين الموضوعة للتشريع، فأودعت العلوم المقصودة منه في تضاعيف الموعظة والدعوة وكذلك أودع فيه التشريع فلا تجد أحكام نوع من المعاملات كالبيع متصلًا بعضها ببعض، بل تلفيه موزعًا على حسب ما اقتضته مقامات الموعظة والدعوة، ليخف تلقيه على السامعين، ويعتادوا علم ما لم يألفوه في أسلوب قد ألفوه، فكانت متفرقة يضم بعضها إلى بعض بالتدبر)(١).

*** مثال على أسلوب الموعظة والتشريع:**

من الآيات التي ذكرها ابن عاشور مثالًا على أسلوب الجمع بين الموعظة والتشريع قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] في سياق آيات تتكلم عن أحكام الطلاق والعدة، **وفي تفسيرها يقول:** (لعل آية ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ نزلت عقب آيات تشريع العدة والطلاق لسبب اقتضى ذلك: من غفلةٍ عن الصلاة الوسطى أو استشعار مشقة في المحافظة عليها، فموقع هذه الآية موقع الجملة المعترضة بين أحكام الطلاق والعدد. . . . ولك أن تقول: لما طال تعاقب الآيات المبينة تشريعات تغلب فيها الحظوظ الدنيوية

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٥٧).

للمكلفين عقبت تلك التشريعات بتشريع تغلب فيه الحظوظ الأخروية لكي لا يشتغل الناس بدراسة أحد الصنفين من التشريع عن دراسة الصنف الآخر، قال البيضاوي: «أمر بالمحافظة عليها في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج لئلَّا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها»[١]، وقال بعضهم: (لما ذكر حقوق الناس دلَّهم على المحافظة على حقوق الله)[٢].

والمعنى الذي أورده ابن عاشور في هذه الآية الكريمة بيَّنه كثير من المفسِّرين من خلال بيانهم لوجه المناسبة بين الآية الكريمة وبقية الآيات في السياق، ومن ذلك قول الفخر الرازي: (اعلم أنه ﷻ لما بيَّن للمكلَّفين ما بيَّن من معالم دينه، وأوضح لهم من شرائع شرعه، أمرهم بعد ذلك بالمحافظة على الصلوات **وذلك لوجوه**:

أحدها: أن الصلاة لما فيها من القراءة والقيام والركوع والسجود والخضوع والخشوع تفيد انكسار القلب من هيبة الله تعالى، وزوال التمرُّد عن الطبع، وحصول الانقياد لأوامر الله تعالى والانتهاء عن مناهيه، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

والثاني: أن الصلاة تذكر العبد جلالة الربوبية وذلة العبودية وأمر الثواب والعقاب، فعند ذلك يسهل عليه الانقياد للطاعة، ولذلك قال: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

والثالث: أن كل ما تقدم من بيان النكاح والطلاق والعدة اشتغال بمصالح الدنيا، فأتبع ذلك بذكر الصلاة التي هي مصالح الآخرة)[٣].

---

(١) أنوار التنزيل (ص٥٢).

(٢) لم أجد هذه العبارة بألفاظها، وأما من حيث المعنى فهذا المعنى يقرره كثير من العلماء، **انظر**: إرشاد العقل السليم (١/ ٢٣٥)، روح المعاني (٢/ ١٥٥)، **وانظر**: التحرير والتنوير (٢/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦).

(٣) مفاتيح الغيب (٦/ ١٢٤).

المسألة الثانية: التسوير (تقسيم القرآن إلى سور):

لقد تميز القرآن الكريم بانقسامه إلى سور متعددة (وتسوير القرآن من السُّنَّة في زمن النبي ﷺ، فقد كان القرآن يومئذٍ مقسمًا إلى مائة وأربع عشرة سورة بأسمائها)(١)، وقد تناول العلماء رحمهم الله تعالى في كتبهم أسلوب تقسيم القرآن الكريم إلى سور متعددة، وبيَّنوا فوائده، ومن ذلك ما قاله الزمخشري في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]: (ومن فوائده: أنّ الجنس إذا انطوت تحته أنواع، واشتمل على أصناف، كان أحسن وأنبل وأفخم من أن يكون بيانًا واحدًا. ومنها أن القارئ إذا ختم سورة أو بابًا من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له وأهز لعطفه، وأبعث على الدرس والتحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله. ومثله المسافر، إذا علم أنه قطع ميلًا، أو طوى فرسخًا)(٢).

وقال الزرقاني: (لتجزئة القرآن إلى سور فوائد وحكم: منها التيسير على الناس وتشويقهم إلى مدارسة القرآن وتحفظه، لأنه لو كان سبيكة واحدة لا حلقات بها لصعب عليهم حفظه وفهمه وأعياهم أن يخوضوا عباب هذا البحر الخِضَم الذي لا يشاهدون فيه عن كثب مرافىء ولا شواطىء، ومنها الدلالة على موضوع الحديث ومحور الكلام، فإن في كل سورة موضوعًا بارزًا تتحدث عنه كسورة البقرة وسورة يوسف وسورة النمل وسورة الجن، ومنها الإشارة إلى أن طول السورة ليس شرطًا في إعجازها بل هي معجزة وإن بلغت الغاية في القصر كسورة الكوثر)(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٨٥)

(٢) الكشاف (١/ ٩٢ ـ ٩٣).

(٣) مناهل العرفان (١/ ٢٤٢)

ومن أهم فوائد أسلوب التسوير أنه أظهر لإعجاز القرآن الكريم، وهذا هو ما قرره ابن عاشور في أثناء كلامه على الإعجاز الأسلوبي **حيث يقول**: (ومنها أن جاء على أسلوب التقسيم والتسوير، وهي سُنَّة جديدة في الكلام العربي أدخل بها عليه طريقة التبويب، والتصنيف، وقد أومأ إليها في الكشاف إيماء)[١].

وكون أسلوب التسوير يشير إلى إعجاز القرآن الكريم قد قرره العلماء رحمهم الله تعالى، ومن ذلك ما قاله الزركشي ﷺ: (وفى تسوير السورة تحقيق لكون السورة بمجردها معجزة وآية من آيات الله تعالى، وسوِّرت السور طوالًا وقصارًا وأوساطًا تنبيهًا على أن الطول ليس من شرط الإعجاز، فهذه سورة الكوثر ثلاث آيات وهي معجزة إعجاز سورة البقرة)[٢].

ومما نلحظه هنا تعدد وجوه دلالة أسلوب التسوير على إعجاز القرآن الكريم، فإن الزركشي جعل دلالته هي من جهة كون السورة الواحدة دليلًا على إعجاز القرآن الكريم، ومن جهةٍ أخرى، وهي تسوير السور إلى طوال وقصار، وأن الإعجاز واقع في السور القصار كما هو واقع في الطوال، وهذا راجع إلى المراد بالتحدي، أما ابن عاشور فإنه في هذا الموضع[٣] يشير إلى جانب آخر من جوانب دلالة أسلوب التسوير على إعجاز القرآن الكريم، وهي دلالته من الجهة الأسلوبية، وذلك أن التسوير للكلام أسلوب لم يعهده العرب في مخاطباتهم، وهذا جانب آخر دال على الإعجاز في هذا الأسلوب القرآني، والله أعلم.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٢٠). (٢) البرهان (١/ ٢٦٤).

(٣) وإن كان قد قرر في مواضع أخرى ما قرره الزركشي، **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ٨٤).

المسألة الثالثة: التفنن (الانتقال من فن إلى آخر):

لقد جاء القرآن الكريم فائقًا أساليب العرب في فواتح الكلام وخواتمه وثناياه، وذلك من خلال تنوع ألفاظه ومعانيه في هذه المواطن، خلافًا لما كان عليه العرب من الابتداء بألفاظ معينة كالابتداء بمطلع بانت سعاد مثلًا، أو بمعان معينة من البيان لا يعدونها كالغزل في غالب قصائدهم.

وهذا التنوع في أساليب المطالع والخواتم والتنقل بين المقاطع في الكلام هو ما يعبِّر عنه ابن عاشور بالتفنن، و(التفنن في التعبير لم يزل دأب البلغاء، وفيه من الدلالة على رفعة شأن المتكلم ما لا يخفى، والقرآن الكريم مملوء من ذلك)[١].

وفي بيان أسلوب التفنن يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن أساليبه ما أسمِّيه بالتفنُّن، وهو: بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض[٢]، والتنظير[٣]، والتذييل[٤]، والإتيان بالمترادفات[٥] عند التكرير تجنبًا لثقل تكرير الكلم، وكذلك الإكثار من أسلوب الالتفات المعدود من أعظم أساليب التفنن عند بلغاء العربية، فهو في القرآن كثير، ثم الرجوع إلى

---

(١) روح المعاني (١/ ٢٦٩).

(٢) **الاعتراض**: هو أن يؤتى في أثناء الكلام أو بين كلامين متصلين معنى بجملة أو أكثر لا محل لها من الإعراب لنكتة، **انظر**: بغية الإيضاح (٢/ ١٤٧) عروس الأفراح (٢/ ١٢٩).

(٣) **التنظير**: هو جمع أمر وما يناسبه بغير المضادة، **انظر**: عروس الأفراح (٢/ ٣٣٧).

(٤) **التذييل**: هو تعقيب جملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد، **انظر**: بغية الإيضاح (٢/ ١٣٩)، عروس الأفراح (١/ ١٢٦).

(٥) **المترادفات**: جمع مترادف، والترادف هو ورود لفظين أو أكثر مختلفين في الاشتقاق متفقين في المعنى بحيث يدلان على المعنى دلالة حقيقية بدون فروق بينهما، وقد سبق في (ص٢٦٨) من هذا البحث الإشارة إلى عدم صحة القول بالترادف، **وانظر**: إعجاز القرآن البياني (ص٢٠١).

المقصود، فيكون السامعون في نشاط متجدد بسماعه، وإقبالهم عليه.

ومن أبدع أمثلة ذلك: قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧ ـ ٢٠]، بحيث كان أكثر أساليب القرآن من الأساليب البديعة العزيز مثلها في شعر العرب، وفي نثر بلغائهم من الخطباء، وأصحاب بدائه[١] الأجوبة. وفي هذا التفنن والتنقل مناسبات بين المنتقل منه والمنتقل إليه هي في منتهى الرقة والبداعة بحيث لا يشعر سامعه وقارئه بانتقاله إلا عند حصوله.

وذلك التفنن ممَّا يعين على استماع السَّامعين ويدفع سآمة الإطالة عنهم، فإن من أغراض القرآن استكثار أزمان قراءته كما قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾ [المزمل: ٢٠]، فقوله ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ يقتضي الاستكثار بقدر التيسر، وفي تناسب أقواله، وتفنن أغراضه مجلبة لذلك التيسير، وعون على التكثير، نُقل عن أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه «سراج المريدين»[٢]: (ارتباط آي القرآن بعضها مع بعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسعة منتظمة المباني علم عظيم)[٣]، ونقل الزركشي[٤] عن عز الدين بن عبد السلام[٥]: (المناسبة

---

(١) **البَدِيهَةُ**: أول كُل شَيء وما يَفْجَأ منه، وأجابَ على البديهَةِ. وله بَدَائِهُ: بَدائعُ، **انظر**: القاموس (ص١٦٠٤)، لسان العرب (١٣/ ٤٧٥).

(٢) لم أجد هذا الكتاب.

(٣) **انظر**: الإتقان (٣/ ٣٢٢).

(٤) **انظر**: البرهان (١/ ٣٧).

(٥) **هو**: عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم السلمي، ولد سنة =

علم حسن، ويشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط، والقرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربط بعضه ببعض)[١].

ومن خلال كلام ابن عاشور في التفنن نقف عند ما يلي:

١ ـ يعرِّف ابن عاشور التفنن بأنه بداعة تنقلاته من فن إلى فن بطرائق الاعتراض، والتنظير، والتذييل، والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبًا لثقل تكرير الكلم، وقد أشار الزمخشري إلى المراد بالتفنن بقوله في ثنايا كلام له عن فوائد الالتفات: (اعلم أن للالتفات فوائد عامة وخاصة، فمن العامة: التفنن والانتقال من أسلوب إلى آخر)[٢]، وجعل السيوطي التفنن منطبقًا على تنويع الألفاظ[٣]، ومن خلال تعريف ابن عاشور يظهر أنه يتفق مع الزمخشري والسيوطي ذلك أن ابن عاشور جعل طرق التفنن هي الاعتراض، والتنظير، والتذييل، والإتيان بالمترادفات عند التكرير تجنبًا لثقل تكرير الكلم، وهذه الطرق المذكورة راجعة إلى تنويع الألفاظ، والله أعلم.

٢ ـ يذكر ابن عاشور في كلامه السابق من فوائد التفنن الإعانة على استماع السامعين ودفع سآمة الإطالة عنهم، وهناك فوائد أخرى أشار إليها العلماء رحمهم الله تعالى، فمنها أن في سلوك مسلك التفنن جريًا

= ٥٧٧هـ أو ٥٧٨هـ، وتوفي سنة ٦٦٠هـ، **انظر**: البداية والنهاية (١٣/ ٢٧٤)، فوات الوفيات (٢/ ٣٥٠).

(١) التحرير والتنوير (١/ ١١٦).

(٢) البرهان (٣/ ٣٢٥).

(٣) الإتقان (٥/ ١٨٦٨) طبعة المجمع.

على عادة العرب في كلامهم وذلك أبلغ في الإعجاز، قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (من عادة العرب التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطًا للسامع)[1].

ومن فوائد التفنن أن تكون الحجة أظهر والموعظة أبلغ، وهذا الأمر يظهر واضحًا في الآيات التي ترد على الكفار، قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير سورة هود: (لما أورد سبحانه على الكفار المعاصرين لمحمد ﷺ أنواع الدلائل التي هي أوضح من الشمس، أكد ذلك بذكر القصص على طريقة التفنن في الكلام، ونقله من أسلوب إلى أسلوب لتكون الموعظة أظهر والحجة أبين، والقبول أتمّ)[2].

٣ ـ مثَّل ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ للتفنن بقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ الآيات.

ووجه الدلالة من هذه الآيات على التفنن بيَّنه ابن عاشور في أثناء تفسيره لهذه الآيات **بقوله**: (أعيد تشبيه حالهم بتمثيل آخر وبمراعاة أوصاف أخرى، فهو تمثيل لحال المنافقين المختلطة بين جواذب ودوافع حين يجاذب نفوسهم جاذب الخير عند سماع مواعظ القرآن وإرشاده، وجاذب الشر من أعراق النفوس والسخرية بالمسلمين، بحال صيب من السماء اختلطت فيه غيوث وأنوار ومزعجات وأكدار، جاء على طريقة بلغاء العرب في التفنن في التشبيه)[3]، وما قرره ابن عاشور هنا يقرره المفسرون في كتبهم.

---

(١) أنوار التنزيل (ص٤).
(٢) فتح القدير (٢/ ٧١٢).
(٣) التحرير والتنوير (١/ ٣١٤ ـ ٣١٥).

قال الزمخشري عند تفسيره لهذه الآيات: (ثم ثنى الله سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفًا لحالهم بعد كشف، وإيضاحًا غبَّ إيضاح. وكما يجب على البليغ في مظانّ الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز؛ فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع)[1].

وقال أبو السعود: (﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ تمثيلٌ لحالهم إثرَ تمثيل، ليعُم البيانُ منها كل دقيق وجليل، ويوفيَ حقها من التفظيع والتهويل، فإن تفنُّنهم في فنون الكفر والضلال وتنقّلَهم فيها من حال إلى حال حقيقٌ بأن يُضربَ في شأنه الأمثال، ويرخى في حلبته أعِنّةُ المقال، ويُمدَّ لشرحه أطنابُ الإطناب، ويُعقَدَ لأجله فصولٌ وأبواب، لما أن كل كلام له حظ من البلاغة، وقسط من الجزالة والبراعة، لا بد أن يُوفَّى فيه حقُّ كلَ من مقامي الإطناب والإيجاز، فما ظنُّك بما في ذُروة الإعجاز من التنزيل الجليل)[2].

❖ المسألة الرابعة: الفواصل القرآنية:

يعتبر موضوع الفاصلة القرآنية من أهم الموضوعات التي نالت عناية العلماء، وذلك لما للفاصلة القرآنية من (دور كبير في إحكام بناء الآية في الشكل والمضمون، أو في اللفظ والمعنى)[3]، وهي من الموضوعات المتعلقة بالأسلوب القرآني، وقد تناولها ابن عاشور في مواضع من تفسيره تأصيلًا وتمثيلًا، **ومن ذلك قوله** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (والذي استخلصته أن الفواصل هي: الكلمات التي تتماثل في أواخر

---

(١) الكشاف (١/ ٧٥).

(٢) إرشاد العقل السليم (١/ ٥٢).

(٣) إعجاز القرآن البياني (ص٣٢٠).

حروفها[١]، أو تتقارب مع تماثل، أو تقارب صيغ النطق بها[٢]، وتكرر في السورة تكررًا يؤذن بأن تماثلها، أو تقاربها مقصود من النظم في آيات كثيرة متماثلة تكثر وتقل، وأكثرها قريب من الأسجاع في الكلام المسجوع[٣]، والعبرة فيها بتماثل صيغ الكلمات من حركات وسكون، وهي أكثر شبهًا بالتزام ما لا يلزم في القوافي[٤]، وأكثرها جار على أسلوب الأسجاع)[٥].

وفي موضع آخر يقول: (واعلم أن هذه الفواصل من جملة المقصود من الإعجاز؛ لأنها ترجع إلى محسنات الكلام، وهي من جانب فصاحة الكلام، فمن الغرض البلاغي الوقوف عند الفواصل لتقع في الأسماع، فتتأثر نفوس السامعين بمحاسن ذلك التماثل كما تتأثر بالقوافي في الشعر وبالأسجاع في الكلام المسجوع. فإن قوله تعالى: (﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ «آية» ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ «آية» ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ «آية» ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾) إلى آخر الآيات [غافر: ٧١ ـ ٧٤].

فقوله: ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ﴾ متصل بقوله ﴿يُسْحَبُونَ﴾، وقوله: و﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ متصل بقوله ﴿تُشْرِكُونَ﴾. وينبغي الوقف عند نهاية كل آية منها.

---

(١) **وتسمَّى**: الفواصل المتماثلة، أو المتجانسة، أو ذات المناسبة التامة، **انظر**: البرهان (١/ ٧٢).

(٢) **وتسمَّى**: الفواصل المتقاربة، أو ذات المناسبة غير التامة؛ كتقارب الميم والنون، **انظر**: البرهان (١/ ٧٢).

(٣) **السجع**: تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد، **انظر**: جواهر البلاغة (ص٣٥١)

(٤) **التزام ما لا يلزم**: هو أن تكون الحروف التي قبل الفاصلة حرفًا واحدًا وهو في الشعر أن تتساوى الحروف التي قبل روي الأبيات الشعرية، **انظر**: المثل السائر (١/ ٢٦٢).

(٥) التحرير والتنوير (١/ ٧٥).

وقوله تعالى: ﴿وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ «آية». وقوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ ابتداء الآية بعدها في سورة هود [هود: ٥٤، ٥٥].

ألا ترى أن من الإضاعة لدقائق الشعر أن يلقيه ملقيه على مسامع الناس دون وقف عند قوافيه، فإن ذلك إضاعة لجهود الشعراء، وتغطية على محاسن الشعر، وإلحاق للشعر بالنثر، وأن إلقاء السجع دون وقوف عند أسجاعه هو كذلك لا محالة، ومن السذاجة أن ينصرف ملقي الكلام عن محافظة هذه الدقائق فيكون مضيعًا لأمر نفيس أجهد فيه قائله نفسه وعنايته، والعلة بأنه يريد أن يبيِّن للسامعين معاني الكلام فضول، فإن البيان وظيفة ملقي الدرس لا وظيفة منشد الشعر، ولو كان هو الشاعر نفسه)[(١)].

ومن خلال كلام العلَّامة ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ السابق يظهر ما يلي:

١ - حاول ابن عاشور ضبط مصطلح الفاصلة حين عرَّفه، وقد سبقه عدد من العلماء إلى ذلك، فهذا الباقلاني يعرف الفاصلة بقوله: الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني[(٢)]، ويعرِّفها الزركشي فيقول: هي كلمة آخر الآية كقافية الشعر، وقرينة السجع[(٣)].

٢ - الفواصل أمر مقصود في القرآن الكريم، **ويدلِّل ابن عاشور لذلك بأمور:**

- تكرر الفواصل في كثير من الآيات تكررًا يؤذن باعتبارها.
- الفواصل راجعة إلى المحسنات اللفظية، وهي من جملة المقصود بالإعجاز.
- الفواصل تساعد على التأثير في نفوس السامعين، وهذا من خلال

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٧٦).
(٢) إعجاز القرآن (ص٢٧٠).
(٣) البرهان (١/ ٥٣).

الوقوف عند آخر كل فاصلة، وهذا الأمر يمكن اندراجه تحت ما يسمِّيه الزرقاني بمسحة القرآن الكريم اللفظية، يقول الزرقاني في خصائص الأسلوب القرآني: (الخاصَّة الأولى: مسحة القرآن اللفظية، فإنها مسحة خلابة عجيبة تتجلَّى في نظامه الصوتي، وجماله اللغوي، ونريد بنظام القرآن الصوتي اتِّساق القرآن وائتلافه في حركاته، وسكناته، ومدَّاته، وغنَّاته، واتصالاته، وسكتاته، اتِّساقًا عجيبًا وائتلافًا رائعًا يسترعي الأسماع، ويستهوي النفوس، بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم، ومنثور)[(١)].

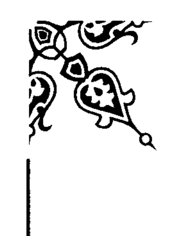
٣ ـ مثَّل ابن عاشور للفاصلة القرآنية في مواضع كثيرة في تفسيره، ومن ذلك تمثيله بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، **حيث يقول**: (وإنما قدَّم ﴿نَمُوتُ﴾ في الذكر على ﴿وَنَحْيَا﴾ في البيان مع أن المبين قولهم ما هي ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾، فكان الظاهر أن يبدأ في البيان بذكر اللفظ المبين فيقال: نحيا ونموت، فقيل قدم ﴿نَمُوتُ﴾ لتتأتى الفاصلة بلفظ ﴿وَنَحْيَا﴾ مع لفظ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾. وعندي أن تقديم فعل ﴿نَمُوتُ﴾ على ﴿وَنَحْيَا﴾ للاهتمام بالموت في هذا المقام لأنهم بصدد تقرير أن الموت لا حياة بعده، ويتبع ذلك الاهتمامَ: تأتِّي طباقين بين حياتنا الدنيا ونموت ثم بين نموت ونحيا، وحصلت الفاصلة تبعًا، وذلك أدخل في بلاغة الإعجاز)[(٢)].



---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ٣٦٢).





المبحث الخامس

الإعجازُ في الأمثالِ القرآنيةِ

ضرب الأمثال في القرآن الكريم من الأساليب الدالة على إعجاز القرآن الكريم لما فيها من بلاغة في إبراز المعقول في صورة المحسوس، وقد عني العرب عناية بالغة بهذا النوع، فجاء القرآن الكريم بأوضح الأمثال، وأعلاها في البلاغة، **وسوف نعرض طرفًا مما قرره ابن عاشور من خلال المطالب التالية:**

المطلب الأول

المراد بالأمثال

تناول ابن عاشور لفظ المثل في آيات كثيرةٍ، يكشف عن دقائق معانيه ويبحث في أسرار دلالاته، فهو يعرِّف المثل لغة **بقوله**: (وأصل المَثَل بفتحتين هو النظير والمشابه، ويقال أيضًا مِثْل بكسر الميم وسكون الثاء، ويقال مثيل)(١)، وقريبًا من هذا الكلام ما قاله الفيروزآبادي رحمه الله: (المِثْلُ بالكسرِ، والتحرِيك، وكأَميرٍ: الشِّبْهُ، والجمع أمثال)(٢).

وأما معنى الأمثال اصطلاحًا **فقال فيها ابن عاشور**: (كان في أدب العرب الأمثال، وهي حكاية أحوال مرموز لها بتلك الجمل البليغة التي قيلت فيها، أو قيلت لها، المسمَّاة بالأمثال، فكانت تلك الجمل مشيرة

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣). (٢) القاموس المحيط (ص١٣٦٤).

إلى تلك الأحوال، إلا أنها لما تداولتها الألسن في الاستعمال، وطال عليها الأمد نسيت الأحوال التي وردت فيها، ولم يبق للأذهان عند النطق بها إلا الشعور بمغازيها التي تقال لأجلها)[١].

وقد قيل في تعريف المثل: قولٌ محكيٌّ سائرٌ يُقصد به تشبيه حال بحال[٢].

ويلاحظ أن المراد من الأمثال هنا بناء على الكلام السابق: الأمثال الأدبية، وتُسمَّى أيضًا: المثل المرسل، وهو أحد أنواع المثل التي أوردها العلماء[٣]، وإن كانت الأنواع كلها تشترك في بلاغتها.

المَطْلَبُ الثَّانِي

الإعجاز في الأمثال القرآنية

للأمثال القرآنية فوائد عديدة عدها العلماء، ومن هذه الفوائد:
(التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وترتيب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر)[٤].

ومن الفوائد التي ذكرها ابن عاشور لأمثال القرآن الكريم أنها تنبه

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٢١).

(٢) **انظر**: بحوث منهجية في علوم القرآن (ص١٩٠).

(٣) أورد العلماء ثلاثة أنواع للأمثال في القرآن الكريم: المثل الصريح، والمثل الكامن، والمثل المرسل، **انظر**: الإتقان (٥/ ١٩٣٦) طبعة المجمع، موارد الظمآن (ص١٢٢).

(٤) البرهان (١/ ٤٨٦ - ٤٨٧).

إلى بلاغة القرآن الكريم في بابها، **قال ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ **عند قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧، ٢٨]: (وخصَّت أمثال القرآن بالذكر من بين مزايا القرآن لأجل لفت بصائرهم للتدبر في ناحية عظيمة من نواحي إعجازه، وهي بلاغة أمثاله، فإن بلغاءهم كانوا يتنافسون في جودة الأمثال وإصابتها المحز من تشبيه الحالة بالحالة)[1].

وفي سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]، **قال ابن عاشور:** (لمَّا تحدَّى الله بلغاء المشركين بالإعجاز تطاول عليهم بذكر فضائل القرآن على ما سواه من الكلام مدمجًا في ذلك النعي عليهم إذ حرموا أنفسهم الانتفاع بما في القرآن من كل مثل. وذكرت هنا ناحية من نواحي إعجازه وهي ما اشتمل عليه من أنواع الأمثال)[2].

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

من أمثلة الإعجاز في الأمثال القرآنية

تعرَّض ابن عاشور للأمثال المرسلة، أو ما يعبر هو عنه بعبارة: ما جرى مجرى المثل، و(لقد كان ابن عاشور وهو يفسر القرآن ويبحث في بلاغته شديد الملاحظة لما فيه من فِقَرٍ وغرر وتراكيب لم يسبق إليها لما فيها من بلاغة وفصاحة، فكان يشير رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أن هذه التراكيب مما جرى مجرى الأمثال)[3]، **ومن أمثلة ذلك:**

---

(١) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٥٧). (٢) التحرير والتنوير (١٥/ ٢٠٤).
(٣) مباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير (ص٢٧٥).

١ ـ قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، **قال ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ: (ومن بدائع الإعجاز في هذه الآية أن قوله تعالى ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ﴾ فيه محسن بديعي، فإن حروفه تقرأ من آخرها على الترتيب كما تقرأ من أولها، مع خفة التركيب، ووفرة الفائدة، وجريانه مجرى المثل من غير تنافر ولا غرابة)[(١)].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: ٣٣]، **قال ابن عاشور**: (والأرض المذكورة هنا إما أن تكون الأرض المذكورة في الدنيا وذلك حين البعث، وإما أن تكون أرض الحشر وهي التي سمَّاها القرآن (الساهرة) في سورة النازعات، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وإما أن يكون ذلك جاريًا مجرى المثل المستعمل للمبالغة في إحاطة الجهات كقول أبي بكر الصديق: أي أرض تقلُّني، وأي سماء تظلني[(٢)]، وهذه المعاني لا تتنافى، وهي من حد إعجاز القرآن)[(٣)].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، **يقول ابن عاشور**: (وهذه الجملة تجري مجرى المثل إذ ركبت تركيبًا وجيزًا محذوفًا منه بعض الكلمات، ولم أظفر فيما حفظت من غير القرآن بأنها كانت مستعملة عند العرب فلعلها من مبتكرات القرآن)[(٤)].

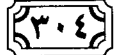
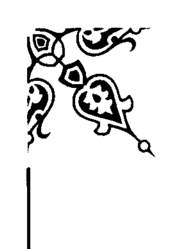
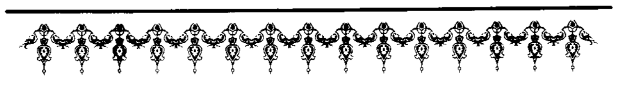
---

(١) التحرير والتنوير (١٧/ ٦١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، كتاب فضائل القرآن، باب من كره أن يفسر القرآن، (٦/ ١٣٦) رقم (٣٠١٠٣).

(٣) التحرير والتنوير (٢٧/ ٢٥٩).

(٤) التحرير والتنوير (٤/ ٨٣).


المَبْحَثُ السَّادِسُ

الإعجازُ القَصَصِي

القصص القرآني هو: إخبار القرآن عن أحوال الأمم الماضية والنبوات السابقة والحوادث الواقعة[١]، وقد عدَّ ابن عاشور القصص القرآني من جملة العلم الاصطلاحي[٢]، وتناوله في أكثر من موضع، والذي يهمنا من هذه المواضع هو ما يتعلق بإعجاز القرآن الكريم منها، **وهو ما يمكن تناوله من خلال المطالب التالية:**

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

الأسلوب القصصي في حكاية أحوال النعيم والعذاب من مبتكرات القرآن

لم يكن العرب في جاهليتهم يحتفون بالقصص في أدبهم، وإنما كان يغلب عليهم الشعر والخطابة، فجاء القرآن الكريم محتفيًا بالقصص، فكان هذا الاحتفاء من الأمور التي تفرد بها القرآن الكريم، وهي ما يسمِّيه ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ مبتكرات القرآن، **يقول ذاكرًا الأسلوب القصصي من هذه المبتكرات:** (ومنها الأسلوب القصصي في حكاية أحوال النعيم والعذاب في الآخرة، وفي تمثيل الأحوال، وقد كان لذلك تأثير عظيم على نفوس العرب إذ كان فن القصص مفقودًا من أدب العربية إلا نادرًا

(١) بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم (ص١٨٤).
(٢) **انظر:** التحرير والتنوير (١/ ١٢٦ ـ ١٢٧).

كان في بعض الشعر كأبيات النابغة في الحية التي قتلت الرجل وعاهدت أخاه وغدر بها[١]، فلما جاء القرآن بالأوصاف بهت به العرب كما في سورة الأعراف من وصف أهل الجنة وأهل النار وأهل الأعراف ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]... إلخ، وفي سورة الحديد ﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ﴾ [الحديد: ١٣] الآيات)[٢].

المَطْلَبُ الثَّانِي

دلالة القصص القرآني على إعجاز القرآن

لقد تناول ابن عاشور دلالة القصص القرآني على إعجاز القرآن الكريم من خلال عدة أمور أُجملها فيما يلي:

*** تصرُّف القرآن في حكاية الأقوال مراعاة للإعجاز:**

أورد القرآن الكريم أقوالًا كثيرة عن الأمم السابقة التي لم يكن أهلها يتكلمون العربية، وقد حكى هذه الأقوال بأسلوب يتناسب مع بلاغة القرآن الكريم المعجزة، بل حتى الأقوال المحكية في القرآن الكريم عن بعض العرب قد تصرف فيها القرآن الكريم بما يناسب بلاغته، **وقد نبَّه إلى هذه المسألة المهمة ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ، **فقال:** (ومما يتبع هذا أن القرآن يتصرف في حكاية أقوال المحكي عنهم فيصوغها على ما يقتضيه أسلوب إعجازه لا على الصيغة التي صدرت فيها، فهو إذا حكى أقوالًا غير عربية صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حد الإعجاز بالعربية، وإذا حكى أقوالًا عربية تصرَّف فيها تصرفًا يناسب أسلوب المعبر مثل ما يحكيه عن العرب، فإنه لا يلتزم حكاية ألفاظهم

---

(١) **انظر القصة في:** مجمع الأمثال (٢/ ١٤٥).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٢٠).

بل يحكي حاصل كلامهم، وللعرب في حكاية الأقوال اتساع مداره على الإحاطة بالمعنى دون التزام الألفاظ، فالإعجاز الثابت للأقوال المحكية في القرآن هو إعجاز للقرآن لا للأقوال المحكية)(١).

وقد مثَّل ابن عاشور لهذا الأمر عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧]، **فقال**: (ولا شك أن قوم صالح نطقوا بلغتهم جملًا كثيرة تنحل إلى هذه المعاني، فجمعها القرآن في قوله: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ باحتمال اسم الإشارة، واختلاف النطق بكلمة خُلق، فللَّه إيجاز وإعجازه)(٢).

وحاصل تفسير الآية مبني على اختلاف القراء في قراءة (خُلُقُ) فقرأها بعضهم بضم الخاء واللام بمعنى العادة، وقرأها بعضهم (خَلْقُ) بفتح الخاء وتسكين اللام بمعنى الاختلاق أو الحياة، **وينعقد من ذلك أربعة أقوال مبنية على اختلاف القراءة أو النطق كما عبر ابن عاشور، وعلى الاختلاف في اسم الإشارة هذا على من يعود؟**

القول الأول: المراد: ما نحن عليه عادة آبائنا، ونحن متبعوهم.

القول الثاني: المراد: ما أنت عليه من دعوى الرسالة عادة قوم سبقوك، وخالفوا قومهم، وليس وحيًا من الله تعالى.

ونلاحظ أن هذين القولين مبنيان على قراءة الضم، ثم حصل الخلاف بينهما في اسم الإشارة من المقصود به.

القول الثالث: المعنى أن ما تزعم من الرسالة عن الله كذب وما تخبرنا من البعث اختلاق.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٢٠).

(٢) التحرير والتنوير (١٩/ ١٧٣).

القول الرابع: المعنى أن حياتنا كحياة الأولين نحيا ثم نموت، وهو كناية عن التكذيب بالبعث[١]

ونلاحظ أن هذين القولين مبنيان على قراءة الفتح، ثم حصل الخلاف بينهما كذلك في اسم الإشارة من المقصود به؟

فهذه الآية الكريمة قد جمعت هذه المعاني كلها، والتي لا شك أنهم عبَّروا عنها بكلمات متعددة.

* تصرُّف القرآن في حكاية الأسماء مراعاة للإعجاز:

أورد القرآن الكريم كثيرًا من الأسماء لأقوام من الأمم السابقة، وبعض هؤلاء الأقوام في اسمه ثقل لا يتناسب مع البلاغة القرآنية، لذا حكى القرآن الكريم هذه الأسماء بما يناسب فصاحة القرآن الكريم، وذلك بذكر صفات هؤلاء الأقوام مكان أسمائهم، مثل طالوت سُمِّي بذلك لطوله، وكان أطول من كل أحد برأسه ومنكبيه، وكان اسمه المقرر عند علماء النسب شاول[٢]، ومثل آزر سمي بذلك إما باسم صنم كان يعبده، أو على أنها صفته، والمراد: المعوج، وكان اسمه عند النسَّابين تارح[٣]، **وفي هذا يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ اللهُ: (ومن هذا القبيل حكاية الأسماء الواقعة في القصص، فإن القرآن يغيرها إلى ما يناسب حسن مواقعها في الكلام من الفصاحة مثل تغيير شاول إلى طالوت وتغيير اسم تارح أبي إبراهيم إلى آزر)[٤].

---

(١) **انظر**: التحرير والتنوير (١٦/ ١٧٢ ـ ١٧٣).

(٢) **انظر**: جامع البيان (٤/ ٤٤٩)، الجامع لأحكام القرآن (٣/ ٢٣٥)، مدارك التنزيل (١/ ٢٠٤).

(٣) **انظر**: الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٣)، زاد المسير (٣/ ٧١).

(٤) التحرير والتنوير (١/ ١٢١).

*** بناء القصص على أسلوب الوصف، والمحاورة:**

لم يكن أسلوب الحوار، والتفصيل في الأوصاف معروفًا عند العرب في أدبهم، فجاءت قصص القرآن الكريم بهذا الأسلوب، **قال ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ: (الفائدة الخامسة: أن في حكاية القصص سلوك أسلوب التوصيف والمحاورة، وذلك أسلوب لم يكن معهودًا للعرب، فكان مجيئه في القرآن ابتكار أسلوب جديد في البلاغة العربية شديد التأثير في نفوس أهل اللسان وهو من إعجاز القرآن؛ إذ لا ينكرون أنه أسلوب بديع ولا يستطيعون الإتيان بمثله إذ لم يعتادوه، انظر إلى حكاية أحوال الناس في الجنة والنار والأعراف في سورة الأعراف، وقد تقدم التنبيه عليه في المقدمة الخامسة فكان من مكملات عجز العرب عن المعارضة)[1].

*** تكرار القصص القرآني:**

إن من إعجاز القصص القرآني أن القصة منه تكرر في مواطن كثيرة، ومع هذا عجز الكفار عن معارضتها، **قال ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وفوائد القصص تجتلبها المناسبات، وتذكر القصة كالبرهان على الغرض المسوقة هي معه، فلا يعد ذكرها مع غرضها تكريرًا لها لأن سبق ذكرها إنما كان في مناسبات أخرى، كما لا يقال للخطيب في قوم ثم دعته المناسبات إلى أن وقف خطيبًا في مثل مقامه الأول فخطب بمعان تضمنتها خطبته السابقة إنه أعاد الخطبة بل إنه أعاد معانيها ولم يعد ألفاظ خطبته، وهذا مقام تظهر فيه مقدرة الخطباء فيحصل من ذكرها هذا المقصد الخطابي، **ثم تحصل معه مقاصد أخرى:**

أحدها: رسوخها في الأذهان بتكريرها.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٦).

الثاني: ظهور البلاغة فإن تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يثقل على البليغ، فإذا جاء اللاحق منه إثر السابق مع تفنن في المعاني باختلاف طرق أدائها من مجاز أو استعارات أو كناية، وتفنن الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة باستعمال المترادفات مثل: ولئن رددت، ولئن رجعت، وتفنن المحسنات البديعية المعنوية واللفظية ونحو ذلك كان ذلك من الحدود القصوى في البلاغة فذلك وجه من وجوه الإعجاز)[١].

وهكذا يقرر ابن عاشور فيما يتعلق بتكرار القصص القرآني أن ذلك مما يبرز إعجاز القرآن الكريم، وذلك من أوجه:

١ ـ أن ما في القرآن من قصص ليس فيها تكرار ألفاظ، إذ كل قصة جاءت في محلِّها، وبالمقدار المناسب لسياقها، وبألفاظ مختلفة، ومثل هذا لا يسمَّى تكرارًا، وإنما هو دليل فصاحة وبلاغة، إذ أعيدت القصة بأكثر من لفظ ومع هذا عجز المشركون عن معارضة أي سياق منها، قال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: (فأما تكرير الأنباء والقصص في كتاب الله جل ثناؤه فقد قيلت فيه وجوه، وأصح ما يقال فيه أن الله جل ثناؤه جعل هذا القرآن، وعجز القوم عن الإتيان بمثل آية لصحة نبوة محمد ﷺ، ثم بين وأوضح الأمر في عجزهم، بأن كرر ذكر القصة في مواضع، إعلامًا بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله، بأي نظم جاء وبأي عبارة عبر، فهذا أولى ما قيل في هذا الباب)[٢].

٢ ـ أنه على القول بوجود التكرار في القصص القرآني فهو دليل على بلاغته كذلك؛ لأن التكرار من شأنه أن يورث الملل، بينما التكرار في القصص القرآني كان باعثًا على القراءة.

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٦٨).

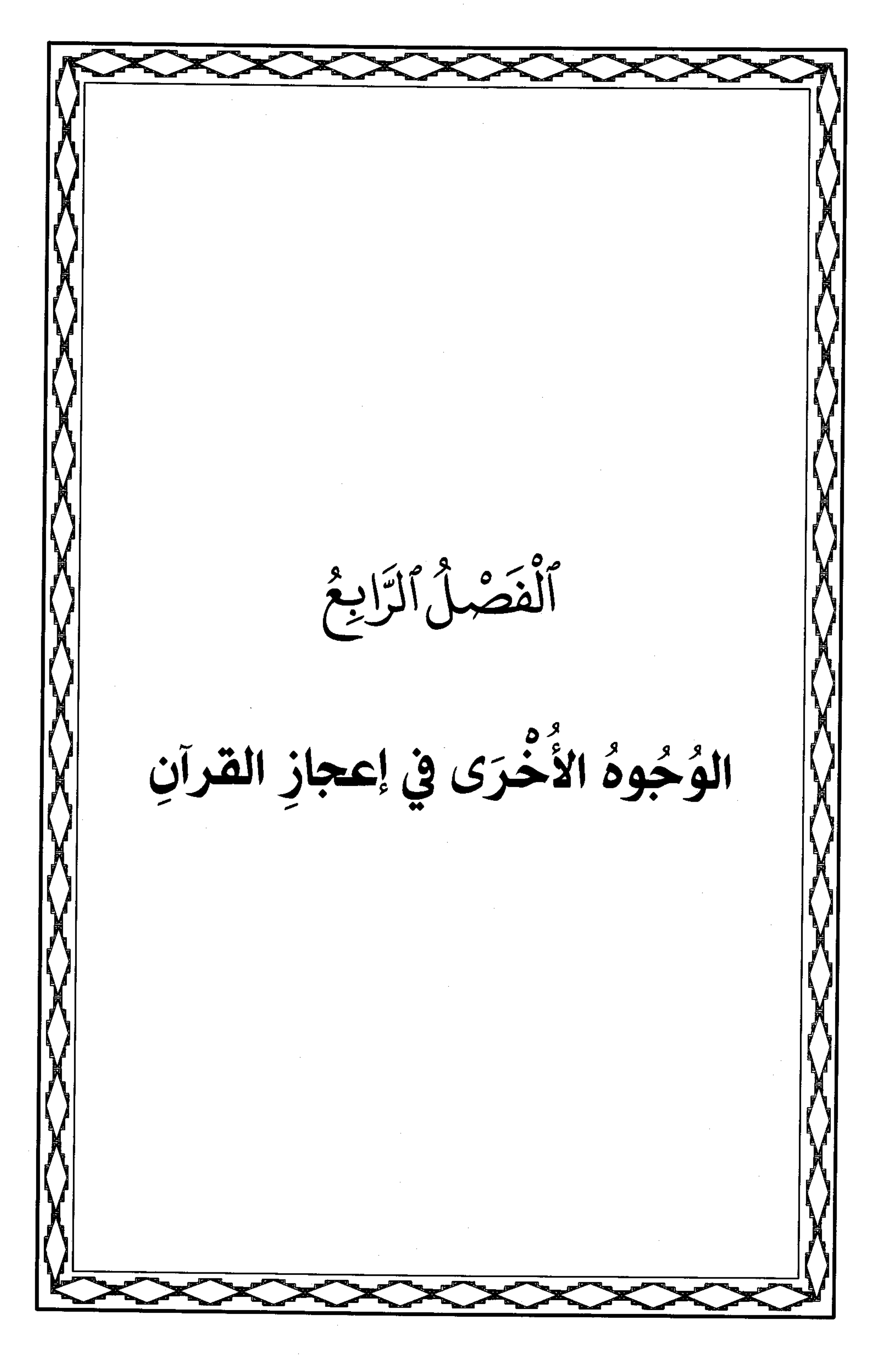
(٢) الصاحبي في فقه اللغة (ص١٧٧ ـ ١٧٨).

٣ ـ أن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة، وأساليب مختلفة لا يخفى ما فيه من الفصاحة[١].

وبالجملة فإن تكرار القصص القرآني مظهر من مظاهر الإعجاز اللغوي لما فيه من الفصاحة والبلاغة، (وقد كان المشركون في عصر النبي ﷺ يعجبون من اتساع الأمر في تكرير هذه القصص والأنباء مع تغاير أنواع النظم، وبيان وجوه التأليف، فعرَّفهم الله سبحانه أن الأمر بما يتعجبون منه مردود إلى قدرة من لا يلحقه نهاية، ولا يقع على كلامه عدد، لقوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]، وكقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ﴾ [لقمان: ٢٧] الآية)[٢].



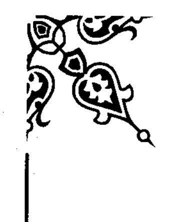
(١) البرهان (٣/ ٢٦).
(٢) البرهان (٣/ ٢٨).



ٱلْفَصْلُ ٱلرَّابِعُ

الوُجُوهُ الأُخْرَى في إعجازِ القرآنِ







المَبْحَثُ ٱلأَوَّلُ

الإعجازُ بالحقائقِ العِلْمِيةِ، والعَقْلِيةِ

تمهيد

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: أقسام المفسِّرين للقرآن الكريم من حيث ربط التفسير بالعلوم:

تعدَّدت تقسيمات العلماء للمفسِّرين، فمنهم من يقسمهم باعتبار مقدار الأخذ بالمأثور(١)، ومنهم من ينظر إلى اعتبار آخر، ومن ذلك صنيع الشيخ ابن عاشور، حيث قسَّم المفسِّرين من حيث ربط العلوم بالتفسير إلى ثلاثة أقسام، **وفي ذلك يقول** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فطرائق المفسِّرين للقرآن ثلاث: إما الاقتصار على الظاهر من المعنى الأصلي للتركيب مع بيانه وإيضاحه وهذا هو الأصل، وإما استنباط معان من وراء الظاهر تقتضيها دلالة اللفظ، أو المقام، ولا يجافيها الاستعمال ولا مقصد القرآن، وتلك هي مستتبعات التراكيب، وهي من خصائص اللغة العربية المبحوث فيها في علم البلاغة؛ ككون التأكيد يدل على إنكار المخاطب أو تردده(٢)، وكفحوى الخطاب(٣)، ودلالة

---

(١) **انظر**: التفسير والمفسرون (١/ ١٥٢).

(٢) **انظر**: الإيضاح (ص٢٣)، علوم البلاغة (ص٤٦)، جواهر البلاغة (ص٤٩).

(٣) **فحوى الخطاب**: أن يكون المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق؛ كالضرب =

الإشارة[1]، واحتمال المجاز مع الحقيقة.

وإما أن يجلب المسائل ويبسطها لمناسبة بينها وبين المعنى، أو لأن زيادة فهم المعنى متوقفة عليها، أو للتوفيق بين المعنى القرآني وبين بعض العلوم مما له تعلق بمقصد من مقاصد التشريع لزيادة تنبيه إليه أو لرد مطاعن من يزعم أنه ينافيه لا على أنها مما هو مراد الله من تلك الآية بل لقصد التوسع كما أشرنا إليه في المقدمة الثانية[2].

ففي الطريقة الثانية قد فرَّع العلماء وفصَّلوا في الأحكام، وخصُّوها بالتآليف الواسعة، وكذلك تفاريع الأخلاق والآداب التي أكثر منها حجة الإسلام الغزالي[3] في كتاب «الإحياء»، فلا يلام المفسر إذا أتى بشيء من تفاريع العلوم ممَّا له خدمة للمقاصد القرآنية، وله مزيد تعلق بالأمور الإسلامية، كما نفرض أن يفسر قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] بما ذكره المتكلمون في إثبات الكلام النفسي[4] والحجج

= للوالدين أولى بالتحريم من التأفف، **انظر**: المستصفى (٣/ ٤١٢).

(١) **دلالة الإشارة**: هي أن يكون مدلول اللفظ غير مقصود للمتكلم، كما في قوله ﷺ في حق النساء: (**النِّسَاءُ نَاقِصَاتُ عَقْلٍ وَدِينٍ**، فقيل له: يا رسول الله ما نقصان دينهن، قال: **تَمْكُثُ إِحْدَاهُنَّ فِي قَعْرِ بَيْتِهَا شَطْرَ دَهْرِهَا لَا تُصَلِّي وَلَا تَصُومُ**)، فهذا الخبر إنما سيق لبيان نقصان دينهن لا لبيان أكثر الحيض وأقل الطهر، ومع ذلك لزم منه أن يكون أكثر الحيض خمسة عشر يومًا وأقل الطهر كذلك، لأنه ذكر شطر الدهر مبالغة في بيان نقصان دينهن ولو كان الحيض يزيد على خمسة عشر يومًا وأقل الطهر لذكره. **انظر**: الإحكام للأمدي (٣/ ٧٣)، المستصفى (٣/ ٤٠٦).

(٢) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ٢٦).

(٣) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، ولد سنة ٤٥٠هـ، وتوفي سنة ٥٠٥هـ رحمه الله، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٩/ ٣٢٣)، الأعلام (٧/ ٢٢).

(٤) **الكلام النفسي**: معناه أن كلام الله تعالى معنًى واحد قائم بالنفس، وهذا قول الأشاعرة، وقد توسعت كتب العقائد في نقض هذا القول، **انظر**: شرح قصيدة =

لذلك، والقول في ألفاظ القرآن، وما قاله أهل المذاهب في ذلك.

وكذا أن يفسر ما حكاه الله تعالى في قصة موسى مع الخضر بكثير من آداب المعلم والمتعلم كما فعل الغزالي(١)، وقد قال ابن العربي: إنه أملى عليها ثمانمائة مسألة(٢).

وكذلك تقرير مسائل من علم التشريح(٣) لزيادة بيان قوله تعالى في خلق الإنسان: ﴿مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحج: ٥] الآيات، فإنه راجع إلى المقصد، وهو مزيد تقرير عظمة القدرة الإلـٰهية.

وفي الطريقة الثالثة تجلب مسائل علمية من علوم لها مناسبة بمقصد الآية: إما على أن بعضها يومىء إليه معنى الآية ولو بتلويح ما، كما يفسر أحد قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فيذكر تقسيم علوم الحكمة(٤) ومنافعها مُدخلًا ذلك تحت قوله: ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾، فالحكمة وإن كانت علمًا اصطلاحيًّا وليس هو تمام المعنى للآية إلا أن معنى الآية الأصلي لا يفوت، وتفاريع الحكمة تعين عليه.

وكذلك أن نأخذ من قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧] تفاصيل من علم الاقتصاد السياسي، وتوزيع الثروة

= ابن القيم (٢/ ٢٩١)، شرح العقيدة الطحاوية (١/ ١٦٨).

(١) **انظر**: إحياء علوم الدين (١/ ٥٠ ـ ٥١)، (٣/ ١٦٣).

(٢) عزاها ابن عاشور لابن العربي في العواصم، ولم أجدها في العواصم ولا في مظنتها من أحكام القرآن، **وانظر**: التحرير والتنوير (١/ ٢٩).

(٣) **علم التشريح**: هو علم باحث عن كيفية أجزاء البدن وترتيبها من العروق والأعصاب والغضاريف والعظام واللحم وغير ذلك من أحوال كل عضو منه، **انظر**: أبجد العلوم (٢/ ١٤٩).

(٤) **علم الحكمة**: هو علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية، وموضوعه الأشياء الموجودة في الأعيان والأذهان، **انظر**: أبجد العلوم (٢/ ٢٤٥).

العامة، ونعلِّل بذلك مشروعية الزكاة، والمواريث، والمعاملات المركبة من رأس مال وعمل، على أن ذلك تومئ إليه الآية إيماء، وأن بعض مسائل العلوم قد تكون أشد تعلقًا بتفسير آي القرآن كما نفرض مسألة كلامية لتقرير دليل قرآني مثل برهان التمانع[(١)] لتقرير معنى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وكتقرير مسألة المتشابه لتحقيق معنى نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾[(٢)] [الذاريات: ٤٧]، فهذا كونه من غايات التفسير واضح، وكذا قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، فإن القصد منه الاعتبار بالحالة المشاهدة، فلو زاد المفسِّر ففصَّل تلك الحالة وبيَّن أسرارها وعِلَلها بما هو مبيَّن في علم الهيئة[(٣)] كان قد زاد المقصد خدمة.

وإما على وجه التوفيق بين المعنى القرآني وبين المسائل الصحيحة من العلم حيث يمكن الجمع.

---

(١) **برهان التمانع**: هو أنه لو كان للعالم صانعان فعند اختلافهما مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم وآخر تسكينه، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته ـ: فإما أن يحصل مرادهما أو مراد أحدهما أو لا يحصل مراد واحد منهما، والأول ممتنع لأنه يستلزم الجمع بين الضدين، والثالث ممتنع لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون وهو ممتنع ويستلزم أيضًا عجز كل منهما، والعاجز لا يكون إلهًا، واذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الإله القادر والآخر عاجزًا لا يصلح للإلهية، **انظر**: شرح العقيدة الطحاوية (ص٧٧).

(٢) ما ذكره ابن عاشور من كون هذه الآية من المتشابه لا وجه له، إذ معنى الأيد هنا: القوة، وليست من آيات الصفات.

(٣) **علم الهيئة**: وهو تعيين الأشكال للأفلاك وحصر أوضاعها وتعددها لكل كوكب من السيارة، والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة الموجودة لكل واحد منها، ومن رجوعها واستقامتها وإقبالها وإدبارها، **انظر**: أبجد العلوم (١/ ٢٥٩ ـ ٢٦٠).

وإما على وجه الاسترواح من الآية كما يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧] أن فناء العالم يكون بالزلازل(١)، ومن قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] الآية، أن نظام الجاذبية يختل عند فناء العالم، وشرط كون ذلك مقبولًا أن يسلك فيه مسلك الإيجاز، فلا يجلب إلا الخلاصة من ذلك العلم ولا يصير الاستطراد كالغرض المقصود له لئلَّا يكون كقولهم: السي بالسي يذكر)(٢).

ومن خلال هذا التفصيل الذي ذكره ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ يمكن تبيين التالي:

١ ـ يمكن إجمال الطرائق الثلاث للمفسرين التي ساقها ابن عاشور بما يلي:

الطريقة الأولى: بيان ظاهر المعنى، ومن الملاحظ أن أصحاب هذه الطريقة هم أقل المفسِّرين عناية بربط العلوم المختلفة بالتفسير، ولا أجد مثالًا يمكن أن يصدق على أهل هذه الطريقة أصدق من كتب غريب القرآن، فهي تعنى ببيان المراد من اللفظ، ولا تلتفت إلى الصلة بين هذا المعنى القرآني وبين العلوم المختلفة.

الطريقة الثانية: استنباط معانٍ أخرى يحتملها النص القرآني، ويسمِّي بعض الباحثين هذه الطريقة طريقة المعتدلين في القول بالتفسير العلمي(٣)، وهم الذين لم يميلوا إلى الإفراط أو التفريط في هذا الأمر،

---

(١) **انظر**: التحرير والتنوير (١٥/ ٣٣٥).

(٢) **السي لغةً**: المثل، والمراد المثيل يذكر عند ذكر مثيله، **انظر**: المصباح المنير (١/ ٣٠٠)، **وانظر**: التحرير والتنوير (١/ ٤٢ ـ ٤٣).

(٣) **التفسير العلمي**: هو الكشف عن معاني الآية أو الحديث في ضوء ما ترجَّحت صحَّته من نظريات العلوم الكونية، وقيل: تحكيم مصطلحات العلوم في فهم الآية، والربط بين الآيات الكريمة ومكتشفات العلوم التجريبية، **انظر**: لمحات في علوم القرآن =

وممَّن يصدق عليه هذا الوصف من المفسرين ابن عاشور نفسه[١]، والنظر في بعض الآيات التي فسَّرها ابن عاشور بمقتضى بعض العلوم يبين بجلاء منهجه المعتدل في هذا الباب[٢].

الطريقة الثالثة: ذكر المسائل والمباحث التي بينها وبين المعنى الظاهر أدنى مناسبة، وهذه الطريقة هي طريقة المبالغين في التفسير العلمي.

٢ ـ الأصل في التفسير بيان ظاهر المعنى الأصلي للتركيب، وهي إحدى طرائق المفسرين التي ذكرها ابن عاشور.

٣ ـ الطريقة الثانية من طرائق المفسرين، وهي استنباط معانٍ أخرى يحتملها النص هي غالب صنيع المفسرين، بل إن كثيرًا ممن عرَّف التفسير جعل هذا الاستنباط مما يدخل في تعريف التفسير.

٤ ـ الطريقة الثالثة من طرائق المفسِّرين، وهي جلب المسائل التي بينها وبين ظاهر الآية مناسبة، لا يراد بها أن هذه المعاني من تمام مراد الله تعالى من الآيات الكريمة، **وإنما يراد بها**:

- مراعاة المناسبة بين المعنى القرآني وبين هذه المسائل.
- زيادة فهم المعنى، إذ قد تكون زيادة فهم المعنى متوقفة عليها.

= واتجاهات التفسير (ص٢٩١)، **وانظر في بيان طريقة المعتدلين في التفسير العلمي**: التفسير العلمي بين القبول والرد (ص١٢١) من أبحاث مجلة جامعة الخليل للبحوث، المجلد الثاني، العدد الأول، ٢٠٠٥م.

(١) **انظر**: المصدر السابق.

(٢) ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ **يقول** رَحِمَهُ اللهُ: (وفي الآية إشارة إلى أن نور القمر مستفاد من نور الشمس؛ **أي**: من توجه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر، وليس نيِّرًا بذاته، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن وهو مما أشرت إليه في المقدمة العاشرة). **انظر**: التحرير والتنوير (٣٠/٣٦٧).

- الإرشاد إلى الاهتمام ببعض العلوم مما له تعلق بمقاصد التشريع.
- الرد على القائلين إن في القرآن ما ينافي بعض العلوم.

المسألة الثانية: أقوال العلماء في التفسير العلمي:

اختلف العلماء في تفسير الآيات الكريمة بمقتضى نتائج بعض العلوم التجريبية، وتعددت آراؤهم في ذلك، **وقد بسط ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ **القول في ذلك فقال:** (وللعلماء في سلوك هذه الطريقة الثالثة على الإجمال آراء: فأما جماعة منهم فيرون من الحسن التوفيق بين العلوم غير الدينية وآلاتها وبين المعاني القرآنية ويرون القرآن مشيرًا إلى كثير منها.

قال ابن رشد الحفيد[١] في فصل المقال[٢]: «أجمع المسلمون على أن ليس يجب أن تحمل ألفاظ الشرع كلها على ظاهرها ولا أن تخرج كلها عن ظاهرها بالتأويل، والسبب في ورود الشرع بظاهر وباطن هو اختلاف نظر الناس[٣]، وتباين قرائحهم في التصديق، وتخلص إلى القول بأن بين العلوم الشرعية والفلسفية اتصالًا.

وإلى مثل ذلك ذهب قطب الدين الشيرازي في شرح حكمة الإشراق[٤]، وهذا الغزالي، والإمام الرازي، وأبو بكر ابن العربي وأمثالهم صنيعهم يقتضي التبسط وتوفيق المسائل العلمية، فقد ملؤوا كتبهم من الاستدلال على المعاني القرآنية بقواعد العلوم الحكمية وغيرها، وكذلك الفقهاء في كتب أحكام القرآن، وقد علمت ما قاله

---

(١) أبو الوليد، محمد بن أحمد بن محمد رشد القرطبي، ولد سنة ٥٢٠هـ، وتوفي سنة ٥٩٥هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (٢١/٣٠٧)، الأعلام (٥/٣١٨).

(٢) فصل المقال (ص٣٣).

(٣) في هذه العبارة تصوف ينبغي التنبه له.

(٤) لم أجد هذا الكتاب.

ابن العربي فيما أملاه على سورة نوح وقصة الخضر»[١]، وكذلك ابن جني، والزجاج، وأبو حيان قد أشبعوا تفاسيرهم من الاستدلال على القواعد العربية، ولا شك أن الكلام الصادر عن علَّام الغيوب تعالى وتقدَّس لا تبنى معانيه على فهم طائفة واحدة، ولكن معانيه تطابق الحقائق، وكل ما كان من الحقيقة في علم من العلوم، وكانت الآية لها اعتلاق بذلك، فالحقيقة العلمية مرادة بمقدار ما بلغت إليه أفهام البشر وبمقدار ما ستبلغ إليه. وذلك يختلف باختلاف المقامات ويبنى على توفر الفهم وشرطه أن لا يخرج عمَّا يصلح له اللفظ عربية ولا يبعد عن الظاهر إلا بدليل، ولا يكون تكلُّفًا بيِّنًا ولا خروجًا عن المعنى الأصلي حتى لا يكون في ذلك كتفاسير الباطنية...... وذهب ابن العربي في العواصم[٢] إلى إنكار التوفيق بين العلوم الفلسفية، والمعاني القرآنية، ولم يتكلم على غير هاته العلوم، وذلك على عادته في تحقير الفلسفة لأجل ما خولطت به من الضلالات الاعتقادية، وهو مفرط في ذلك مستخف بالحكماء[٣].

وأنا أقول: إن علاقة العلوم بالقرآن على أربع مراتب:

الأولى: علوم تضمَّنها القرآن كأخبار الأنبياء، والأمم، وتهذيب الأخلاق، والفقه، والتشريع، والاعتقاد، والأصول، والعربية، والبلاغة.

الثانية: علوم تزيد المفسر علمًا كالحكمة، والهيئة، وخواص المخلوقات.

---

(١) قال أبو بكر ابن العربي في العواصم: إنه أملى على سورة نوح خمسمائة مسألة، وعلى قصة موسى ثمانمائة مسألة، انظر النقل عنه في التحرير والتنوير (١/ ٢٩)، ولم أجد العبارة في العواصم.

(٢) لم أجده في العواصم.

(٣) إذا كان المراد بالحكماء هنا الفلاسفة كما هو الظاهر فهم من أبعد الناس عن وصف الحكمة، ومخالفاتهم العقدية تجعل بُعد ابن العربي عنهم هو الصحيح، والله أعلم.

الثالثة: علوم أشار إليها أو جاءت مؤيدة له كعلم طبقات الأرض، والطب[١]، والمنطق[٢].

الرابعة: علوم لا علاقة لها به إما لبطلانها كالزجر[٣]، والعيافة[٤]، والميثولوجيا[٥]، وإما لأنها لا تعين على خدمته؛ كعلم العروض[٦] والقوافي)[٧].

ومن خلال النقل السابق يتبين الخلاف في التفسير العلمي، وأن العلماء رحمهم الله تعالى في ذلك على طائفتين:

الطائفة الأولى: القائلون بالتوفيق بين العلوم غير الدينية، وبين

---

(١) **علم الطب**: هو علم يبحث فيه عن بدن الإنسان من جهة ما يصح ويمرض لحفظ الصحة وإزالة المرض، **انظر**: أبجد العلوم (٢/ ٣٥٣)، كشاف اصطلاحات الفنون (٢/ ١١٢٤).

(٢) **علم المنطق**: هو علم يتعرف منه كيفية اكتساب المجهولات التصورية والتصديقية من معلوماتها، **انظر**: أبجد العلوم (٢/ ٥٢١)، .

(٣) **الزجر**: أن يتشأم الإنسان من شيء تتأثر النفس من وروده على المسامع أو المناظر تأثرًا لا بالطبع، فإن التنفر الطبيعي: كالنفرة من صوت صرير الزجاج أو الحديد ليس من هذا القبيل، **انظر**: أبجد العلوم (٢/ ٣٦٨)، كشاف اصطلاحات الفنون (٢/ ١١٤٣).

(٤) **علم العيافة**: هو علم باحث عن تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر في المقابلة للأثر وهي التي تكون في تربة حرة يتشكل بشكل القدم، **انظر**: أبجد العلوم (٢/ ٣٨٥)، كشاف اصطلاحات الفنون (٢/ ١٢٤٢).

(٥) **كلمة الميثولوجيا** (من اليونانية تترجم: علم الأساطير) تشير إلى مجموعة من الخرافات والأساطير الخاصة بالثقافات التي يعتقد أنها صحيحة وخارقة، تستخدم لتفسير الأحداث الطبيعية وشرح الطبيعة والإنسانية. الميثولوجيا تشير أيضًا إلى فرع من العلوم التي تتناول جمع ودراسة وتفسير الأساطير، ولم أجد فيما وقفت عليه مصدرًا أعزو إليه غير موقع ويكيبيديا على شبكة الأنترنت على هذا الموقع: http://ar.wikipedia.org/ .

(٦) **علم العروض**: هو علم يبحث فيه عن أحوال الأوزان المعتبر للشعر العارضة للألفاظ والتراكيب العربية، **انظر**: أبجد العلوم (٢/ ٣٨١).

(٧) التحرير والتنوير (١/ ٤٣ ـ ٤٥).

المعاني القرآنية، وقد ذكر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ منهم: ابن رشد الحفيد، وقطب الدين الشيرازي، والغزالي، وابن العربي، والرازي، كما ذكر أنه صنيع الفقهاء في كتب أحكام القرآن، وفيما يظهر أن مراده رَحِمَهُ اللَّهُ من ذكر كتب أحكام القرآن ما فيها من ذكر تفاصيل المسائل الفقهية والأصولية أثناء تفسير الآيات القرآنية، وهذه العلوم من العلوم الدينية، وعليه فلا يظهر وجه ذكر كتب أحكام القرآن هنا، خاصة أن ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ يجعل الطائفة الأولى هم القائلون بالتوفيق بين العلوم غير الدينية وبين معاني القرآن الكريم، وكذلك القول في ذكر الزجاج، وأبو حيان رحمهما الله تعالى، وأنهما ممن أكثر من الاستدلال على القواعد العربية في ثنايا التفسير، فإن هذا كسابقه لا يظهر وجه اندراجه في هذه الطائفة، والله أعلم.

الطائفة الثانية: القائلون بإنكار التوفيق بين العلوم غير الدينية، وبين المعاني القرآنية، وقد ذكر حجتهم، وسأفرد مطلبًا خاصًّا لأدلتهم بإذن الله تعالى، لذا لا أطيل بذكر حجتهم هنا.

وأمر آخر يحسن ذكره هنا، وهو أن ابن عاشور بعد عرضه للخلاف بين الطائفتين، عقَّبَ بمراتب علاقة العلوم بالقرآن الكريم، وهذه المراتب ليست مُرتبة على الخلاف السابق، ذلك أن فيها ما هو محل اتفاق بين الطائفتين المختلفتين كالمرتبة الأولى والرابعة، وفيها ما هو محل الخلاف كالمرتبتين الثانية والثالثة، والله أعلم.

المَطْلَبُ الْأَوَّلُ

المراد بالإعجاز بالحقائق العلمية والعقلية

يعرِّف العلماء الإعجاز العلمي بقولهم: هو إخبار القرآن الكريم أو السُّنة النبوية بحقيقة أثبتها العلم التجريبي وثبت عدم إمكانية إدراكها

بالوسائل البشرية في زمن النبي ﷺ[١]، والملاحظ أن هذا التعريف ليس هو مراد ابن عاشور من مصطلح الإعجاز العلمي، أو الإعجاز بالحقائق العلمية والعقلية كما يعبر أحيانًا، بل إن هذا التعريف للإعجاز العلمي هو نوع مما يندرج ضمن مراد ابن عاشور بهذه العبارة، **يقول** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الجهة الثالثة: ما أودع فيه من المعاني الحكمية والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة، وهذه الجهة أغفلها المتكلمون في إعجاز القرآن من علمائنا مثل أبي بكر الباقلاني، والقاضي عياض)[٢]، وعند التأمل في هذا التعريف نجده جمع أنواعًا وأَوْجهًا من الإعجاز يذكرها العلماء المشتغلون بهذا العلم؛ كالإعجاز التاريخي، والتشريعي، إضافة إلى الإعجاز العلمي.

ومرد هذا الخلاف في مفهوم الإعجاز العلمي بين ابن عاشور، وبين من تناول هذا النوع من الإعجاز إلى الخلاف في مفهوم العلم عند كلٍّ، وفي ذلك يقول بعض الباحثين: (ويلاحظ أن مدلول العلم عند الطاهر بن عاشور أوسع من مدلول المعتنين بالإعجاز العلمي الذين جعلوه في العلوم التجريبية)[٣].

وقد وجدت من الباحثين من قال في الإعجاز العلمي بمثل ما عرَّفه ابن عاشور، وهو الدكتور محمد أحمد الغمراوي[٤] رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث يقول:

---

(١) الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة تاريخه وضوابطه (ص٢١).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٠٤).

(٣) مصطلح الإعجاز العلمي عند الطاهر بن عاشور، مقال للدكتور مساعد الطيار حفظه الله، منشور في موقع ملتقى أهل التفسير، على هذا الموقع: http://www.tafsir.org/.

(٤) محمد بن أحمد الغمراوي، عالم الكيمياء المصري وأستاذ الكيمياء بكلية الصيدلة =

(الواقع أن موضوع إعجاز القرآن لا يزال بكرًا برغم كل ما كتب فيه، لكني لست أريد أن أتناوله إلا من تلك الناحية التي لا يتوقف تقديرها والتسليم بها على معرفة لغة لا تتيسر معرفتها لكل أحد، هذه الناحية هي الناحية العلمية من الإعجاز، فضلًا عن ذلك فإن الإعجاز يشمل الناحية النفسية، إذ قد اقتاد القرآن النفس لردها إلى فطرتها. كما يشمل الإعجاز الناحية التشريعية والتاريخية التي كشف عنها التنقيب الأثري فيما بعد. وكذلك شمل الإعجاز الناحية الكونية، لما فطر الله عليه الكائنات في الكون. هذه النواحي هي التي ينبغي أن يشمِّر المسلمون للكشف عنها وإظهارها للناس في هذا العصر الحديث، ولن يستطيعوا ذلك على وجهه حتى يطلبوا العلوم كلها ليستعينوا بكل علم على تفهم ما اتصل به من آيات القرآن، واستظهار أسرار آياته التي اتصلت بالعلوم جميعًا. ولا غرابة في أن يتصل القرآن بالعلوم كلها)[١].

وأما أهمية هذا النوع من أنواع الإعجاز، فهي تتمثل في عدة أمور من أهمها:

١ ـ أن الإعجاز بالحقائق العلمية والعقلية مستمر على مر العصور، **يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ: (والقرآن معجز من الجهة الثالثة[٢] للبشر قاطبة إعجازًا مستمرًّا على ممرِّ العصور، وهذا من جملة ما شمله قول

= بالقاهرة، ومؤسس وعميد كلية الصيدلة بجامعة الرياض، الأستاذ بكلية أصول الدين بالأزهر الشريف لمادة التفسير والأستاذ بقسم الدراسات العليا بالكلية، وهو من الرعيل الذي دافع عن الإسلام ضد أعداء الإسلام وتصدى بعلمه وقلمه لتيارات الإلحاد، ولد عام ١٨٩٣م وتوفي عام ١٩٧١م، رَحِمَهُ اللَّهُ وأثابه عن جهاده في سبيل الإسلام، **انظر**: إعجاز القرآن الكريم (ص٢٦٠).

(١) الإسلام في عصر العلم (٢٥٧ ـ ٢٥٨) بواسطة كتاب إعجاز القرآن الكريم (ص٢٦٠).

(٢) وهي الإعجاز بالحقائق العلمية والعقلية.

أئمة الدين: إن القرآن هو المعجزة المستمرة على تعاقب السنين لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحِكَمية والعلمية والأخلاقية، وهو دليل تفصيلي لأهل تلك المعاني وإجمالي لمن تبلغه شهادتهم بذلك)[1].

٢ ـ أن الإعجاز بالحقائق العلمية والعقلية يدركه العقلاء من غير العرب، وفي عبارة ابن عاشور السابقة ما يشير إلى هذا المعنى.

المَطْلَبُ الثَّانِي

كيفية الإعجاز بالحقائق العلمية والعقلية

يذكر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ أنواع العلوم وما اشتمل عليه القرآن الكريم منها، **فيقول**: (**إن العلم نوعان**: علم اصطلاحي وعلم حقيقي. **فأما الاصطلاحي**: فهو ما تواضع الناس في عصر من الأعصار على أن صاحبه يعد في صف العلماء، وهذا قد يتغير بتغير العصور ويختلف باختلاف الأمم والأقطار، وهذا النوع لا تخلو عنه أمة.

وأما العِلم الحقيقي: فهو معرفة ما بمعرفته كمال الإنسان وما به يبلغ إلى ذروة المعارف وإدراك الحقائق النافعة عاجلًا وآجلًا، وكِلا العِلْمين كمال إنساني ووسيلة لسيادة أصحابه على أهل زمانهم، وبين العِلْمَين عموم وخصوص من وجه.

وهذه الجهة خلا عنها كلام فصحاء العرب؛ لأن أغراض شعرهم كانت لا تعدو وصف المشاهدات والمتخيلات والافتراضات المختلفة، ولا تحوم حول تقرير الحقائق وفضائل الأخلاق التي هي أغراض القرآن ولم يقل إلا صدقًا كما أشار إليه فخر الدين الرازي)[2].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٥).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٢٦).

وإذا كانت هذه هي أنواع العلوم، فإن إعجاز القرآن الكريم العلمي يظهر بإتيانه في كل نوع بما لم يأت به الناس في هذه العلوم.

أما اشتمال القرآن الكريم على أصول العلم الاصطلاحي، **فذلك ما ذكره ابن عاشور** رَحِمَهُ اللهُ **بقوله:** (وقد اشتمل القرآن على النوعين: فأما النوع الأول فتناوله قريب لا يحتاج إلى كد فكر ولا يقتضي نظرًا، فإن مبلغ العلم عندهم يومئذٍ علوم أهل الكتاب، ومعرفة الشرائع والأحكام، وقصص الأنبياء والأمم وأخبار العالم، وقد أشار إلى هذا القرآن بقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٧]، وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هود: ٤٩]، ونحو هذا من محاجة أهل الكتاب، ولعل هذا هو الذي عناه عياض بقوله في الشفاء[1]: «ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الداثرة مما كان لا يعلم القصة منه إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قضى عمره في تعليم ذلك، فيورده النبي ﷺ على وجهه، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه؛ كخبر موسى مع الخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، ولقمان. . .» إلخ كلامه، وإن كان هو قد ساقه في غير مساقنا بل جاء به دليلًا على الإعجاز من حيث علمه به ﷺ مع ثبوت الأمية ومن حيث محاجته إياهم بذلك.

فأما إذا أردنا عد هذا الوجه في نسق وجوه الإعجاز، فذلك فيما نرى من جهة أن العرب لم يكن أدبهم مشتملًا على التاريخ إلا بإرشادات

(١) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى (١/ ٣٧٥).

نادرة كقولهم: دِرعٌ عادية، ورمح يَزَنية، **وقول شاعرهم**:

أَحْلَامُ عَادٍ وَأَجْسَامٌ مُطَهَّرةٌ(١)

وقول آخر:

تَرَاهُ يُطَوِّفُ الآفَاقَ حِرْصًا لِيَأْكُلَ رَأسَ لُقْمَانَ بْنِ عَادٍ(٢)

ولكنهم لا يأبهون بذكر قصص الأمم التي هي مواضع العبرة، فجاء القرآن بالكثير من ذلك تفصيلًا كقوله: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]، وكقوله: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، ولهذا يقل في القرآن التعرض إلى تفاصيل أخبار العرب لأن ذلك أمر مقرر عندهم معلوم لديهم، وإنما ذكر قليل منه على وجه الإجمال على معنى العبرة والموعظة بخبر عاد وثمود وقوم تُبَّع كما أشرنا إليه في المقدمة السابعة في قصص القرآن)(٣).

وأما اشتمال القرآن الكريم على ما لم يأت به العرب من أصول العلم الحقيقي، **فذلك ما ذكره ابن عاشور** رحمه الله **بقوله**: (وأما النوع الثاني من إعجازه العلمي فهو ينقسم إلى قسمين: قسم يكفي لإدراكه فهمه وسمعه، وقسم يحتاج إدراك وجه إعجازه إلى العلم بقواعد العلوم فينبلج للناس شيئًا فشيئًا انبلاج أضواء الفجر على حسب مبالغ الفهوم وتطورات العلوم، وكِلا القسمين دليل على أنه من عند الله لأنه جاء به أمي في موضع لم يعالج أهله دقائق العلوم والجائي به ثاو بينهم لم يفارقهم.

---

(١) البيت للنابغة الذبياني، وتكملته: **مِنَ المَعَقَّةِ وَالآفَاتِ وَالإِثْمِ**، **انظر**: ديوان النابغة (ص١٠٦).

(٢) نسب البيت إلى أبي المهوش الأسدي، **وانظر**: أدب الكاتب (ص١٤).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٢٦ ـ ١٢٧).

وقد أشار القرآن إلى هذه الجهة من الإعجاز بقوله تعالى في سورة القصص: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤٩، ٥٠] ثم إنه ما كان قصاراه مشاركة أهل العلوم في علومهم الحاضرة حتى ارتقى إلى ما لم يألفوه وتجاوز ما درسوه وألفوه.

ولقد فتح الأعين إلى فضائل العلوم بأن شبَّه العلم بالنور وبالحياة كقوله: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]، وقوله: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وهذا النوع من الإعجاز هو الذي خالف به القرآن أساليب الشعر وأغراضه مخالفة واضحة)[١].

وهناك أمر آخر يضاف فيما يتعلق بالإعجاز بالحقائق العلمية والعقلية، وهو أن الإعجاز بهذا النوع متحقق في جملة القرآن الكريم، **يقول ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذه الجهة من الإعجاز إنما تثبت للقرآن بمجموعه، أي مجموع هذا الكتاب، إذ ليست كل آية من آياته ولا كل سورة من سوره بمشتملة على هذا النوع من الإعجاز، ولذلك فهو إعجاز حاصل من القرآن وغير حاصل به التحدي إلا إشارة نحو قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢][٢].

(وهذا يفيد في أن بيان الإعجاز في هذه القضية عنده إنما هو بالأمر الكلي، وليس بالتفاصيل، فالآية الواحدة المبينة للإعجاز العلمي لا يلزم أن تقوم مقام الحجة في الإعجاز، وإنما يكون مقام الحجة

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٢٧).
(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٢٦).

بمجموعها الذي نصَّ عليه القرآن أو أشار إليه)[١].

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

الرد على منكر الإعجاز بالحقائق العلمية والعقلية

أنكر جمع من العلماء القول بإعجاز الحقائق العلمية والعقلية، وقد تناول ابن عاشور هذا القول بالدراسة والنقد، ومن ذلك نقله لكلام الشاطبي في هذا الأمر، وجوابه عليه.

يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما أبو إسحاق الشاطبي فقال في الفصل الثالث من المسألة الرابعة: «لا يصح في مسلك الفهم والإفهام إلا ما يكون عامًّا لجميع العرب، فلا يتكلف فيه فوق ما يقدرون عليه»[٢].

وقال في المسألة الرابعة من النوع الثاني: «ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها وهم العرب تنبني عليه قواعد منها: أن كثيرًا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح، فإن السلف الصالح كانوا أعلم بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه ولم يبلغنا أن أحدًا منهم تكلم في شيء من هذا سوى ما ثبت فيه، من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة. نعم تضمن علومًا من جنس علوم العرب وما هو على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة»[٣]. . . إلخ.

وهذا مبني على ما أسسه من كون القرآن لمَّا كان خطابًا للأميين

---

(١) مصطلح الإعجاز العلمي عند الطاهر بن عاشور، مقال للدكتور مساعد الطيار، منشور في ملتقى أهل التفسير، على هذا الموقع:
http://www.tafsir.org

(٢) الموافقات (٢/ ٨٥).

(٣) الموافقات (٢/ ٧٩ ـ ٨٠).

وهم العرب، فإنما يعتمد في مسلك فهمه وإفهامه على مقدرتهم وطاقتهم وأن الشريعة أمية.

وهو أساس واه لوجوه ستة:

الأول: أن ما بناه عليه يقتضي أن القرآن لم يقصد منه انتقال العرب من حال إلى حال، وهذا باطل لما قدمناه، قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩].

الثاني: أن مقاصد القرآن راجعة إلى عموم الدعوة، وهو معجزة باقية، فلا بد أن يكون فيه ما يصلح لأن تتناوله أفهام من يأتي من الناس في عصور انتشار العلوم في الأمة.

الثالث: أن السلف قالوا: إن القرآن لا تنقضي عجائبه(١) يعنون معانيه، ولو كان كما قال الشاطبي لانقضت عجائبه بانحصار أنواع معانيه.

الرابع: أن من تمام إعجازه أن يتضمن من المعاني مع إيجاز لفظه ما لم تفِ به الأسفار المتكاثرة.

الخامس: أن مقدار أفهام المخاطبين به ابتداءً لا يقضي إلا أن يكون المعنى الأصلي مفهومًا لديهم، فأما ما زاد على المعاني الأساسية فقد يتهيأ لفهمه أقوام وتحجب عنه أقوام، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

---

(١) هذا الأثر جاء مرفوعًا، وموقوفًا، أما المرفوع فهو من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أخرجه الترمذي، كتاب فضائل القرآن، باب فضل القرآن، (٥/ ١٧٢) رقم (٢٩٠٦)، والدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن، (٢/ ٥٢٦) رقم (٣٣٣١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم (٢٠٨١)، وأما الموقوف فجاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، أخرجه الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب فضل من قرأ القرآن، (٢/ ٥٢٣) رقم (٣٣١٥)، وفي إسناده إبراهيم الهجري ضعيف، أفاده محقق الدارمي.

السادس: أن عدم تكلم السلف عليها إن كان فيما ليس راجعًا إلى مقاصده، فنحن نساعد عليه، وإن كان فيما يرجع إليها فلا نسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات، بل قد بيَّنوا وفصَّلوا وفرَّعوا في علوم عُنوا بها، ولا يمنعنا ذلك أن نقتفي على آثارهم في علوم أخرى راجعة لخدمة المقاصد القرآنية، أو لبيان سعة العلوم الإسلامية، أما ما وراء ذلك فإن كان ذكره لإيضاح المعنى فذلك تابع للتفسير أيضًا؛ لأن العلوم العقلية إنما تبحث عن أحوال الأشياء على ما هي عليه، وإن كان فيما زاد على ذلك فذلك ليس من التفسير لكنه تكملة للمباحث العلمية، واستطراد في العلم لمناسبة التفسير ليكون متعاطي التفسير أوسع قريحة في العلوم)[١].

ويقول رَحِمَهُ اللَّهُ **في موضع آخر**: (هذا والشاطبي قال في الموافقات: «إن القرآن لا تحمل معانيه ولا يتأوَّل إلا على ما هو متعارف عند العرب»[٢]، ولعل هذا الكلام صدر منه في التفصِّي[٣] من مشكلات في مطاعن المُلحدين اقتصادًا في البحث وإبقاء على نفيس الوقت، وإلا فكيف ينفي إعجاز القرآن لأهل كل العصور، وكيف يقصر إدراك إعجازه بعد عصر العرب على الاستدلال بعجز أهل زمانه إذ عجزوا عن معارضته، وإذ نحن نسلم لهم التفوق في البلاغة والفصاحة فهذا إعجاز إقناعي بعجز أهل عصر واحد، ولا يفيد أهل كل عصر إدراك طائفة منهم لإعجاز القرآن.

وقد بيَّنت نقض كلام الشاطبي في أواخر المقدمة الرابعة[٤].

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٤٤ ـ ٤٥). (٢) **انظر**: الموافقات (٣/ ٤٠٩ ـ ٤١٠).

(٣) **التفصي**: التخلص من الشدة، وتفصَّى من دَينه: خرج منه، وأَصل التَّفصِّي أَن يكون الشيء في مضيق ثم يخرج إِلى غيره، **انظر**: لسان العرب (١٥/ ١٥٦)، النهاية في غريب الحديث (٣/ ٨٧١).

(٤) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ٤٤ ـ ٤٥).

وقد بدت لي حجة لتعلُّق هذه الجهة الثالثة بالإعجاز ودوامه وعمومه، وهي قوله ﷺ في الحديث الصحيح: **«مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُوتِيَ أَوْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»**[(١)]، **ففيه نكتتان غفل عنهما شارحوه:**

الأولى: أن قوله: **«مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ»** اقتضى أن كل نبي جاء بمعجزة هي إعجاز في أمر خاص كان قومه أعجب به وأعجز عنه، فيؤمنون على مثل تلك المعجزة، ومعنى آمن عليه؛ **أي**: لأجله وعلى شرطه، كما تقول: على هذا يكون عملنا أو اجتماعنا.

الثانية: أن قوله: **«وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا»** اقتضى أن ليست معجزته من قبيل الأفعال كما كانت معجزات الرسل الأولين أفعالًا لا أقوالًا؛ كقلب العصا وانفجار الماء من الحجر وإبراء الأكمه والأبرص، بل كانت معجزته ما في القرآن من دلالة على عجز البشر عن الإتيان بمثله من جهتي اللفظ والمعاني، وبذلك يمكن أن يؤمن به كل من يبتغي إدراك ذلك من البشر ويتدبره ويفصح عن ذلك تعقيبه بقوله: **«فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا»**، إذ قد عطف بالفاء المؤذِنة بالترتب، فالمناسبة بين كونه أوتي وحيًا وبين كونه يرجو أن يكون أكثرهم تابعًا لا تنجلي إلا إذا كانت المعجزة صالحة لجميع الأزمان حتى يكون الذين يهتدون لدينه لأجل معجزته أممًا كثيرين على اختلاف قرائحهم، فيكون هو أكثر الأنبياء تابعًا لا محالة، وقد تحقق ذلك لأن المعني بالتابع التابع له في حقائق الدين الحق لا اتِّباع الادِّعاء والانتساب بالقول.

ولعل الرجاء متوجه إلى كونه أكثر من جميعهم تابعًا، أي أكثر

---

(١) سبق تخريجه.

أتباعًا من أتباع جميع الأنبياء كلهم، وقد أغفل بيان وجه التفريع في هذا اللفظ النبوي البليغ)[١].

ومن خلال النقلين السابقين يمكن تناول عدد من الأمور، وذلك كما يلي:

١ ـ نسب كثير من الباحثين إنكار الإعجاز العلمي إلى الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ، والمتأمل في كلام الشاطبي لا يظهر له هذا الأمر واضحًا، وذلك أن أظهر كلام للشاطبي يمكن أن يفيد إنكاره للإعجاز العلمي هو النقل السابق عنه، وغالب من ينسب إليه إنكار الإعجاز العلمي ينقل عنه النص السابق، وكلامه السابق يقول فيه عن القرآن الكريم: (نعم تضمَّن علومًا من جنس علوم العرب وما هو على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة)، فالشاطبي لا ينكر اشتمال القرآن الكريم على بعض أنواع العلوم، وإنما ينكر أن يتضمن القرآن الكريم الإشارة إلى كل علم، وهذا أمر أوسع من أن يكون إنكارًا للإعجاز العلمي، فهو إنكار لاشتمال القرآن الكريم على كل علم، وليس إنكارًا لاشتمال القرآن الكريم على ما يعجز الناس عن إدراكه في زمن النبوة من العلوم.

ولذا فإن نسبة الشاطبي إلى إنكار الإعجاز العلمي بالمعنى المعاصر، أو الإعجاز بالحقائق العلمية والعقلية أمر بحاجة إلى مزيد بحث.

٢ ـ للشاطبي كلام متفرق في كتبه حول إعجاز القرآن الكريم، والنظر فيه يعين على معرفة موقفه من الإعجاز العلمي، ومن كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ قوله: (ووجه كونه معجزًا لا يحتاج إلى تقريره في هذا الموضع لأنه

---

(١) التحرير والتنوير (١/١٢٨ ـ ١٢٩).

كيفما تصور الإعجاز به فماهيته هي الدالة على ذلك، فإلى أي نحو منه ملت دَلَّكَ ذلك على صدق رسول الله ﷺ)[١].

وقوله في موضع آخر: (فمن حيث كان القرآن معجزًا أفحم الفصحاء وأعجز البلغاء أن يأتوا بمثله، فذلك لا يخرجه عن كونه عربيًّا جاريًا على أساليب كلام العرب ميسرًا للفهم فيه عن الله ما أمر به ونهى، لكن بشرط الدُّربة في اللسان العربي كما تبين في كتاب «الاجتهاد»، إذ لو خرج بالإعجاز عن إدراك العقول معانيه لكان خطابهم به من تكليف ما لا يطاق، وذلك مرفوع عن الأمة، وهذا من جملة الوجوه الاعجازية فيه)[٢].

وقال مبينًا اشتمال القرآن الكريم على كثير من علم التاريخ: (ومنها علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية، وفي القرآن من ذلك ما هو كثير، وكذلك فى السُّنَّة، ولكن القرآن احتفل في ذلك وأكثره من الأخبار بالغيوب التي لم يكن للعرب بها علم لكنها من جنس ما كانوا ينتحلون)[٣].

وهذه النقول السابقة تبين للمتأمل أن الشاطبي يرى أن هناك وجوهًا متعددة للإعجاز، وإن كان يعد وجه الإعجاز المقدم هو الفصاحة والبلاغة.

٣ ـ ناقش كثير من الباحثين رأي الشاطبي، وذلك على فرض إنكاره الإعجاز العلمي، وقد أورد ابن عاشور ستة وجوه في نقد هذا الرأي، **وزاد بعض الباحثين**[٤] **عليها ما يلي:**

- القرآن الكريم وإن نزل بلغة العرب إلا أنه لم ينزل لهم وحدهم، وإنما نزل للناس جميعًا.

---

(١) الموافقات (٣/ ٣٧٧).
(٢) الموافقات (٣/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧).
(٣) الموافقات (٢/ ٧٣).
(٤) إعجاز القرآن الكريم للدكتور فضل عباس (ص٢٥٦ ـ ٢٥٧).

• أن قول الشاطبي أن الشريعة أمية جدير بالمناقشة، إذ لا يلزم من أمية الأمة أُميَّة الشريعة.

• أن أُميَّة الأُمَّة ليست أمرًا مطلوبًا ولا مرغوبًا فيه، بل بعث الله رسوله في الأميين رسولًا ليخرجهم من الأمية إلى باحة العلوم والنور، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، فهذه مهمة الرسول مع الأميين: التلاوة والتزكية وتعليم الكتاب والحكمة، فالأمية ممدوحة في حقه ﷺ؛ لأنها أدل على الإعجاز وليست ممدوحة في الأمة.

٤ ـ مسألة الإعجاز العلمي، والتفسير العلمي وقع فيهما خلاف كبير، فمن مبالغ في القول بهما، ومن مُنكِر لهما، والتوسط في هذا الأمر هو المطلوب[١]، وذلك بالأخذ بالتفسير العلمي، والإعجاز العلمي بشروط وضوابط، **وقد وضع الباحثون كثيرًا من الضوابط، ومن أهمها:**

• أن يقتصر الإعجاز على الحقائق العلمية التي وصلت إلى حد القطع بها، بخلاف ما دون الحقائق من النظريات، أو حتى ما قد يعتبره البعض حقيقة علمية ويخالفه آخرون.

• ألا يكون التفسير العلمي أو الوجه من أوجه الإعجاز العلمي مجزومًا به عند تفسير الآية أو الحديث، بل ينبغي أن يساق على أنه قول في تفسير الآية أو شرح الحديث.

• من الضوابط ألا يقتضي التفسير العلمي للآية نقض ما جاء عن السلف فيها، فإن كانوا قد أجمعوا على معنى فلا يكون مستلزمًا نقضه، وإن لم يجمعوا واختلفوا فلا يكون أيضًا مستلزمًا لنقض جميع ما ورد

---

(١) **انظر**: علوم القرآن بين البرهان والإتقان (ص٤٩٨).

عنهم، بخلاف ما لو وافق البعض واستلزم نقض البعض الآخر، فذلك لا يمنع التفسير به.

- ألا ينطلق التفسير العلمي التجريبي من منطلق الانبهار بالحضارة والمكتشفات المعاصرة.
- ألا يعارض اللغة وقواعد النحو.
- ألا يكون مستلزمًا لمخالفة البلاغة القرآنية.
- يلاحظ أن يكون وجه الإعجاز واضحًا وليست مجرد إشارة بعيدة.
- عدم الخوض في الآخرة وما يتصل بها كالبرزخ والقيامة.
- عدم الخوض فيما يتعلق بصفات الله تعالى، مما قد يفهم منه نوع من التأويل؛ كمثل من فسَّر الكرسي والعرش ببعض الأجرام السماوية، ونحو ذلك.
- من ضوابط الإعجاز - أيضًا - عدم التأويل المتكلف، وأن الأصل ظاهر اللفظ ولا يعدل عن ظاهره إلا بقرينة قوية.
- موافقة سياق الآيات بحيث لا يكون التفسير نافرًا عن السياق[١].

المَطْلَبُ الرَّابِعُ

من هو المخاطب بالإعجاز بالحقائق العلمية والعقلية

يعد العلماء المشتغلون بالإعجاز العلمي هذا النوع من أنواع الإعجاز مدخلًا عظيمًا لنشر الدعوة الإسلامية بين الكفار، خصوصًا من يجهلون اللغة العربية، ولا يتمكنون من إدراك الإعجاز اللغوي بأنفسهم، وأما الشيخ ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ فيجعل الإعجاز بالحقائق العلمية والعقلية

---

(١) **انظر**: إعجاز القرآن الكريم للدكتور فضل عباس (ص٢٦٠)، مباحث في إعجاز القرآن (ص١٧١ - ١٧٧).

متوجهًا إلى ثلاثة أصناف من الناس، **يقول** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإعجازه من هذه الجهة للعرب ظاهر: إذ لا قبل لهم بتلك العلوم كما قال الله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ﴾ [هود: ٤٩]، وإعجازه لعامة الناس أن تجيء تلك العلوم من رجل نشأ أميًا في قوم أميين، وإعجازه لأهل الكتاب خاصة إذ كان ينبئهم بعلوم دينهم مع كونه أميًا، ولا قِبل لهم بأن يدَّعوا أنهم علَّموه؛ لأنه كان بمرأى من قومه في مكة بعيدًا عن أهل الكتاب الذين كان مستقرهم بقرى النضير، وقريظة، وخيبر، وتيماء، وبلاد فلسطين، ولأنه جاء بنسخ دين اليهودية والنصرانية والإنحاء على اليهود والنصارى في تحريفهم، فلو كان قد تعلم منهم لأعلنوا ذلك وسجَّلوا عليه أنه عقَّهم حق التعليم)(١).

وما قرره ابن عاشور من كون الإعجاز بالحقائق العلمية والعقلية يخاطب به العرب يمكن أن يدلل له بقصة النضر بن الحارث، والتي يذكرها المفسرون في تفسير قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

وقد جاء في سبب نزول الآية: (قال الكلبي(٢) ومقاتل(٣): نزلت في النضر بن الحارث. وذلك أنه كان يخرج تاجرًا إلى فارس فيشتري

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٢٩).

(٢) **الكلبي**: محمد بن السائب بن بشر الكلبي، أبو النضر، توفي سنة ١٤٦هـ، قال عنه الذهبي: (العلَّامة الأخباري، أبو النضر محمد بن السائب بن بشر الكلبي المفسر، وكان أيضًا رأسًا في الأنساب إلا أنه شيعي متروك الحديث). **انظر**: سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٤٩)، الأعلام (٦/ ١٣٣).

(٣) مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء، البلخي، أبو الحسن، توفي سنة ١٥٠، **انظر**: سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٠١)، الأعلام (٧/ ٢٨١).

أخبار الأعاجم فيرويها ويحدِّث بها قريشًا ويقول لهم: إن محمدًا عليه الصلاة والسلام يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار وأخبار الأكاسرة، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن، فنزلت فيه هذه الآية)[1].

ويقول ابن عاشور رحمه الله **في مقدمة تفسيره لسورة يوسف** عليه السلام: (وإن في هذه السورة أسلوبًا خاصًّا من أساليب إعجاز القرآن، وهو الإعجاز في أسلوب القصص الذي كان خاصة أهل مكة يعجبون مما يتلقونه منه من بين أقاصيص العجم والروم، فقد كان النضر بن الحارث وغيره يفتنون قريشًا بأن ما يقوله القرآن في شأن الأمم هو أساطير الأولين اكتتبها محمد ﷺ، وكان النضر يتردد على الحيرة فتعلم أحاديث «رستم» و«اسفنديار» من أبطال فارس، فكان يحدث قريشًا بذلك ويقول لهم: أنا والله أحسن حديثًا من محمد فهلُمَّ أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم بأخبار الفرس، فكان ما في بعضها من التطويل على عادة أهل الأخبار من الفرس يموه به عليهم بأنه أشبع للسامع، فجاءت هذه السورة على أسلوب استيعاب القصة تحديًّا لهم بالمعارضة)[2].

مما سبق يمكن القول أن العرب كانوا يعلمون أثر القصص التاريخي في تصديق القرآن الكريم وإعجازه، خصوصًا أنه من النبي الأمي ﷺ، حتى خشي كبراؤهم من هذا القصص، فراحوا يسلكون السبل في الصد عن القرآن الكريم، وهذا القصص مما يندرج ضمن الإعجاز بالحقائق العلمية حسب تعريف ابن عاشور لهذا النوع من الإعجاز.

---

(١) **انظر**: الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (١٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

المَطْلَبُ ٱلْخَامِسُ

أمثلة على الإعجاز بالحقائق العلمية والعقلية

هذه بعض الأمثلة التي تبين التطبيق العملي عند ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ لتعريفه للإعجاز بالحقائق العلمية والعقلية.

المثال الأول: التعبير عن حاكم مصر أيام يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالملك، دون الفرعون:

يقول الله تَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ﴾ [يوسف: ٤٣]، والملاحظ في سورة يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن التعبير عن الحاكم كان بلفظ الملك دون لفظ فرعون الذي اشتهر لقبًا لحكام مصر في تلك الفترة التاريخية، وذلك أن حكم الفراعنة لمصر تخللته فترة حكم مصر فيها الهكسوس، وهم قبائل من الرعاة من العرب، (وكما كان حكم الأسر الفرعونية قبل الهكسوس شاملًا لفلسطين وأنحاء أخرى من بلاد الشام، كذلك كان حكم الهكسوس، إلا أن الهكسوس وهم غزاة وافدون قد احترموا تقاليد الحكم السابقة، فلم يسموا أنفسهم بالفراعنة، وإنما أطلقوا على أنفسهم لقب ملوك، وعدَّهم مؤرِّخو التاريخ القديم وعلماء الآثار حلقة انقطاع في سلسلة الأسرات الفرعونية الحاكمة)[1].

وفي هذا يقول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره هذه الآية: (والتعريف في ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ للعهد أي ملك مصر. وسمَّاه القرآن هنا ملكًا ولم يسمِّه فرعون؛ لأن هذا الملك لم يكن من الفراعنة ملوك مصر القبط، وإنما كان ملكًا لمصر أيام حكمها «الهكسوس»، وهم العمالقة، وهم من الكنعانيين أو من العرب، ويعبر عنهم مؤرِّخو الإغريق بملوك الرعاة؛

(١) الإعجاز التاريخي في سورة يوسف (ص٨).

أي: البدو، وقد ملكوا بمصر من عام ١٩٠٠ إلى عام ١٥٢٥ قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وكان عصرهم فيما بين مدة العائلة الثالثة عشرة والعائلة الثامنة عشرة من ملوك القبط، إذ كانت عائلات ملوك القبط قد بقي لها حكم في مصر العليا في مدينة «طِيبة» كما تقدم عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وكان ملكهم في تلك المدة ضعيفًا لأن السيادة كانت لملوك مصر السفلى. ويقدر المؤرخون أن ملك مصر السفلى في زمن يوسف عليه السلام كان في مدة العائلة السابعة عشرة، فالتعبير عنه بالملك في القرآن دون التعبير بفرعون مع أنه عبر عن ملك مصر في زمن موسى عليه السلام بلقب فرعون هو من دقائق إعجاز القرآن العلمي)[١].

وما قرَّره ابن عاشور يقرِّره المتخصِّصون في التاريخ القديم[٢]، وقد تناولته المؤتمرات العلمية للإعجاز بالدراسة[٣].

المثال الثاني: نور القمر مستفاد من نور الشمس:

إن من الإعجاز العلمي للقرآن الكريم التفريق بين النجم والكوكب، وهو ما توصل إليه علماء الفلك الحديث بعد اكتشاف المناظير وإجراء الدراسات الضوئية على النجوم والكواكب، فالنجم ما هو إلا جسم سماوي متلألأ يشع الطاقة ذاتيًا بينما الكوكب جسم سماوي ثابت الإضاءة يعكس الأشعة التي يتلقاها من النجوم والشموس، وتعتبر

---

(١) التحرير والتنوير (١٢/ ٢٨٠).

(٢) وممن توصل إلى النتيجة نفسها الدكتور أحمد شلبي أستاذ التاريخ الإسلامي في الأزهر، **انظر**: الإعجاز التاريخي في سورة يوسف (ص٩)، وكذلك الدكتور هارون يحيى في كتابه المعجزات القرآنية (ص٧٤).

(٣) فمن أبحاث المؤتمر الثامن للإعجاز العلمي المنعقد في الكويت بحثٌ بعنوان: الإعجاز التاريخي والأدبي والتربوي في سورة يوسف، كتبه الدكتور عبد الحليم عويس أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية.

الشمس نجمًا وهي جسم سماوي متلألئ يشع الطاقة ذاتيًا، بينما القمر كوكب وهو جسم سماوي ثابت الإضاءة يعكس الأشعة التي يتلقاها من النجوم والشموس[(١)].

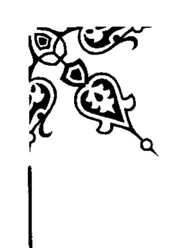
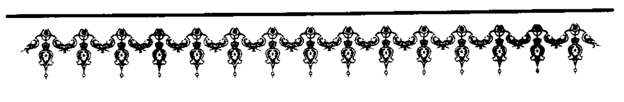
وفي هذا المعنى يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ [الشمس: ١، ٢] (وفي الآية إشارة إلى أن نور القمر مستفاد من نور الشمس، أي من توجه أشعة الشمس إلى ما يقابل الأرض من القمر وليس نيرًا بذاته، وهذا إعجاز علمي من إعجاز القرآن)[(٢)]، وهذا الذي ذكره ابن عاشور هو استنباط من الآيات الكريمة، وهو لا ينافي ما قاله المفسرون رحمهم الله تعالى في معاني هذه الآيات الكريمة[(٣)]، والله أعلم.



(١) هناك بحث مقدم للمؤتمر الدولي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة بدبي بعنوان: وجعلنا الشمس سراجًا، للدكتور/ ياسين المليكي، وهو منشور في موقع الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة على الرابط:
. htm4 http://www.nooran.org/D//

(٢) التحرير والتنوير (٣٠/ ٣٦٧).

(٣) قال الطبري: (أقسم جل ثناؤه بالشمس ونهارها لأن ضوء الشمس الظاهرة هو النهار، وقوله: ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ يقول تعالى ذكره: والقمر إذا تبع الشمس وذلك في النصف الأول من الشهر إذا غربت الشمس تلاها القمر طالعًا)، **انظر**: جامع البيان (٢٤/ ٤٣٥).

المبحث الثاني

الإعجازُ بأخبارِ الغيب

المتأمل في القرآن الكريم يجده تضمن أخبارًا متعددةً تتحدث عن وقائع ماضية لم يكن الرسول ﷺ يعلمها، ووقائع غيبية مستقبلية منها ما حدث في زمنه ﷺ، ومنها ما حدث بعد زمنه.

وقد عدَّ كثير من العلماء الذين كتبوا في إعجاز القرآن الكريم هذه الأخبار نوعًا من إعجاز القرآن الكريم، واقتداءً بصنيع هؤلاء العلماء رحمهم الله تعالى.

عدَّ ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ أخبار الغيب وجهًا من وجوه الإعجاز، فقال: (وأما الجهة الرابعة وهي: الإخبار بالمغيبات فقد اقتفينا أثر من سلفنا ممن عدَّ ذلك من وجوه الإعجاز اعتدادًا منا بأنه من دلائل كون القرآن منزلًا من عند الله، وإن كان ذلك ليس له مزيد تعلق بنظم القرآن ودلالة فصاحته وبلاغته على المعاني العليا، ولا هو كثير في القرآن، وسيأتي التنبيه على جزئيات هذا النوع في تضاعيف هذا التفسير إن شاء الله)[1].

ويلاحظ هنا أن ابن عاشور لا يعد من الإعجاز بأخبار الغيب أخبار القرون الغابرة التي حكاها القرآن الكريم كما يصنع غالب من يكتب في إعجاز القرآن الكريم، بل هذا النوع من الأخبار عنده من الإعجاز بالحقائق العلمية والعقلية، **وفي ذلك يقول** رَحِمَهُ اللهُ: (فإن مبلغ

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٢٩).

العلم عندهم يومئذ علوم أهل الكتاب، ومعرفة الشرائع والأحكام، وقصص الأنبياء والأمم وأخبار العالم، وقد أشار إلى هذا القرآن بقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٥ ـ ١٥٧]، وقال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هود: ٤٩]، ونحو هذا من محاجة أهل الكتاب، ولعل هذا هو الذي عناه عياض بقوله في الشفاء[١]: «ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة والأمم البائدة والشرائع الداثرة مما كان لا يعلم القصة منه إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب الذي قضى عمره في تعليم ذلك فيورده النبي ﷺ على وجهه، فيعترف العالم بذلك بصحته وصدقه؛ كخبر موسى مع الخضر، ويوسف وإخوته، وأصحاب الكهف، وذي القرنين، ولقمان...» إلخ كلامه، وإن كان هو قد ساقه في غير مساقنا بل جاء به دليلًا على الإعجاز من حيث علمه به ﷺ مع ثبوت الأمية ومن حيث محاجته إياهم بذلك.

فأما إذا أردنا عد هذا الوجه في نسق وجوه الإعجاز، فذلك فيما نرى من جهة أن العرب لم يكن أدبهم مشتملًا على التاريخ إلا بإرشادات نادرة)[٢].

وسيكون تفصيل الحديث عن الإعجاز بأخبار الغيب من خلال المطالب التالية:

---

(١) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى (١/ ٣٧٩).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٢٦).

المطلب الأول

المراد بالإعجاز بأخبار الغيب، والمخاطب بهذا الوجه من الإعجاز

معنى الإعجاز بأخبار الغيب (أن القرآن قد اشتمل على أخبار كثيرة من الغيوب التي لا علم لمحمد بها، ولا سبيل لمثله أن يعلمها مما يدل دلالة بينة على أن هذا القرآن المشتمل على تلك الغيوب لا يعقل أن يكون نابعًا من نفس محمَّد ولا غير محمَّد من الخلق، بل هو كلام علَّام الغيوب)[١].

وقد بيَّن ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ المراد من الإعجاز بأخبار الغيب بقوله: (وقد عد كثير من العلماء من وجوه إعجاز القرآن ما يعد جهة رابعة هي ما انطوى عليه من الأخبار عن المغيبات مما دلَّ على أنه منزل من علَّام الغيوب، وقد يدخل في هذه الجهة ما عدَّه عياض في الشفاء[٢] وجهًا رابعًا من وجوه إعجاز القرآن، وهو ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أحبار أهل الكتاب، فهذا معجز للعرب الأميين خاصة وليس معجزًا لأهل الكتاب؛ وخاص ثبوت إعجازه بأهل الإنصاف من الناظرين في نشأة الرسول ﷺ وأحواله وليس معجزًا للمكابرين، فقد قالوا إنما يعلِّمه بشر)[٣].

وقول ابن عاشور بأن الإعجاز بأخبار الغيب غير معجز لأهل الكتاب، ولا للمكابرين الذين قالوا إنما يعلمه بشر مما لا يسلَّم، وذلك أن أهل الكتاب يعلمون أن النبي ﷺ لم يأت بأخبار الغيب من عند نفسه ولم يعلمه أحد منهم أكثر من العرب الأميين، وعليه فالإعجاز بأخبار

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٢٦٥).

(٢) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى (١/ ٣٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ١٠٥).

الغيب حجة ظاهرة عليهم، وأما المكابرون فليس يقنعهم شيءٌ وإنما هي المكابرة والعناد، والله المستعان.

والإعجاز بأخبار الغيب لا يحتاج إلى من يتقن اللغة العربية ليفهمه، بل يمكن لكل إنسان أن يعلم بإعجاز القرآن الكريم في هذا الجانب، **وقد بيَّن ابن عاشور** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **المخاطب بهذا الوجه بقوله:** (وهو من الجهة الرابعة عند الذين اعتبروها زائدة على الجهات الثلاث معجز لأهل عصر نزوله إعجازًا تفصيليًا، ومعجز لمن يجيء بعدهم ممن يبلغه ذلك بسبب تواتر نقل القرآن وتعيُّن صرف الآيات المشتملة على هذا الإخبار إلى ما أريد منها)[١].

المَطْلَبُ ٱلثَّانِي

أمثلة على الإعجاز بأخبار الغيب

اعتنى ابن عاشور أثناء تناوله الإعجاز بأخبار الغيب بالتمثيل لهذا النوع حيث يقول: (وقد جاء كثير من آيات القرآن بذلك منها قوله: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢] الآية، روى الترمذي في تفسيرها عن ابن عباس قال: كان المشركون يحبون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبون أن يظهر الروم لأنهم أهل كتاب، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ فنزل قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ١ ـ ٤]، فخرج أبو بكر يصيح بها في نواحي مكة فقال له ناس من قريش: أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى، وذلك قبل تحريم الرهان، فلما كانت السَّنَة السابعة ظهرت الروم على فارس وأسلم عند

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٥).

ذلك كثير من قريش[١].

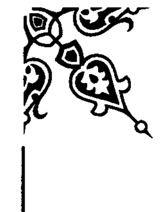
وقوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، وقوله: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] فما حدث بعد ذلك من المراكب مُنبأ به في هذه الآية. وقوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١] نزلت قبل فتح مكة بعامين، وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧]. وأعلن ذلك الإعجاز بالتحدي به في قوله تعالى في شأن القرآن: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٣] فسجَّل أنهم لا يفعلون ذلك أبدًا، وكذلك كان)[٢].

وما ساقه ابن عاشور من أمثلة تبيِّن هذه النوع من إعجاز الأخبار الغيبية قليل من كثير ذكره العلماء في كتبهم، وهي تدل دلالة واضحة على كون القرآن من عند الله تعالى.

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب سورة الروم، (٥/ ٣٤٣) برقم (٣١٩٣)، وأحمد، مسند عبد الله بن عباس، (٤/ ٢٩٦) برقم (٢٤٩٥).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ١٢٩ ـ ١٣٠).





المَبۡحَثُ ٱلثَّالِثُ

الإعجازُ بنزولِ القرآنِ مُفَرَّقًا

إن نزول القرآن الكريم مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة مع وقوع المناسبة بين آياته الكريمة، وكأنها نزلت في وقت واحد قد استوقف العلماء رحمهم الله تعالى، فبينوا دلالة هذا الأمر على الإعجاز من عدة أوجه.

ومن ذلك قول ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في أثناء تفسيره لقول الله تعالى:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢]: (وجاء في بيان حكمة إنزال القرآن منجمًا بكلمة جامعة وهي: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾، لأن تثبيت الفؤاد يقتضي كل ما به خير للنفس، فمنه ما قاله الزمخشري: الحكمة في تفريقه أن نقوي بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه لأن المتلقن إنما يقوي قلبه على حفظ العلم يلقى إليه إذ ألقي إليه شيئًا بعد شيء وجزءًا عقب جزء[١]، وما قاله أيضًا: (أنه كان ينزل على حسب الدواعي والحوادث وجوابات السائلين)[٢].اهـ؛ **أي**: فيكونون أوعى لما ينزل فيه لأنهم بحاجة إلى علمه فيكثر العمل بما فيه، وذلك مما يثبت فؤاد النبي ﷺ ويشرح صدره، وما قاله بعد ذلك: (إن تنزيله مفرقًا وتحديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفارق كلما نزل شيء منها أدخل في الإعجاز وأنور للحجة من أن ينزل كله جملة)[٣].اهـ،

---

(١) الكشاف (٣/ ٣٢٨).

(٢) السابق.

(٣) السابق.

ومنه ما قال الجد الوزير[١] رَحِمَهُ اللهُ: إن القرآن لو لم ينزل منجمًا على حسب الحوادث لما ظهر في كثير من آياته مطابقتها لمقتضى الحال ومناسبتها للمقام، وذلك من تمام إعجازها، وقلت: إن نزوله منجمًا أعون لحفَّاظه على فهمه وتدبره)[٢].

وما قرَّره ابن عاشور عدَّه الزرقاني كذلك من حكم نزول القرآن مفرَّقًا، حيث يقول مبينًا الحكمة الرابعة من حكم نزول القرآن مفرقًا: (الحكمة الرابعة: الإرشاد إلى مصدر القرآن وأنه كلام الله وحده وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ولا كلام مخلوق سواه، وبيان ذلك: أن القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره فإذا هو محكَمُ السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل كأنه حلقة مفرغة أو كأنه سمط وحيد وعقد فريد يأخذ بالأبصار: نُظمت حروفه وكلماته، ونُسقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقًا لأوله، وبدا أوله مواتيًا لآخره.

وهنا نتساءل: كيف اتسق للقرآن هذا التأليف المعجز؟ وكيف استقام له هذا التناسق المدهش؟ على حين أنه لم يتنزل جملة واحدة، بل تنزل آحادًا مفرقة تفرق الوقائع والحوادث في أكثر من عشرين عامًا.

الجواب: أننا نلمح هنا سرًّا جديدًا من أسرار الإعجاز، ونشهد سمة فذة من سمات الربوبية، ونقرأ دليلًا ساطعًا على مصدر القرآن، وأنه كلام الواحد الديان، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

---

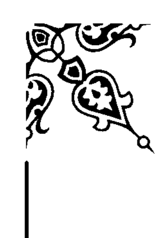
(١) **هو**: الوزير العالم محمد العزيز بو عتور، وقد تقدمت ترجمته.

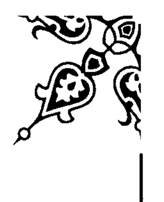
(٢) التحرير والتنوير (١٩/١٩ ـ ٢٠).

وإلا فحدثني - بربك - كيف تستطيع أنت؟ أم كيف يستطيع الخلق جميعًا أن يأتوا بكتاب محكم الاتصال والترابط، متين النسج والسرد، متآلف البدايات والنهايات، مع خضوعه في التأليف لعوامل خارجة عن مقدور البشر، وهي وقائع الزمن وأحداثه التي يجيء كل جزء من أجزاء هذا الكتاب تبعًا لها، ومتحدثًا عنها: سببًا بعد سبب، وداعية إثر داعية، مع اختلاف ما بين هذه الدواعي، وتغاير ما بين تلك الأسباب، ومع تراخي زمان هذا التأليف وتطاول آماد هذه النجوم إلى أكثر من عشرين عامًا)[(١)].



(١) مناهل العرفان (١/ ٤٤).








المبحث الرابع

الإعجازُ بعدمِ المَللِ عندَ سماعه

إن القرآن الكريم يدعو سامعه إلى مواصلة السماع له، وقد عُدَّ هذا الإقبال على القرآن وعدم الملل من سماعه من وجوه إعجازه، ويعبر عنه كثير من الباحثين المعاصرين بالمسحة اللفظية، والجمال الصوتي.

(وهذا الجمال الصوتي أو النظام التوقيعي هو أول شيء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام سواء أكان مرسلًا أم مسجوعًا، حتى خيِّل إلى هؤلاء العرب أن القرآن شعر لأنهم أدركوا في إيقاعه وترجيعه لذة، وأخذتهم من لذة هذا الإيقاع والترجيع هزة لم يعرفوا شيئًا قريبًا منها إلا في الشعر، ولكن سرعان ما عادوا على أنفسهم بالتخطئة فيما ظنوا حتى قال قائلهم، وهو الوليد بن المغيرة: وما هو بالشعر، معلِّلًا ذلك بأنه ليس على أعاريض الشعر في رجزه، ولا في قصيده، بيد أنه تورط في خطأ أفحش من هذا الخطأ حين زعم في ظلام العناد والحيرة أنه سحر، ثم عاد فأرسل نفسه على سجيتها العربية وبديهتها الفطرية فأنصف في حكمه حين تجرد ساعة من عناده وكفره وقال: والله ما يشبه الذي يقوله شيئًا من هذا، إلى أن قال: وإنه ليحطم ما تحته)[1].

وقد تعرض ابن عاشور رحمه الله للإعجاز بعدم المَلل من سماع القرآن

---

(١) مناهل العرفان (٢/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤) بتصرف.

عند تفسيره للمثاني في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، **وفي ذلك يقول:** (فالقرآن مثاني لأنه مكرر الأغراض، وهذا يتضمن امتنانًا على الأمة بأن أغراض كتابها مكررة فيه لتكون مقاصده أرسخ في نفوسها، وليسمعها من فاته سماع أمثالها من قبل، ويتضمن أيضًا تنبيهًا على ناحية من نواحي إعجازه وهي: عدم الملل من سماعه، وأنه كلما تكرر غرض من أغراضه زاده تكرره قبولًا وحلاوة في نفوس السامعين، **فكأنه الوجه الحسن الذي قال في مثله أبو نواس:**

يَزِيدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا ... إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظَرًا[(١)]

وقد عد عياض في كتاب «الشفاء»[(٢)] من وجوه إعجاز القرآن: أن قارئه لا يمله، وسامعه لا يمجه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، لا يزال غضًّا طريًّا، وغيره من الكلام ولو بلغ من الحسن والبلاغة مبلغًا عظيمًا يمل مع الترديد، ويعادى إذا أعيد، ولذا وصف رسول الله ﷺ القرآن بأنه: **«لَا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ»**، رواه الترمذي[(٣)] عن علي بن أبي طالب مرفوعًا.

وذكر عياض أن الوليد بن المغيرة سمع من النبي ﷺ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] الآية، فقال: «وَاللهِ، إِنَّ لَهُ لَحَلَاوَةً، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً»)[(٤)].

❁ ❁ ❁

---

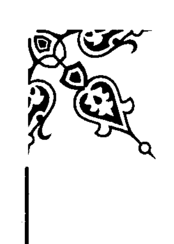
(١) **انظر:** دلائل الإعجاز (ص٢٩٦).

(٢) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى (١/ ٣٨٩).

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب، باب، (٥/ ١٧٢) برقم (٢٩٠٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي، برقم (٥٤٤).

(٤) التحرير والتنوير (٢٣/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧).







المبحث الخامس

الإعجازُ بالرَّوعَةِ، والهَيبةِ عند سماعه

إن من الأمور التي تظهر جليًّا للناظر فيها ما لهذا القرآن الكريم من الأثر في نفس قارئه وسامعه، ولا شك أن الروعة والمهابة التي تصاحب قارئ القرآن الكريم، وسامعه هي من أوصاف الكمال للقرآن الكريم.

وقد بيَّن العلماء الآثار المترتبة على هذه الروعة، والمهابة للقرآن الكريم أثناء تدبره، فهذا الإمام الآجري[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول معلقًا على قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]: (ألا ترون رحمكم الله إلى مولاكم الكريم كيف يحث خلقه على أن يتدبروا كلامه، ومن تدبر كلامه عرف الرب عَزَّ وَجَلَّ وعرف عظيم سلطانه وقدرته، وعرف عظيم تفضله على المؤمنين، وعرف ما عليه من فرض عبادته، فألزم نفسه الواجب، فحذر مما حذره مولاه الكريم، ورغَّب فيما رغَّبه فيه، ومن كانت هذه صفته عند تلاوته للقرآن وعند استماعه من غيره كان القرآن له شفاء)[٢].

وهذا التأثر بالقرآن الكريم، والروعة، والمهابة عند تلاوته وسماعه عدَّه العلماء وجهًا من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، ومن أقدم من ذكر هذا الوجه من الإعجاز الإمام الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيث يقول: (قلت: في

(١) أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله، الآجري، ولد سنة ٢٨٠هـ، وتوفي سنة ٣٦٠هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٦/ ١٣٥)، الأعلام (٦/ ٩٧).

(٢) أخلاق حملة القرآن (ص١٨).

إعجاز القرآن وجه آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن ـ منظومًا ولا منثورًا ـ إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظها منه، عادت إليه مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس ومضمراتها وعقائدها الراسخة فيها، فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانًا)[(١)].

ومن بعد الإمام الخطابي تعددت أقوال العلماء في تقرير هذا المعنى، وبيان هذا النوع من أنواع الإعجاز، وممن أشار إلى هذا النوع الشيخ ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] **حيث يقول**: (وقد اقتضى قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أن القرآن يشتمل على معان تقشعر منها الجلود، وهي المعاني الموسومة بالجزالة التي تثير في النفوس روعة وجلالة ورهبة تبعث على امتثال السامعين له، وعملهم بما يتلقونه من قوارع القرآن وزواجره... وقد عد عياض في الشفاء[(٢)] من وجوه إعجاز القرآن: الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لعلو مرتبته على كل

---

(١) القول في بيان إعجاز القرآن (ص٧٠).

(٢) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى (١/ ٣٨٤).

كلام من شأنه أن يهابه سامعه، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وعن أسماء بنت أبي بكر[١] كان أصحاب النبي ﷺ إذا قرأ عليهم القرآن كما نعتهم الله تدمع أعينهم وتقشعر جلودهم[٢]، وخص القشعريرة بالذين يخشون ربهم باعتبار ما سيردف به من قوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾ كما يأتي، قال عياض[٣]: وهي؛ أي: الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه على المكذبين به أعظم حتى كانوا يستثقلون سماعه كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وهذه الروعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام فمنهم من أسلم لها لأول وهلة، حكي في الحديث الصحيح عن جبير بن مطعم قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥ ـ ٣٧] كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الإِيمَانُ فِي قَلْبِي»[٤]، ومنهم من لم يسلم. روي عن محمد بن كعب القرظي[٥] قال «أُخْبِرْتُ أن عتبةَ بن ربيعة

---

(١) أسماء بنت أبي بكر عبد الله بن عثمان التيمية ذات النطاقين رضي الله عنهما، أسلمت قديمًا بمكة، ولدت قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة، وعاشت إلى أوائل سنة ٢٤هـ، **انظر**: الإصابة (٧/ ٤٨٤).

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب في تعظيم القرآن، فصل في البكاء عند قراءة القرآن (٢/ ٣٦٥) رقم (٢٠٦٢).

(٣) الشفا في التعريف بحقوق المصطفى (١/ ٣٨٤).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أبو حمزة محمد بن كعب بن سليم القرظي، قيل: ولد في زمان النبي ﷺ ولم يصح، وتوفي سنة ١٠٨هـ، رحمه الله، **انظر**: سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٥)، البداية والنهاية (٩/ ٣٠١).

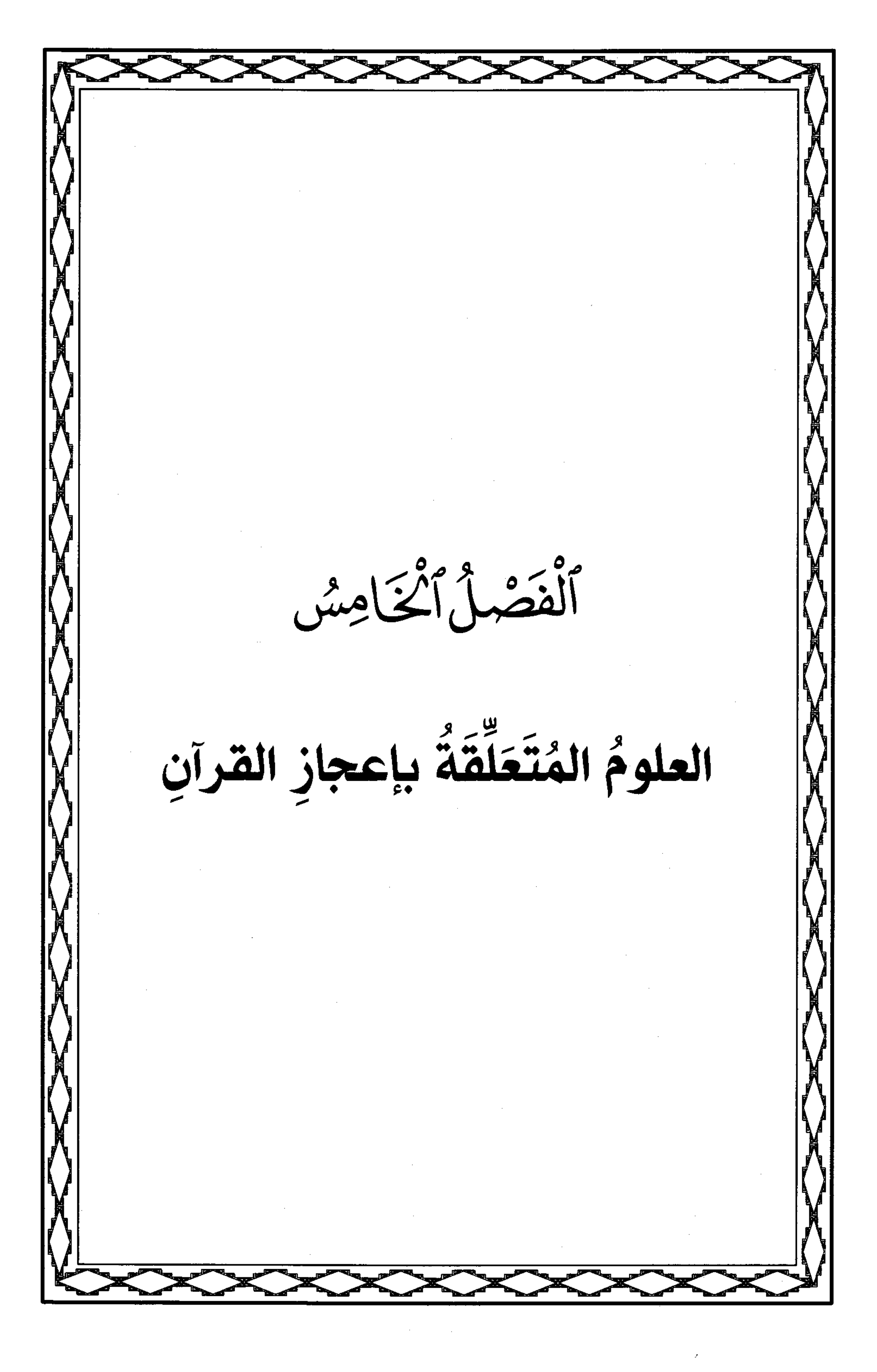
كلَّم النبي ﷺ في كفه عن سب أصنامهم وتضليلهم، وعرض عليه أمورًا، والنبي ﷺ يسمع، فلما فرغ قال له النبي ﷺ: «**اسْمَعْ مَا أَقُولُ**»، وقرأ عليه: ﴿حمٓ﴾ فُصِّلَتْ، حتى بلغ قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١ ـ ١٣]، فأمسك عتبة على فم النبي ﷺ وناشده الرحم أن يكف[١]؛ **أي**: عن القراءة»)[٢].



(١) أخرجه الحاكم، كتاب التفسير، باب قراءات النبي ﷺ، (٢/٢٧٨) برقم (٣٠٠٢)، وأبو يعلى، مسند جابر، (٣/٣٤٩) برقم (١٨١٨)، وصححه الذهبي.

(٢) التحرير والتنوير (٢٣/٣٨٨ ـ ٣٨٩).





ٱلْفَصْلُ ٱلْخَامِسُ

العلومُ المُتَعَلِّقَةُ بإعجازِ القرآنِ









المَبحَثُ الأَوَّلُ

علمُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ

تمهيد

المراد بعلوم العربية، وأهميتها في فهم كتاب الله تعالى:

لقد حازت اللغة العربية شرفًا عظيمًا؛ إذ نزل القرآن الكريم بلسانها المبين، وقد اصطفاها الله سبحانه لوحيه مِنْ بين لغات البشر، وفي إنزال القرآن الكريم باللغة العربية مَرْتَبَةٌ رفيعة لعِلْم العربية، ووجه الدلالة أنَّه تعالى أخبر أنَّه أنزله عربيًا في سياق التمدُّح، والثناء على الكتاب بأنَّه مبين لم يتضمن لَبْسًا، عزيزٌ لا يأتيه الباطل مِنْ بين يديه ولا مِنْ خلفه، وذلك يدلُّ دلالة ظاهرة على شرف اللغة التي أُنْزل بها.

يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللهُ: (أما العربية فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة بالسجيَّة والسليقة كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، أم حصلت بالتلقي والتعلم كالمعرفة الحاصلة للمولدين الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم، والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودوَّنوها، إن القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقًا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم لمن ليس بعربي بالسليقة)[1].

(١) التحرير والتنوير (١/١٨).

وفيما يلي إبراز للعلاقة القوية بين علوم اللغة العربية وبين علم إعجاز القرآن الكريم، والله الموفق.

المطلب الأول

علوم البلاغة، وعلاقتها بإعجاز القرآن

علم البلاغة علم مهم من علوم العربية، وقد لقي هذا العلم من عناية السلف وجهودهم ما جعله عِلْمًا قائمًا برأسه؛ ليخدم الكتاب المعجز، ويشير واقع العرب في أوائل عصر نزول القرآن الكريم إلى أن السليقة التي نشؤوا عليها سهلت عليهم معرفة أوجه إعجاز الكتاب العزيز، ومع مرور الأيام برزت عوامل جديدة أدَّت إلى إضعاف أثر السليقة؛ فقد اختلط العرب الفصحاء بغيرهم، ووصلَتْ دعوة الإسلام إلى أقوام مختلفين، كما أثيرت شكوك ومطاعن في بلاغة القرآن وإعجازه، ممَّا جعل الكثيرين يحاولون استنباط ما يستطيعون استنباطه من وجوه البلاغة فيه، ويُعَدُّ القرآن الكريم هو العامل الرئيس الذي ساعد على الشروع في الدراسات البلاغية بمختلف اتجاهاتها، وكان هذا العامل أهمَّ البواعث في إثارة الهمم للبحث الجادِّ عن ترتيب وجوه الكلام، والتمييز بين الأساليب.

وقد تناول ابن عاشور رحمه الله هذه العلاقة بين علوم البلاغة والإعجاز في كلام طويل قال فيه: (ولعلمي البيان والمعاني مزيد اختصاص بعلم التفسير لأنهما وسيلة لإظهار خصائص البلاغة القرآنية، وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني وإظهار وجه الإعجاز، ولذلك كان هذان العِلْمان يسميان في القديم «علم دلائل الإعجاز» قال في الكشاف: «علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلم وإن بز أهل الدنيا

في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرِّيَّة[١] أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري[٢] أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه[٣]، واللغوي وإن عَلَكَ اللغات بقوة لحييه: لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيء من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علما البيان والمعاني». اهـ[٤].

وقال في تفسير سورة الزمر عند قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ [الزمر: ٦٧]: «وكم من آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضيم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة لأن من تأوَّلها ليس من هذا العلم في عير ولا نفير ولا يعرف قَبِيلًا منه من دَبِير»[٥]، يريد به علم البيان.

وقال السكاكي في مقدمة القسم الثالث من كتاب «المفتاح»: «وفيما ذكرنا ما ينبه على أن الواقف على تمام مراد الحكيم تعالى وتقدَّس من كلامه مفتقر إلى هذين العلمين «المعاني والبيان» كل الافتقار، فالويل كل الويل لمن تعاطى التفسير وهو فيهما راجل»[٦]. . . .

---

(١) أيوب بن زيد بن قيس بن زرارة الهلالي الشهير بابن القرية: أحد بلغاء الدهر. خطيب يضرب به المثل، يقال: أبلغ من ابن القرية، والقرية أمه، توفي سنة ٨٤هـ، **انظر**: الأعلام (٢/ ٣٧).

(٢) الحسن بن يسار، أبو سعيد البصري، مولى زيد بن ثابت، ولد سنة ٢١هـ، وتوفي سنة ١١٠هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣)، الأعلام (٢/ ٢٢٦).

(٣) أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر، الفارسي، ثم البصري المعروف بسيبويه، توفي سنة ١٨٠هـ، **انظر**: البداية والنهاية (١٠/ ٦٠٥)، سير أعلام النبلاء (٨/ ٣٥٢).

(٤) الكشاف (١/ ٨).

(٥) الكشاف (٤/ ٦٥).

(٦) مفتاح العلوم (ص١٦٢).

وقال في آخر فن البيان من المفتاح: «لا أعلم في باب التفسير بعد علم الأصول أقرأ على المرء لمراد الله من كلامه من علمي المعاني والبيان ولا أعون على تعاطي تأويل متشابهاته ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه ولكم آية من آيات القرآن تراها قد ضيمت حقها واستلبت ماءها ورونقها أن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم فأخذوا بها في مآخذ مردودة وحملوها على محامل غير مقصودة. . . إلخ»[(١)].

وقال الشيخ عبد القاهر في دلائل الإعجاز في آخر فصل المجاز الحكمي: «ومن عادة قوم ممن يتعاطى التفسير بغير علم أن يتوهموا ألباب الألفاظ الموضوعة على المجاز والتمثيل أنها على ظواهرها = أي: على الحقيقة = فيفسدوا المعنى بذلك ويبطلوا الغرض ويمنعوا أنفسهم والسامع منهم العلم بموضع البلاغة وبمكان الشرف وناهيك بهم إذا أخذوا في ذكر الوجوه وجعلوا يكثرون في غير طائل هنالك ترى ما شئت من باب جهل قد فتحوه وزند ضلالة قد قدحوا به»)[(٢)].

وفي بيان سبب تأليف علم البلاغة يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ:

(والأول[(٣)] هو الوجه الذي اعتمده أبو بكر الباقلاني في كتابه «إعجاز القرآن»، وأبطل ما عداه بما لا حاجة إلى التطويل به، وعلى اعتباره دون أئمة العرب علم البلاغة، وقصدوا من ذلك تقريب إعجاز القرآن على التفصيل دون الإجمال فجاءوا بما يناسب الكامل من دلائل الكمال)[(٤)].

وهكذا فإنه عندما ازدهر التصنيف في علوم البلاغة كانت خدمة

---

(١) مفتاح العلوم (ص٤٢١).

(٢) دلائل الإعجاز (ص٣٠٥)، **وانظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٨).

(٣) وهو الإعجاز البلاغي.

(٤) التحرير والتنوير (١/ ١٣٠).

القرآن الكريم ماثلةً أمام العلماء الذين كانوا يَعُدُّون جهودهم مُنْصَبَّةً في هذا المجال، حتى إننا لا نكاد نجد كتابًا في البلاغة مقصورًا على مباحثها النظرية، وبعيدًا عن خدمة القرآن، يقول العسكري رَحِمَهُ اللَّهُ في مقدمة كتابه «الصناعتين»: (قد علمنا أن الإنسان إذا أغفل علمَ البلاغة، وأَخَلَّ بمعرفة الفصاحة، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خَصَّه الله به مِنْ حسن التأليف وبراعة التركيب)[1]، بل إن العسكري في كتابه يرى أن أحقَّ العلوم بالتعلُّم وأَوْلاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله، علم البلاغة، ومعرفة الفصاحة، الذي يُعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحكمة[2].

ويذكر القزويني في مقدمة كتابه التلخيص أن علم البلاغة وما يتبعه (مِنْ أجَلِّ العلوم قَدْرًا، وأدقِّها سرًّا؛ إذ به تُعرف دقائق العربية وأسرارها، وتُكشف عن وجوه الإعجاز في نظم القرآن أستارها)[3].

وهكذا نشأت البلاغة وترعرعت تحت راية القرآن والبحث في إعجازه، وهذا البحث هو الذي وصل بها إلى أن تصبح علمًا مستقلًّا يُخَصُّ بالتأليف، بل لقد ظلَّت البلاغة بعد نضجها واستقلالها أيضًا متعلقة بفكرة إعجاز القرآن والدفاع عنها، والله أعلم.

المَطْلَبُ الثَّانِي

لغات العرب، وعلاقتها بإعجاز القرآن

إن اللغة العربية لم توضع في وقت واحد، وإنما في أوقات متتابعة، ومن هنا فإن كل قبيلة قد كان لكلامها من الخصائص والصفات

---

(١) الصناعتين (ص١).
(٢) السابق.
(٣) التلخيص (ص٢١).

اللغوية ما لم يكن في سواها، وهذا هو ما يعرف عند العلماء باللهجة[(١)]، وقد كانت لهجة قريش أفصح لهجات العرب، قال الفراء[(٢)] رَحِمَهُ اللَّهُ: (كانت العربُ تحضر المَوسم في كل عام وتحجُّ البيتَ في الجاهلية وقريشٌ يسمعون لغات العرب فما استْحسنوه من لغاتهم تكلّموا به فصاروا أفصحَ العرب وخلَتْ لغتُهم من مُستبْشع اللغات ومُستقبَح الألفاظ)[(٣)].

وقد تعرض ابن عاشور للهجات العرب، وصلتها بالإعجاز، **يقول** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وأما ما يعرض للهجات العرب فذلك شيء تفاوتت في مضماره جياد ألسنتهم، وكان المجلي فيها لسان قريش ومن حولها من القبائل المذكورة في المقدمة السادسة[(٤)]، وهو مما فسر به حديث: «**أُنْزِلَ القُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ**»، ولذلك جاء القرآن بأحسن اللهجات وأخفها، وتجنب المكروه من اللهجات، وهذا من أسباب تيسير تلقي الأسماع له ورسوخه فيها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]، ومما أعده في هذه الناحية صراحة كلماته باستعمال أقرب الكلمات في لغة العرب دلالة على المعاني المقصودة وأشملها لمعان عديدة مقصودة بحيث لا يوجد في كلمات القرآن كلمة تقصر دلالتها عن جميع المقصود منها في حالة تركيبها ولا تجدها مستعملة إلا في حقائقها مثل إيثار كلمة حرد في قوله تعالى: ﴿وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ [القلم: ٢٥] إذ كان جميع معاني الحرد صالحًا للإرادة في ذلك الغرض أو مجازات أو

---

(١) **انظر لتعريف اللهجة**: في اللهجات العربية (ص١٦).

(٢) أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد، المعروف بالفراء، ولد سنة ١٤٤هـ، وتوفي سنة ٢٠٧هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ١١٨)، الأعلام (٨/ ١٤٦).

(٣) المزهر (١/ ١٧٥).

(٤) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ٥٧).

استعارات أو نحوها مما تنصب عليه القرائن في الكلام، فإن اقتضى الحال تصرفًا في معنى اللفظ كان التصرف بطريق التضمين، وهو كثير في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠]، فجاء فعل أتوا مضمنًا معنى مروا فعدي بحرف على؛ لأن الإتيان تعدى إلى اسم القرية والمقصود منه الاعتبار بمآل أهلها، فإنه يقال أتى أرض بني فلان ومر على حي كذا، وهذه الوجوه كلها لا تخالف أساليب الكلام البليغ بل هي معدودة من دقائقه ونفائسه التي تقل نظائرها في كلام بلغائهم لعجز فطنة الأذهان البشرية عن الوفاء بجميعها)[(١)].

وفي الكلام السابق عدة وقفات، وهي كما يلي:

١ ـ يقرر ابن عاشور رحمه الله أن القرآن الكريم نزل بأخف اللغات وأسهلها، وهي لغة قريش، وهذا أمر متقرر عند أهل العلم رحمهم الله تعالى يقرره جل من كتب في علوم القرآن[(٢)].

٢ ـ أن نزول القرآن على لغة قريش وهي التي جمعت فصيح لغات العرب مُظهر لإعجاز القرآن الكريم (بل لو نزل القرآن بغير لغة قريش لراجت شبهتهم وافتراؤهم عليه أنه سحر وكهانة وما إليها نظرًا إلى أنه قد دخل عليهم من غير بابهم فلا يستطيعون القضاء فيه ولا إدراك الفوارق البعيدة بينه وبين الحديث النبوي)[(٣)].

٣ ـ من الأمور التي تبيِّن العلاقة بين لغات العرب وإعجاز القرآن الكريم استعمال القرآن الكريم لأقرب الكلمات في لغة العرب دلالة

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١١٣).

(٢) **انظر**: روح المعاني (١/ ٢٣)، البرهان (١/ ٢٨٤)، مناهل العرفان (١/ ١٣٤).

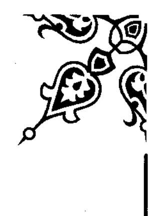
(٣) مناهل العرفان (١/ ١٣٤)، **وانظر**: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (ص٥٣).

على المعاني المقصودة وأشملها لمعان عديدة مقصودة، وقد مثل ابن عاشور لهذا بكلمة حرد، وقد مرَّ الكلام عن هذه الكلمة عند الحديث عن الإعجاز اللفظي.

٤ - ما سبق طرف يسير مما يبين علاقة لغات العرب بإعجاز القرآن، ولا زال الحديث عن علاقة لغات العرب بكتاب الله تعالى عمومًا، وبإعجاز القرآن الكريم خاصةً مجالٌ خصب بحاجة إلى من يستخرج درره.







المَبحَثُ الثَّانِي

علمُ القراءات، وعلاقتُهُ بإعجاز القرآن

علم القراءات: علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها معزوًّا لناقله(١)، وقيل: مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القراء مخالفًا به غيره في النطق بالقرآن الكريم مع اتفاق الروايات والطرق عنه، سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها(٢).

وهناك علاقة ظاهرة بين علم القراءات وبين إعجاز القرآن الكريم، وقد كتب بعض الباحثين في ذلك(٣)، **وقد تكلم ابن عاشور** رَحِمَهُ اللَّهُ **عن هذه العلاقة فقال**: (ثم إن القراءات العشر الصحيحة المتواترة قد تتفاوت بما يشتمل عليه بعضها من خصوصيات البلاغة أو الفصاحة أو كثرة المعاني أو الشهرة، وهو تمايز متقارب وقل أن يكسب إحدى القراءات في تلك الآية رجحانًا، على أن كثيرًا من العلماء كان لا يرى مانعًا من ترجيح قراءة على غيرها، ومن هؤلاء الإمام محمد بن جرير الطبري(٤) والعلَّامة الزمخشري، وفي أكثر ما رجح به نظر سنذكره في مواضعه(٥)... فإن قلت هل يفضي

---

(١) النشر (١/ ٧).

(٢) مناهل العرفان (١/ ٢٨٤).

(٣) **ومن هذه الكتب كتاب**: إعجاز القراءات القرآنية، للباحث صبري الأشوح، من طبع مكتبة وهبة.

(٤) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، شيخ المفسرين، ولد سنة ٢٢٤هـ، وتوفي سنة ٣١٠هـ، **انظر**: سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٦٧)، الأعلام (٦/ ٦٩).

(٥) **انظر**: التحرير والتنوير (٢/ ٣٦٨، ٧/ ٤٧، ٨/ ١٠٣، ٢٩/ ٣٤٤).

ترجيح بعض القراءات على بعض إلى أن تكون الراجحة أبلغ من المرجوحة فيفضي إلى أن المرجوحة أضعف في الإعجاز؟ قلت: حد الإعجاز مطابقة الكلام لجميع مقتضى الحال وهو لا يقبل التفاوت ويجوز مع ذلك أن يكون بعض الكلام المعجز مشتملًا على لطائف وخصوصيات تتعلق بوجوه الحسن كالجناس والمبالغة أو تتعلق بزيادة الفصاحة أو بالتفنن مثل: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ [المؤمنون: ٧٢].

على أنه يجوز أن تكون إحدى القراءات نشأت عن ترخيص النبي ﷺ للقارئ أن يقرأ بالمرادف تيسيرًا على الناس كما يشعر به حديث تنازع عمر مع هشام بن حكيم[١]، فتروى تلك القراءة للخلف، فيكون تمييز غيرها عليها بسبب أن المتميزة هي البالغة غاية البلاغة وأن الأخرى توسعة ورخصة ولا يعكر ذلك على كونها أيضًا بالغة الطرف الأعلى من البلاغة وهو ما يقرب من حد الإعجاز، وأما الإعجاز فلا يلزم أن يتحقق في كل آية من آي القرآن لأن التحدي إنما وقع بسورة مثل سور القرآن وأقصر سورة ثلاث آيات فكل مقدار ينتظم من ثلاث آيات من القرآن يجب أن يكون مجموعه معجزًا)[٢].

ومن خلال كلام ابن عاشور السابق يمكن الخروج بما يلي:

١ ـ أن القراءات المتواترة تتفاوت أحيانًا بما يشتمل عليه بعضها من كثرة معانٍ، أو خصوصيات بلاغية، وهذا التفاوت قد استفاد منه الفقهاء في استنباط بعض الأحكام من بعض القراءات، والنحاة إذ يستشهدون بقراءة من القراءات على بعض أبواب النحو، ولكن هذا

---

(١) سبق تخريجه، **وهشام بن حكيم**: هو الصحابي هشام بن حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، أسلم يوم الفتح، ولم تذكر المصادر سنة وفاته رضي الله عنه، **انظر**: الاستيعاب (٤/١٥٣٨)، الإصابة (٦/٥٣٨).

(٢) التحرير والتنوير (١/ ٦١ ـ ٦٣).

التفاوت لا يؤثر على هذه القراءات من جهة كونها متساوية المصدر، ومتساوية في الإجزاء في الصلاة، ونحو ذلك.

٢ ـ **تناول ابن عاشور مسألة مهمة وهي:** هل القول بترجيح إحدى القراءتين على الأخرى باعتبار كثرة معانيها، أو خصوصياتها البلاغية يفضي إلى أن المرجوحة أضعف في الإعجاز؟

وقد أجاب عن هذا التساؤل بعدد من الأجوبة، وهي كما يلي:

• أن الإعجاز يتحقق بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، فتكون القراءتان معجزتين لمطابقتهما مقتضى الحال، وهذا الجواب مبني على الإعجاز البلاغي.

• يجوز أن تكون إحدى القراءتين نشأت عن ترخيص النبي ﷺ للقارئ أن يقرأ بالمرادف، وهذا جواب مبني على علم القراءات.

ملاحظة مهمة: هذا الترخيص خاصٌّ بزمانه ﷺ، وهو لا ينافي أن هذه القراءات قرآن منزل تلقاه النبي ﷺ من جبريل عن ربه تبارك وتعالى، فمن قرأ من الصحابة على وفق ذلك القرآن المنزل أقره النبي ﷺ، يقول السيوطي رحمه الله: (الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهي بأن يغير كل أحد الكلمة بمرادفها في لغته، بل المرعي في ذلك السماع من النبي ﷺ)[١].

• أن الإعجاز لا يلزم أن يتحقق في كل آية، وإنما يتحقق في سورة مثل سور القرآن، وهذا الجواب باعتبار علم الإعجاز.

٣ ـ يمكن أن يضاف إلى ما سبق من صلة بين إعجاز القرآن، وعلم القراءات أن تعدد القراءات زيادة في الإعجاز لأنه يتضمن عجز

---

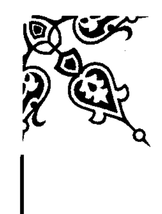
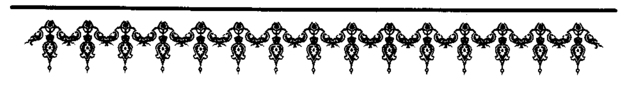
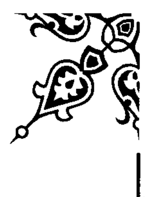
(١) الإتقان (١/ ١٣٤).

العرب عن معارضة القرآن مع تعدد قراءاته، يقول ابن الجزري[(١)] رحمه الله في فوائد تعدد القراءات: (ومنها ما في ذلك من نهاية البلاغة، وكمال الإعجاز، وغاية الاختصار، وجمال الإيجاز، إذ كل قراءة بمنزلة آية)[(٢)].



(١) **أبو الخير**، محمد بن محمد بن محمد بن علي بن يوسف، شمس الدين، ابن الجزري العمري الدمشقي، شيخ الإقراء في زمانه، ولد سنة ٧٥١هـ، وتوفي سنة ٨٣٣هـ، **انظر**: الضوء اللامع (٩/ ٢٥٥)، الأعلام (٧/ ٤٥).

(٢) النشر (١/ ٤٧).

المَبحَثُ الثَّالِثُ

علمُ التفسيرِ، وعلاقتُهُ بإعجازِ القرآن

إن علم التفسير من العلوم المهمة التي لقيت عناية بارزة من علماء المسلمين، وذلك لأنه بيان لمعاني كلام الله تعالى، ولذا فقد وضع العلماء رحمهم الله تعالى شروطًا للمفسر، وعلومًا لا بد له من العناية بها، ومن أهم تلك العلوم علم البلاغة المظهر لإعجاز القرآن الكريم، قال الزركشي رَحِمَهُ اللَّهُ: (وهذا العلم أعظم أركان المفسر، فإنه لا بد من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز من الحقيقة والمجاز وتأليف النظم وأن يواخى بين الموارد ويعتمد ما سيق له الكلام حتى لا يتنافر وغير ذلك)[1].

وفي علاقة علم الإعجاز بالتفسير يقول ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإن علاقة هذه المقدمة[2] بالتفسير هي أن مفسر القرآن لا يعد تفسيره لمعاني القرآن بالغًا حد الكمال في غرضه ما لم يكن مشتملًا على بيان دقائق من وجوه البلاغة في آيه المفسرة بمقدار ما تسمو إليه الهمة من تطويل واختصار، فالمفسر بحاجة إلى بيان ما في آي القرآن من طرق الاستعمال العربي وخصائص بلاغته وما فاقت به آي القرآن في ذلك حسبما أشرنا إليه في المقدمة الثانية[3] لئلا يكون المفسر حين يعرض عن ذلك بمنزلة

---

(١) البرهان (١/ ٣١١).

(٢) هي المقدمة العاشرة المتعلقة بإعجاز القرآن.

(٣) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٨).

المترجم لا بمنزلة المفسر، فمن أعجب ما نراه خلو معظم التفاسير عن الاهتمام بالوصول إلى هذا الغرض الأسمى إلا عيون التفاسير، فمن مُقِلٍّ مثل: معاني القرآن لأبي إسحاق الزجاج، والمحرر الوجيز للشيخ عبد الحق بن عطية الأندلسي، ومن مُكْثِرٍ مثل: الكشاف.

ولا يعذر في الخلو عن ذلك إلا التفاسير التي نحت ناحية خاصة من معاني القرآن مثل أحكام القرآن، على أن بعض أهل الهمم العلِيَّة من أصحاب هذه التفاسير لم يهمل هذا العِلق النفيس كما يصف بعض العلماء كتاب «أحكام القرآن» لإسماعيل بن إسحاق بن حماد المالكي البغدادي، وكما نراه في مواضع من أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي)[1].

ومن خلال هذا العرض نرى أن ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ أجمل فيه عددًا من المسائل كما يلي:

١ ـ أن العناية ببيان ما في القرآن من طرق الاستعمال العربي، وخصائص البلاغة، وتفوق آي القرآن في ذلك على سائر الكلام، هي من الأغراض التي يعتني بها المفسِّرون الذين يسعون لبلوغ رتبة رفيعة في التفسير، وليس معنى كلام ابن عاشور هذا الطعن فيمن لم يعتن بهذا الأمر من المفسِّرين، وإنما المراد أن هذا الاعتناء ميزة يتنافس في بلوغها المفسِّرون.

والأمر دائر بين إفراط وتفريط، فمن المفسرين من يعتني كثيرًا بتبيين النكت البلاغية، ومنهم من لا يشير إليها، والتوسط خير.

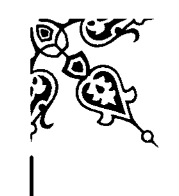
٢ ـ كتب أحكام القرآن هي كتب عنيت بغرض واحد لا تتعداه غالبًا، وهو بيان ما في الآيات القرآنية من أحكام فقهية، وهي على هذا

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ١٠٢).

لا تذكر أوجه الإعجاز في الآيات الكريمة، وقد ذكر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ كتب أحكام القرآن باعتبارها معدودة في كتب التفاسير، وغالب من يذكرها من أهل العلم يعدها من كتب علوم القرآن، وهذه الكتب لا تُعْنى إلا بالغرض الذي وضعت له؛ ككتب الغريب، وكتب الناسخ والمنسوخ، ونحوها من الكتب المؤلفة في بعض مباحث علوم القرآن، والله أعلم.







المَبْحَثُ الرَّابِعُ

مسائلُ من علوم القرآن، وعلاقتُها بإعجاز القرآن

ويشتمل على ثلاثة مطالب:

المَطْلَبُ الأَوَّلُ

الحروف المقطعة أوائل السور، وعلاقتها بإعجاز القرآن

ويشتمل على ثلاث مسائل:

➢ المسألة الأولى: المراد من الحروف المقطعة، وعلاقة ذلك بإعجاز القرآن:

تعدَّدت أقوال العلماء رحمهم الله تعالى في المراد من الحروف المقطعة، وليس المراد هنا تحرير هذه المسألة الكبيرة، وإنما مرادي التعرض لعلاقة هذه المسألة بإعجاز القرآن، ولذا أكتفي بالإشارة إلى أهم الأقوال في الحروف المقطعة، **وذلك كالتالي:**

تدور أقوال العلماء في الحروف المقطعة على اتجاهين:

* **الاتجاه الأول**: من يرى عدم تفسيرها، والبحث عن معناها، وإنما يرد علمها إلى الله تعالى، ومن هؤلاء الإمام الشعبي[1] رَحِمَهُ اللَّهُ،

(١) أبو عمرو عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الهمداني ثم الشعبي، ولد سنة ٢١هـ، وتوفي سنة ١٠٤هـ، **انظر**: البداية والنهاية (٩/ ٢٧٠)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٩٤).

حيث يقول: (إن لكل كتاب سرًّا، وإن سرَّ هذا القرآن فواتح السور)[١]، وقال بهذا القول جمع من العلماء[٢].

* **الاتجاه الثاني**: من يرى تفسيرها، وهؤلاء يمكن رد أقوالهم إلى قولين كما صنع ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ، **حيث ردَّ أقوالهم إلى نوعين**[٣]، **وهما**:

الأول: أن هذه الحروف وضعت بتلك الهيئات أسماء أو أفعالًا، إما أسماء للسور التي وقعت فيها، أو للقرآن، أو يتركب منها أسماء الله تعالى.

الثاني: أن هذه الحروف حروف هجاء مقصودة بأسمائها لأغراض داعية لذلك، إما أنها أقسامٌ أقسم الله تعالى بها، أو حروف تهجٍّ مسرودة تبكيتًا للمشركين، أو أنها تعليم لهذه الحروف لقوم أميين، وغير ذلك من الأقوال المندرجة تحت هذا القول.

ثم إن من أقوى هذه الأقوال القول بأن هذه الحروف للتحدي والإعجاز، **وهو ما بيَّنه ابن عاشور فقال**: (القول الرابع عشر أنها سيقت مساق التهجِّي مسرودة على نمط التعديد في التهجية تبكيتًا للمشركين، وإيقاظًا لنظرهم في أن هذا الكتاب المتلو عليهم وقد تحدوا بالإتيان بسورة مثله هو كلام مؤلف من عين حروف كلامهم؛ كأنه يغريهم بمحاولة المعارضة، ويستأنس لأنفسهم بالشروع في ذلك بتهجي الحروف، ومعالجة النطق تعريضًا بهم بمعاملتهم معاملة من لم يعرف

---

(١) **انظر**: الإتقان (٢/ ٢١)، وقد عزا الزركشي في البرهان هذا القول لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، **انظر**: البرهان (١/ ١٧٣).

(٢) ممن قال بهذا القول السيوطي والشوكاني، **انظر**: الإتقان (٢/ ٢١)، فتح القدير (١/ ٢٩).

(٣) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ٢١١ ـ ٢١٣).

تقاطيع اللغة فيلقنها كتهجي الصبيان في أول تعلمهم بالكتاب حتى يكون عجزهم عن المعارضة بعد هذه المحاولة عجزًا لا معذرة لهم فيه، وقد ذهب إلى هذا القول المبرد، وقطرب[١] والفراء، قال في الكشاف: وهذا القول من القوة والخلاقة بالقَبول بمنزلة[٢]، وقلت: وهو الذي نختاره، وتظهر المناسبة لوقوعها في فواتح السور أن كل سورة مقصودة بالإعجاز؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، فناسب افتتاح ما به الإعجاز بالتمهيد لمحاولته، ويؤيد هذا القول أن التهجِّي ظاهر في هذا المقصد فلذلك لم يسألوا عنه لظهور أمره، وأن التهجِّي معروف عندهم للتعليم، فإذا ذكرت حروف الهجاء على تلك الكيفية المعهودة في التعليم في مقام غير صالح للتعليم عرف السامعون أنهم عوملوا معاملة المتعلم لأن حالهم كحاله في العجز عن الإتيان بكلام بليغ، ويعضد هذا الوجه تعقيب هاته الحروف في غالب المواقع بذكر القرآن وتنزيله أو كتابيَّته إلا في ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم: ١]، و﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: ١، ٢]، و﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢].

ووجه تخصيص بعض تلك الحروف بالتهجي دون بعض وتكرير بعضها لأمر لا نعلمه، ولعله لمراعاة فصاحة الكلام، ويؤيده أن معظم مواقع هذه الحروف في أوائل السور المكية عدا البقرة على قول من جعلوها كلها مدنية وآل عمران، ولعل ذلك لأنهما نزلتا بقرب عهد الهجرة من مكة، وأن قصد التحدي في القرآن النازل بمكة قصد أولي، ويؤيده أيضًا الحروف التي أسماؤها مختومة بألف ممدودة مثل الياء

---

(١) **أبو علي**، محمد بن المستنير بن أحمد، الشهير بقطرب، توفي سنة ٢٠٦هـ، **انظر**: البداية والنهاية (١٠/ ٦٩٩)، الأعلام (٧/ ٩٥).

(٢) الكشاف (١/ ٣٠).

والهاء والراء والطاء والحاء قرئت فواتح السور مقصودة على الطريقة التي يتهجَّى بها للصبيان في الكتاب طلبًا للخفة)[١].

ومن خلال هذا الكلام لابن عاشور يتبين أنه يختار هذا القول في تفسير الحروف المقطعة، **وقد ذكر جملة من الأدلة تدور على ما يلي:**

- وقوعها في فواتح السور، ومن المناسب افتتاح ما به الإعجاز بالتمهيد لمحاولته.
- أن التهجي معروف عند العرب للتعليم، فعوملوا معاملة المتعلم؛ لأن حالهم كحاله في العجز عن الإتيان بكلام بليغ.
- أن هذه الحروف تُتبع غالبًا بذكر القرآن الكريم.
- أن معظم هذه الحروف أوائل لسورٍ مكيةٍ، إلا سورتي البقرة، وآل عمران، وهما مدنيتان نزلتا بقرب الهجرة، وفي مكة كان التحدي والإعجاز مرادًا أوليًّا.

وهذا القول هو اختيار كثير من العلماء، ومنهم سوى من ذكرهم ابن عاشور في كلامه السابق شيخ الإسلام ابن تيمية، والحافظ ابن كثير[٢].

⮜ المسألة الثانية: من أوجه إعجاز الحروف المقطعة:

تكلم العلماء الذين اختاروا أن الحروف المقطعة ذكرت لبيان إعجاز القرآن الكريم في أوجه إعجاز الحروف المقطعة في نفسها، ذلك أن إعجازها كما مر بأنها تحدٍّ وتبكيت للمشركين، وفيها مع هذا إعجاز مندرج تحت الإعجاز بالحقائق العلمية، **وفي هذا يقول ابن عاشور** رحمه الله: (قال في الكشاف: ما ورد في هذه الفواتح من

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢١٢ ـ ٢١٣). (٢) **انظر**: تفسير القرآن العظيم (١/ ١٦٠).

أسماء الحروف هو نصف أسامي حروف المعجم إذ هي أربعة عشر وهي: الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم، وهذه الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس صفات الحروف، ففيها من المهموسة(١) نصفها: الصاد والكاف والهاء والسين والحاء، ومن المجهورة(٢) نصفها: الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون، ومن الشديدة(٣) نصفها: الألف والكاف والطاء والقاف، ومن الرخوة(٤) نصفها: اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون، ومن المطبقة(٥) نصفها: الصاد والطاء، ومن المنفتحة(٦) نصفها الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والقاف والياء والنون، ومن المستعلية(٧) نصفها القاف والصاد والطاء،

---

(١) **الهمس في اللغة**: الخفاء، **وفي الاصطلاح**: ضعف التصويت بالحرف لضعف الاعتماد عليه في المخرج حتى جرى النفس معه، **انظر**: فن الترتيل (٢/ ٥٧٩).

(٢) **الجهر في اللغة**: الإعلان والإظهار. **وفي الاصطلاح**: قوة التصويت بالحرف لقوة الاعتماد عليه في المخرج حتى منع جريان النفس معه، **انظر**: فن الترتيل (٢/ ٥٧٩).

(٣) **الشدة في اللغة**: القوة، **وفي الاصطلاح**: لزوم الحرف لموضعه لقوة الاعتماد عليه في المخرج، **انظر**: فن الترتيل (٢/ ٥٨٠).

(٤) **الرخو في اللغة**: اللين، **وفي الاصطلاح**: ضعف لزوم الحرف لموضعه لضعف الاعتماد عليه في المخرج، **انظر**: فن الترتيل (٢/ ٥٨٠).

(٥) **الإطباق في اللغة**: الالتصاق، **وفي الاصطلاح**: انطباق طائفة ـ **أي**: جملة ـ من اللسان إلى الحنك الأعلى عند النطق بالحرف وانحصار الصوت بينهما، **انظر**: فن الترتيل (٢/ ٥٨٥).

(٦) **الانفتاح في اللغة**: الافتراق، **وفي الاصطلاح**: انفتاح ما بين اللسان والحنك الأعلى عند النطق بالحرف فلا ينحصر الصوت بينهما، **انظر**: فن الترتيل (٢/ ٥٨٥).

(٧) **الاستعلاء في اللغة**: الارتفاع، **وفي الاصطلاح**: ارتفاع اللسان إلى الحنك الأعلى عند النطق بالحرف فيرتفع الصوت معه، **انظر**: فن الترتيل (٢/ ٥٨٣).

ومن المستفلة[١] نصفها: الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون، ومن حروف القلقلة[٢] نصفها: القاف والطاء، ثم إن الحروف التي ألغي ذكرها مكثورة بالمذكورة فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته.اهـ[٣]، وزاد البيضاوي على ذلك أصنافًا أخرى من صفات الحروف لا نطيل بها فمن شاء فليراجعها[٤].

ومحصول كلامهما أنه قد قضي بذكر ما ذكر من الحروف، وإهمال ذكر ما أهمل منها حق التمثيل لأنواع الصفات بذكر النصف وترك النصف من باب «وليقس ما لم يقل»[٥] لحصول الغرض وهو الإشارة إلى العناية بالكتابة، وحق الإيجاز في الكلام، فيكون ذكر مجموع هذه الفواتح في سور القرآن من المعجزات العلمية، وهي المذكورة في الوجه الثالث من وجوه الإعجاز التي تقدمت في المقدمة العاشرة[٦] من مقدمات هذا التفسير)[٧].

ومن لطيف ما وقفت عليه في الحروف المقطعة وما فيها من إعجاز

---

(١) **الاستفال في اللغة**: الانخفاض، وقيل الانحطاط، **وفي الاصطلاح**: انخفاض اللسان أو انحطاطه عن الحنك الأعلى عند النطق بالحرف، **انظر**: فن الترتيل (٢/ ٥٨٣).

(٢) **القلقلة في اللغة**: التحريك والاضطراب، **وفي الاصطلاح**: اضطراب اللسان بالحرف عند النطق به ساكنًا حتى يسمع له نبرة قوية، **انظر**: فن الترتيل (٢/ ٥٨٨).

(٣) الكشاف (١/ ٣١ ـ ٣٢).

(٤) **انظر**: أنوار التنزيل (ص٦).

(٥) بل ذكر العلماء أن الحروف المذكورة أشرف من الحروف المتروكة، يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: (مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفًا وهي: ا ل م س ر ك هـ ي ع ط ص ح ق ن، يجمعها قولك: «نص حكيم قاطع له سر»، وهي نصف الحروف عددًا، والمذكور منها: أشرف من المتروك، وبيان ذلك من صناعة التصريف)، **انظر**: تفسير القرآن العظيم، (١/ ١٥٩).

(٦) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٢٦).

(٧) التحرير والتنوير (١/ ٢١٦).

كلام للإمام ابن القيم أنقله بطوله، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**فائدة**: السر في حروف ﴿الٓمٓ﴾ تأمل سر ﴿الٓمٓ...﴾ كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة، فالألف: إذا بدئ بها أولًا كانت همزة، وهي أول المخارج من أقصى الصدر، واللام: من وسط المخارج، وهي أشد الحروف اعتمادًا على اللسان، والميم: آخر الحروف، ومخرجها من الفم.

وهذه الثلاثة: هي أصول مخارج الحروف، أعني: الحلق، واللسان، والشفتين، وترتيب في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية، فهذه الحروف معتمد المخارج الثلاثة التي تتفرع منها ستة عشر مخرجًا فيصير منها تسعة وعشرون حرفًا، عليها دار كلام الأمم الأولين والآخرين، مع تضمنها سرًّا عجيبًا وهو: أن الألف: البداية، واللام: التوسط، والميم: النهاية، فاشتملت الأحرف الثلاثة على البداية، والنهاية، والواسطة بينهما.

وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف الثلاثة فهي مشتملة على بدء الخلق، ونهايته، وتوسطه، فمشتملة على تخليق العالم، وغايته، وعلى التوسط بين البداية والنهاية من التشريع والأوامر، فتأمل ذلك في البقرة، وآل عمران، وتنزيل السجدة، وسورة الروم.

وتأمل اقتران الطاء بالسين والهاء في القرآن، فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها وهي: الجهر، والشدة، والاستعلاء، والإطباق، والسين مهموس رخو مستفل صفيري منفتح، فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء، فذكر الحرفين اللذيْن جمعا صفات الحروف.

وتأمل السور التي اشتملت على الحروف المفردة كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، فمن ذلك «ق»، والسورة مبنيَّة

على الكلمات القافية: من ذِكر القرآن، وذِكر الخلق، وتكرير القول، ومراجعته مرارًا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين قول العبد، وذكر الرقيب، وذكر السائق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعيد، وذكر المتقين، وذكر القلب، والقرون، والتنقيب في البلاد، وذكر القيل مرتين، وتشقق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها، وبسوق النخل، والرزق، وذكر القوم، وحقوق الوعيد، ولو لم يكن إلا تكرار القول والمحاورة، وسر آخر: وهو أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهر والعلو والانفتاح، وإذا أردت زيادة إيضاح هذا، فتأمل ما اشتملت عليه سورة «ص» من الخصومات المتعددة، فأولها خصومة الكفار مع النبي ﷺ ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم وهو الدرجات والكفارات، ثم مخاصمة إبليس واعتراضه على ربه في أمره بالسجود لآدم، ثم خصامه ثانيًا في شأن بنيه: حلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم، فليتأمل اللبيب الفطن: هل يليق بهذه السورة غير «ص»، وسورة «ق» غير حرفها؟! وهذه قطرة من بحر من بعض أسرار هذه الحروف)[١].

◄ المسألة الثالثة: إعجاز القرآن من أغراض السور المفتتحة بالحروف المقطعة:

من الأمور التي يعتني بها المفسرون ذكر مقاصد السور، حتى صنفت في بيان ذلك المصنفات المستقلة، ومن الفوائد الجوامع التي

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٦٩٢، ٦٩٣).

يمكن ذكرها مما له تعلق بهذا الباب أن كل سورة افتتحت بالحروف المقطعة فمن مقاصدها بيان إعجاز القرآن الكريم، قال الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وما من سورة افتتحت بذكر الحروف المقطعة إلا وقد أشبع فيها بيان ما قلناه ونحن نذكر بعضها لتستدل بذلك على ما بعده، وكثير من هذه السور إذا تأملته فهو من أوله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن والتنبيه على وجه معجزته)(١).

وقد أوضح هذا المعنى ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كثير من السور المفتتحة بالحروف المقطعة، فهو يذكر من أغراضها إعجاز القرآن الكريم، **يقول في سورة إبراهيم**: (واشتملت من الأغراض على أنها ابتدأت بالتنبيه إلى إعجاز القرآن)(٢)، **وقال في سورة النمل**: (أول أغراض هذه السورة افتتاحها بما يشير إلى إعجاز القرآن ببلاغة نظمه وعلو معانيه بما يشير إليه الحرفان المقطعان في أولها)(٣)، **وقال في سورة العنكبوت**: (افتتاح هذه السورة بالحروف المقطعة يؤذن بأن من أغراضها تحدي المشركين بالإتيان بمثل سورة منه)(٤)، **وقال في سورة يس**: (أغراض هذه السورة التحدي بإعجاز القرآن بالحروف المقطعة، وبالقسم بالقرآن تنويهًا به، وأدمج وصفه بالحكيم إشارة إلى بلوغه أعلى درجات الإحكام)(٥).

وهكذا تتضح علاقة السور المفتتحة بالحروف المقطعة بإعجاز القرآن الكريم، والله أعلم.

---

(١) إعجاز القرآن (ص٩).
(٢) التحرير والتنوير (١٣/ ١٧٨).
(٣) التحرير والتنوير (١٩/ ٢١٥).
(٤) التحرير والتنوير (٢٠/ ٢٠٠).
(٥) التحرير والتنوير (٢٢/ ٣٤٢).

المَطْلَبُ الثَّانِي

المتشابه، وعلاقته بإعجاز القرآن

تناول ابن عاشور مباحث المتشابه(١) في عدد من المواضع في تفسيره، وفي صلة المتشابه بإعجاز القرآن الكريم **يقول** رَحِمَهُ اللَّهُ: (وإعجاز القرآن: منه إعجاز نظمي، ومنه إعجاز علمي، وهو فن جليل من الإعجاز بينته في المقدمة العاشرة من مقدمات هذا التفسير(٢)، فلما تعرض القرآن إلى بعض دلائل الأكوان وخصائصها فيما تعرض إليه جاء به محكيًّا بعبارة تصلح لحكاية حالته على ما هو في نفس الأمر، وربما كان إدراك كنه حالته في نفس الأمر مجهولًا لأقوام فيعدون تلك الآي الدالة عليه من المتشابه، فإذا جاء من بعدهم علموا أن ما عده الذين قبلهم متشابهًا ما هو إلَّا محكم)(٣).

وقال في أثناء ذكره لمراتب المتشابه: (رابعتها: معان قصرت عنها الأفهام في بعض أحوال العصور وأودعت في القرآن ليكون وجودها معجزة قرآنية عند أهل العلم في عصور قد يضعف فيها إدراك الإعجاز النظمي نحو قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ [يس: ٣٨] ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢] ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزمر: ٥]

---

(١) **المتشابه**: اختلف العلماء في المراد به، يقول الزركشي: (واختلفوا فيه، فقيل: هو المشتبه الذي يشبه بعضه بعضًا، وقيل: هو المنسوخ غير المعمول به، وقيل: القصص والأمثال، وقيل: ما أمرت أن تؤمن به وتكل علمه إلى عالمه، وقيل: فواتح السور... وقيل ما يحتمل وجوهًا، والمحكم ما يحتمل وجهًا واحدًا، وقيل: ما لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره، وقيل غير ذلك وكلها متقارب)، البرهان (٢/ ٦٩ ـ ٧٠)، **وانظر**: مناهل العرفان (٢/ ١٩٦)، بحوث منهجية في علوم القرآن (ص١٥٥).

(٢) **انظر**: التحرير والتنوير (١/ ١٢٥) وما بعدها.

(٣) التحرير والتنوير (٣/ ١٥٧).

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨] ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥] ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٧] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] وذكر سد يأجوج ومأجوج)[١].

وفيما سبق من نقل يظهر أن ابن عاشور يعد من المتشابه الآيات القرآنية التي أشارت إلى حقيقة علمية، وعدُّ هذا النوع من المتشابه هو أمرٌ نسبيٌّ، وذلك أن المفسرين المتقدمين كانوا يفسرونها بالنظر إلى دلالة النصوص، واللغة، وعليه فإنها كانت عندهم محكمة لا متشابهة، وذلك أن اتساع الألفاظ القرآنية لأكثر من معنى حتى يفهم منها في بعض العصور بعض المعاني، وتدخر المعاني الأخر لأهل عصر آخر لا يخرج هذه الآيات عن كونها محكمة.

وهناك ملحظ آخر، وهو أن هذه الآيات الكريمة لو كانت من المتشابه، فهي تدخل في الخلاف القائم بين العلماء في المتشابه هل يمكن معرفة معناه أم يختص الله تعالى بمعرفة معناه؟[٢]، وهذه الآيات مما فسره سائر المفسرين ولم يقل أحد منهم إنها مما يختص الله تعالى بمعرفة معناه، والله أعلم.

المَطْلَبُ الثَّالِثُ

أسباب النزول، وعلاقتها بإعجاز القرآن

لقد كان القرآن الكريم ينزل ابتداءً، وهذا كحال كثير من آيات القرآن الكريم المتعلقة بالجنة والنار، والقصص، والتوحيد، ومن القرآن

---

(١) التحرير والتنوير (٣/ ١٥٩).

(٢) **انظر هذا الخلاف في**: الإتقان (٤/ ١٣٤٠) طبعة المجمع، لمحات في علوم القرآن واتجاهات المفسرين (ص١٥٣).

الكريم ما نزل لسبب، وهذا كثير في آيات الأحكام[(١)].

وقد ذكر العلماء فوائد لأسباب النزول، ومن ذلك:

١ ـ معرفة حكمة الله تعالى الباعثة على تشريع الحكم.

٢ ـ الوقوف على معنى الآية.

٣ ـ معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصِّص لها.

٤ ـ معرفة من نزلت فيه الآية على التعيين حتى لا يشتبه بغيره فيتهم البريء ويبرأ المريب مثلًا.

٥ ـ معرفة مراعاة التشريع الإسلامي لمصالح الناس[(٢)].

وهناك فائدة نفيسة لأسباب النزول قلَّ من أشار إليها، وهي أن نزول القرآن عند حدوث حوادث دليل إعجازه البلاغي من جهة أن البلاغة مطابقة مقتضى الحال، ونزول الآيات عند حدوث أسباب من ذلك.

قال ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: (وثمة فائدة أخرى عظيمة لأسباب النزول، وهي أن في نزول القرآن عند حدوث حوادث دلالة على إعجازه من ناحية الارتجال، وهي إحدى طريقتين لبلغاء العرب في أقوالهم، فنزوله على حوادث يقطع دعوى من ادّعوا أنه أساطير الأولين)[(٣)].

❁ ❁ ❁

---

(١) **انظر**: بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم (ص٣٠).

(٢) **انظر لفوائد أسباب النزول**: البرهان (١/ ٢٢)، مناهل العرفان (١/ ٧٨)، بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم (ص٣١).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٥٠).



الخَاتِمَة

الحمدُ لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبَعْدُ: فهذه نهاية هذا البحث، وقد ظهر للباحث عدد من النتائج، ومن أهمها:

١ ـ عناية الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللهُ بإبراز إعجاز القرآن الكريم في تفسيره كلما جاءت مناسبة ذلك، وهذه العناية تجعل تفسيره التحرير والتنوير من أهم التفاسير التي اعتنت بهذا الباب.

٢ ـ تعددت طرق استدلال ابن عاشور على مباحث إعجاز القرآن الكريم بين الاستدلال بالنصوص الشرعية، والاستدلال بالمعارف اللغوية.

٣ ـ تنوَّعت مصادر إعجاز القرآن الكريم عند ابن عاشور فهي تنقسم إلى مصادر من كتب التفسير، ومصادر من كتب اللغة، ومن أهم مصادره الكتب المصنفة في إعجاز القرآن.

٤ ـ من أهم الأمور التي أسهمت في عناية ابن عاشور بإعجاز القرآن الكريم صلة هذا العلم بأركان الإيمان وأركان الإسلام.

٥ ـ حاول ابن عاشور جمع مباحث إعجاز القرآن، فتكلم عن المباحث التي تعتني بها في العادة كتب اللغة والبلاغة كالإعجاز اللغوي، وتكلم عن المباحث التي تعتني بها كتب علوم القرآن كمباحث التحدي، وبقية أنواع الإعجاز القرآني.

٦ ـ حرص ابن عاشور على إظهار بطلان الأقوال الباطلة التي قيلت في إعجاز القرآن الكريم؛ كالقول بالصرفة.

٧ ـ أهم مباحث إعجاز القرآن التي اعتنى ابن عاشور ببيانها هو الإعجاز اللغوي، فقد تناوله من جهة إعجاز الألفاظ، والمعاني، والأساليب، والترتيب، والأمثال، والقصص.

٨ ـ لم يغفل ابن عاشور الأوجه الأخرى في إعجاز القرآن الكريم التي عرض العلماء لبيانها؛ كالإعجاز العلمي، والإعجاز بأخبار الغيب.

٩ ـ سلك ابن عاشور مسلك الاعتدال في الإعجاز العلمي، فهو لا يقول به مطلقًا ولا ينكره مطلقًا، ولكنه يقبله بشروط وضوابط.

١٠ ـ هناك عدد من العلوم لها تعلُّق بإعجاز القرآن الكريم، وقد ذكر ابن عاشور عددًا من العلوم، وبيَّن الصلة بينها وبين إعجاز القرآن الكريم.

وختامًا، فإني أحمد الله على التمام، وأستغفره مما كان من نقص وتقصير، سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك.



الفَهَارِسُ

ثبت المصادر والمراجع

١ - **أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم**، صديق بن حسن القنوجي، تحقيق: عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.

٢ - **الإبهاج في شرح المنهاج على منهاج الوصول إلى علم الأصول للبيضاوي**، علي بن عبد الكافي السبكي، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: جماعة من العلماء، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٣ - **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار التراث، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

٤ - **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: مركز الدراسات القرآنية في مجمع الملك فهد، طبع مجمع الملك فهد، الأولى، ١٤٢٦هـ.

٥ - **الإحكام في أصول الأحكام**، علي بن محمد الآمدي أبو الحسن، دار الكتاب العربي، بيروت، تحقيق: د. سيد الجميلي، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٦ - **إحياء علوم الدين**، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، الناشر: دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ.

٧ - **أخلاق حملة القرآن**، أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الفتاح قاري، طبع ونشر مؤسسة الأميرة العنود، بدون تاريخ.

٨ - **أدب الكاتب**، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: محمد الدالي، طبع مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.

٩ - **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم**، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

١٠ - **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**، محمد بن علي الشوكاني، مكتبة الباز، بدون تاريخ.

١١ ـ **الاستيعاب**، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، دار الجيل، بيروت، تحقيق: محمد علي البجاوي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

١٢ ـ **أسلوب القرآن الكريم بين الهداية والإعجاز البياني**، د. عمر محمد باحاذق، دار المأمون، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٣ ـ **الأسلوب**، أحمد الشايب، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثامنة، ١٩٩٠م.

١٤ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار الجيل، بيروت، تحقيق: علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

١٥ ـ **أصول في التفسير**، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٦ ـ **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث**، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.

١٧ ـ **الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية لتراث أهل العلم**، محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

١٨ ـ **الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق**، د. عائشة بنت الشاطئ، دار المعارف، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.

١٩ ـ **الإعجاز التاريخي**، والأدبي، والتربوي في سورة يوسف، عبد الحليم عويس، من أبحاث المؤتمر السابع للإعجاز.

٢٠ ـ **الإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة تاريخه وضوابطه**، عبد الله بن عبد العزيز المصلح، بدون دار نشر، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.

٢١ ـ **إعجاز القرآن البياني ودلائل مصدره الرباني**، د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار عمار، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢٢ ـ **إعجاز القرآن الكريم بين الإمام السيوطي والعلماء دراسة نقدية ومقارنة**، محمد بن حسن بن عقيل موسى، دار الأندلس الخضراء، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٣ ـ **إعجاز القرآن الكريم**، الدكتور فضل عباس بالاشتراك مع سناء فضل عباس، دار الفرقان، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ.

٢٤ ـ **إعجاز القرآن بين المعتزلة والأشاعرة**، د. منير سلطان، منشأة المعارف، بدون الطبعة، والتأريخ.

٢٥ ـ **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مصطفى صادق الرافعي، دار الأرقم، بدون تاريخ.

٢٦ ـ **الإعجاز القرآني وجوهه وأسراره**، د .عبد الغني محمد سعد بركة، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

٢٧ ـ **أعلام النبوة**، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، دار الكتاب العربي، بيروت، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

٢٨ ـ **الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن الإسلام**، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح القرطبي أبو عبد الله، تحقيق: د. أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، ١٣٩٨هـ.

٢٩ ـ **أعلام تونسيون**، الصادق الزمرلي، تقديم حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

٣٠ ـ **الأعلام**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، ٢٠٠٢م.

٣١ ـ **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر الشيرازي البيضاوي، دار الفكر، بدون تأريخ.

٣٢ ـ **البحر المحيط**، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، دار الكتب العلمية، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٣٣ ـ **بحوث المطابقة لمقتضى الحال صورها وعلاقتها بالنقد الأدبي الحديث**، د. علي البدري، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٣٤ ـ **بحوث منهجية في علوم القرآن**، موسى إبراهيم الإبراهيم، دار عمار، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ.

٣٥ ـ **بدائع الفوائد**، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن قيم الجوزية، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، عادل عبد الحميد العدوي، أشرف أحمد الحاج، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٣٦ ـ **البداية والنهاية**، أبو الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق: عبد الرحمٰن اللاذقي، ومحمد غازي بيضون، دار المعرفة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٠هـ.

٣٧ ـ **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٣٨ ـ **البرهان في علوم القرآن**، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي أبو عبد الله، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩١هـ.

٣٩ ـ **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح**، عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب.

٤٠ ـ **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، السيوطي، دار المعرفة.

٤١ ـ **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، جلال الدين السيوطي، طبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

٤٢ ـ **التحدي في آيات الإعجاز**، د. قحطان عبد الرحمٰن الدوري، دار البشير، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٤٣ ـ **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، بدون تاريخ.

٤٤ ـ **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**، أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني، طبع دائرة المعارف العثمانية، ١٣٧٧هـ ـ ١٩٥٨م.

٤٥ ـ **التعبير القرآني**، د. فاضل السامرائي، دار عمار، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

٤٦ ـ **التفسير العلمي بين القبول والرد من أبحاث مجلة جامعة الخليل للبحوث**، المجلد الثاني، العدد الأول.

٤٧ ـ **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، تحقيق: سامي السلامة، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٤٨ ـ **التفسير والمفسرون**، د. محمد حسين الذهبي، توزيع المكتبة السلفية، الطبعة الثانية، ١٣٩٦هـ.

٤٩ ـ **التلخيص في علوم البلاغة**، جلال الدين محمد بن عبد الرحمٰن القزويني الخطيب، شرحه: عبد الرحمٰن البرقوقي، دار الفكر العربي، بدون تاريخ.

٥٠ ـ **تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل**، أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلاني، تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

٥١ ـ **تهذيب اللغة**، أبو منصور الأزهري، تحقيق: محمد علي النجار، الدار المصرية.

٥٢ ـ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر.

٥٣ ـ **الجامع الصحيح المختصر**، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة، جامعة دمشق، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

٥٤ ـ **الجامع الصحيح سنن الترمذي**، محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٥٥ ـ **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٢٣هـ.

٥٦ ـ **جهود علماء الغرب الاسلامي واتجاهاتهم في دراسة الإعجاز القرآني**، د. حسن مسعود الطوير، دار قتيبة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م.

٥٧ ـ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، تحقيق: د. علي حسن ناصر، د. عبد العزيز إبراهيم العسكر د. حمدان محمد، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

٥٨ ـ **جواهر البلاغة**، السيد أحمد الهاشمي، دار الفكر، ١٤٢١هـ.

٥٩ ـ **حاشية القونوي**، عصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي، تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٦٠ ـ **حلية اللب المصون**، أحمد الدمنهوري، دار الفكر، بدون بيانات.

٦١ ـ **حياة الحيوان الكبرى**، كمال الدين الدميري، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

٦٢ ـ **الحيوان**، الجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة البابي، الطبعة الثانية.

٦٣ ـ **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، عبد القادر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ.

٦٤ ـ **الخصائص**، أبو الفتح ابن جني، تحقيق: محمد علي النجار، دار عالم الكتب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣هـ.

٦٥ ـ **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، جلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٦٦ ـ **دراسات في علوم القرآن الكريم**، أ. د. فهد بن عبد الرحمٰن بن سليمان الرومي، مكتبة التوبة، ١٤١٦هـ.

٦٧ ـ **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، الطبعة الثانية، ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م.

* **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي.

٦٨ ـ **دلائل الإعجاز**، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمٰن الجرجاني، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٦٩ ـ **ديوان ابن الرومي**، شرح الأستاذ: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ.

٧٠ ـ **ديوان كعب بن زهير**، كعب بن زهير، تحقيق: علي فاعور، دار الكتب العلمية، ١٤١٧هـ.

٧١ ـ **ذيل الدرر الكامنة**، أحمد بن علي العسقلاني، تحقيق: عدنان درويش، معهد المخطوطات العربية، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٧٢ ـ **الرسالة الشافية**، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمٰن الجرجاني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.

٧٣ ـ **روح المعاني**، للعلّامة الألوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.

٧٤ ـ **ريحانة الألباء وزهرة الحياة الدنيا**، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٧م.

٧٥ ـ **زاد المسير في علم التفسير**، عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤هـ.

٧٦ ـ **سر الفصاحة**، أبو محمد عبد الله بن سنان الخفاجي، تحقيق: علي فودة، مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ.

٧٧ ـ **سمط اللآلي**، أبو عبيد البكري، تحقيق: عبد العزيز الميمني، دار الكتب العلمية.

٧٨ ـ **سنن أبي داود**، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر.

٧٩ ـ **سنن الدرامي**، عبد الله بن عبد الرحمٰن أبو محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.

٨٠ ـ **سير أعلام النبلاء**، محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.

٨١ ـ **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، محمد بن محمد مخلوف، المطبعة السلفية، ١٣٤٩هـ.

٨٢ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، أبو الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بدون الطبعة والتاريخ.

٨٣ ـ **شرح أشعار الهذليين**، أبو سعيد الحسن بن الحسين السكري، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار العروبة، بدون تاريخ.

٨٤ ـ **شرح الحماسة**، أبو علي المرزوقي، نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون، مطبعة لجنة التأليف، الطبعة الثانية.

٨٥ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**، ابن أبي العز، تحقيق: الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٣٩١م.

٨٦ ـ **الشرح الكبير على الورقات**، أحمد بن قاسم العبادي، تحقيق: عبد الله ربيع، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٨٧ ـ **شرح المعلقات العشر**، الحسين بن أحمد الزوزني، دار مكتبة الحياة، ١٤١١هـ.

٨٨ ـ **شرح الورقات**، تاج الدين عبد الرحمٰن بن إبراهيم الفزاري المعروف بابن الفركاح، تحقيق: سارة شافي الهاجري، دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٨٩ ـ **شعب الإيمان**، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٩٠ ـ **الشعر والشعراء**، ابن قتيبة، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

٩١ ـ **الشفا في التعريف بحقوق المصطفى**، القاضي عياض، تحقيق: علي بن محمد البجاوي، دار الكتاب العربي، ١٤٠٤هـ.

٩٢ ـ **شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور**، محمد الحبيب بن الخوجه، طبعة وزارة الشؤون الإسلامية، دولة قطر، ١٤٢٥هـ.

٩٣ ـ **الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ومنهجه في تفسيره التحرير والتنوير**، د. هيا ثامر مفتاح العلي، دار الثقافة، الدوحة، بدون تاريخ.

٩٤ ـ **الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها**، أحمد بن فارس، المكتبة السلفية، عام ١٣٢٨هـ.

٩٥ ـ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٩٦ ـ **صحيح ابن خزيمة**، محمد بن إسحاق بن خزيمة أبو بكر السلمي النيسابوري، د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

٩٧ ـ **صحيح الجامع الصغير**، وزياداته، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الاسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.

٩٨ ـ **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٩٩ ـ **ضعيف الترمذي**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

١٠٠ ـ **ضعيف الجامع محمد ناصر الدين الألباني**، المكتب الاسلامي، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

١٠١ ـ **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، شمس الدين محمد بن عبد الرحمٰن السخاوي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٠٢ ـ **طبقات المفسرين**، أحمد بن محمد الأدنروي، تحقيق: سليمان بن صالح الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

١٠٣ ـ **طيف الخيال**، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م.

١٠٤ ـ **عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح**، الشيخ بهاء الدين أبو حامد أحمد بن علي السبكي، تحقيق: د. خليل إبراهيم خليل، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٠٥ ـ **علوم البلاغة**، أحمد مصطفى المراغي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

١٠٦ ـ **علوم القرآن بين البرهان والإتقان**، د. حازم سعيد حيدر، مكتبة دار الزمان، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.

١٠٧ ـ **العمدة في صناعة الشعر ونقده**، أبو علي بن رشيق القيرواني، تحقيق: د. النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

١٠٨ ـ **عناية القاضي وكفاية الراضي**، شهاب الدين الخفاجي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، الأولى، ١٤١٧هـ.

١٠٩ ـ **عيار الشعر**، محمد بن أحمد طباطبا، تحقيق: عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٢٦هـ.

١١٠ ـ **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسِّيَر**، أبو الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس، تحقيق: محمد العيد الخطراوي، ومحمد محيي الدين مستو، دار ابن كثير، بدون تاريخ.

١١١ ـ **غاية المرام في علم الكلام**، علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الآمدي، تحقيق: حسن محمود عبد اللطيف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٣٩١هـ.

١١٢ ـ **الفتاوى الكبرى**، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: حسنين محمد مخلوف، الطبعة الأولى، ١٣٨٦هـ.

١١٣ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن حجر العسقلاني، دار السلام، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

١١٤ ـ **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: يوسف الغوش، دار المؤيد، الطبعة الثالثة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

١١٥ ـ **فتح الكبير المتعال إعراب المعلقات العشر الطوال**، محمد علي الدرة، مكتبة السوادي، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٩هـ.

١١٦ ـ **فتح المغيث بشرح ألفية الحديث**، شمس الدين محمد بن عبد الرحمٰن السخاوي، دار المنهاج، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

١١٧ ـ **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية**، عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي أبو منصور، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.

١١٨ ـ **فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال**، أبو الوليد ابن رشد، تحقيق: محمد عمارة، دار المعارف، الطبعة الثالثة.

١١٩ ـ **الفِصَل في الملل والأهواء والنحل**، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري أبو محمد، مكتبة الخانجي، القاهرة.

١٢٠ ـ **فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر مع نقد وتعليق**، نعيم الحمصي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

١٢١ ـ **فن الترتيل وعلومه**، أحمد بن أحمد الطويل، طبعة مجمع الملك فهد، الأولى، ١٤٢٠هـ.

١٢٢ ـ **الفوائد البهية في تراجم الحنفية**، أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي، تحقيق: محمد بدر الدين النعماني، دار الكتاب الإسلامي.

١٢٣ ـ **فوات الوفيات**، محمد شاكر الكتبي، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر.

١٢٤ ـ **في اللهجات العربية**، د. إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.

١٢٥ ـ **القاموس المحيط**، مجد الدين الفيروزآبادي، تحقيق: مكتب تحقيق: التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.

١٢٦ ـ **قضايا النقد الأدبي في مقدمة شرح حماسة أبي تمام**، عبد العزيز بن عبد الرحمٰن الشعلان، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤٢٣هـ.

١٢٧ ـ **القول في بيان إعجاز القرآن**، أبو سليمان الخطابي، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.

١٢٨ ـ **كتاب الصناعتين الكتابة والشعر**، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٢٩ ـ **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، محمد علي التهانوي، تحقيق: د. علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

١٣٠ ـ **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري، ضبط: يوسف الحمادي، مكتبة مصر، بدون تاريخ.

١٣١ ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، دار العلوم الحديثة.

١٣٢ ـ **الكليات**، أبو البقاء أيوب بن موسى الكفوي، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ.

١٣٣ ـ **اللباب في علوم الكتاب**، عمر بن علي بن عادل الدمشقي الحنبلي، تحقيق: عادل عبد الموجود، وعلي معوض، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

١٣٤ ـ **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

١٣٥ ـ **لغة القرآن الكريم دراسة توثيقية فنية**، د. أحمد مختار عمر، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

١٣٦ ـ **لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير**، د. محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٣٧ ـ **مباحث التشبيه والتمثيل في تفسير التحرير والتنوير**، شعيب بن أحمد بن محمد الغزالي، رسالة دكتوراه من جامعة أم القرى.

١٣٨ ـ **مباحث في إعجاز القرآن**، مصطفى مسلم، دار المسلم، الطبعة الثانية، ١٤١٦هـ.

١٣٩ ـ **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، ضياء الدين ابن الأثير، علق عليه: أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، دار نهضة مصر، الطبعة الثانية، بدون تاريخ.

١٤٠ ـ **المجلة الزيتونية**، المطبعة التونسية بنهج البلاط.

١٤١ ـ **مجمع الأمثال**، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت.

١٤٢ ـ **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري والسيد عبد العال السيد إبراهيم، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، بدون التأريخ.

١٤٣ ـ **المحصول في علم الأصول**، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، تحقيق: طه جابر فياض العلواني، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.

١٤٤ ـ **محمد الطاهر بن عاشور علّامة الفقه وأصوله والتفسير وعلومه**، إياد خالد الطباع، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

١٤٥ ـ **مختصر التفتازاني على التلخيص**، العلَّامة التفتازاني، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، الطبعة الأولى، ١٣٤٧هـ.

١٤٦ ـ **المختصر في أصول الفقه**، علي بن محمد بن شيبان المعروف بابن اللحام، تحقيق: محمد مظهر بقا، طبع جامعة أم القرى، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ.

١٤٧ ـ **مداخل إعجاز القرآن**، محمود محمد شاكر، دار المدني، الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٤٨ ـ **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، تحقيق: يوسف علي بديوي، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

١٤٩ ـ **مراعاة مقتضى الحال في القرآن الكريم وجه من وجوه إعجازه**، د. محمد رفعت أحمد زنجبير، بحث منشور في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الكويت، العدد ٥٩، السنة ١٩، شوال ١٤٢٥هـ.

١٥٠ ـ **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: فؤاد علي منصور، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

١٥١ ـ **المستدرك على الصحيحين**، محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

١٥٢ ـ **المستصفى من علم الأصول**، محمد بن محمد الغزالي، تحقيق: حمزه زهير حافظ، بدون بيانات الطبعة وتاريخها.

١٥٣ ـ **المسك الأذفر في نشر مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر**، محمود شكري الآلوسي، تحقيق: د. عبد الله الجبوري، دار العلوم، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

١٥٤ ـ **مسند أبي يعلى**، أحمد بن علي بن المثنى أبو يعلى الموصلي التميمي، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٥٥ ـ **مسند أحمد**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعادل مرشد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

١٥٦ ـ **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي**، أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.

١٥٧ ـ **مصدر القرآن كما بينه القرآن**، فرج العوفي، رسالة علمية في الجامعة الإسلامية.

١٥٨ ـ **المصنف في الأحاديث والآثار**، أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٥٩ ـ **المطول على التلخيص**، العلَّامة التفتازني، الناشر: صحاف قريمي يوسف ضيا، ١٣٣٠هـ.

١٦٠ ـ **معالم التنزيل**، محيي السُّنَّة البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر بالاشتراك، دار طيبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ.

١٦١ ـ **معاني القرآن وإعرابه**، أبو إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، دار عالم الكتب، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٩٨م.

١٦٢ ـ **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، السيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٦٣ ـ **المعجزات القرآنية**، د. هارون يحيى، بدون بيانات.

١٦٤ ـ **المعجزة الخالدة**، حسن ضياء عتر، دار البشائر الاسلامية، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ.

١٦٥ ـ **المعجزة القرآنية الإعجاز العلمي والغيبي**، د. محمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٦٦ ـ **المعجزة الكبرى القرآن**، الإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، بدون الطبعة، والتأريخ.

١٦٧ ـ **معجم الأدباء**، ياقوت الحموي، دار الفكر، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.

١٦٨ ـ **معجم البلاغة العربية**، د. بدوي طبانة، دار المنار، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ.

١٦٩ ـ **معجم المؤلفين**، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ.

١٧٠ ـ **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري، تحقيق: د. مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر، بيروت، الطبعة السادسة، ١٩٨٥م.

١٧١ ـ **مفاتيح الغيب، الإمام محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.**

١٧٢ ـ **المفردات في غريب القرآن**، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بدون الطبعة والتاريخ.

١٧٣ ـ **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، أبو الحسن الأشعري، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، ١٤١١هـ.

١٧٤ ـ **المقامات**، الحريري، تحقيق: يوسف بقاعي، دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، ١٩٨١م.

١٧٥ ـ **مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

١٧٦ ـ **مقدمة ابن خلدون**، عبد الرحمٰن بن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، وسهل زكار، دار الفكر، ١٤٢١هـ.

١٧٧ ـ **الملل والنحل**، محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ.

١٧٨ ـ **من أعلام الزيتونة شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره**، د. بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١٧٩ ـ **مناهل العرفان دراسة وتقويم**، خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان للنشر والتوزيع، بدون تاريخ.

١٨٠ ـ **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

١٨١ ـ **منهج الطاهر بن عاشور في أصول الاعتقاد**، محمد حسن العمري، رسالة دكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

١٨٢ ـ **موارد الظمآن في علوم القرآن**، صابر حسن أبو سليمان، الدار السلفية في الهند، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٨٣ ـ **الموافقات في أصول الفقه**، إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: عبد الله دراز.

١٨٤ ـ **المواقف**، عضد الدين عبد الرحمٰن بن أحمد الإيجي، تحقيق: د. عبد الرحمٰن عميرة، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

١٨٥ ـ **الموطأ**، مالك بن أنس أبو عبد الله الأصبحي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، مصر.

١٨٦ ـ **نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، الطبعة الأولى، طبعة سفير بالرياض، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٨٧ ـ **نسيم الرياض في شرح الشفا**، للقاضي عياض وبهامشه شرح علي القاري للشفا، دار الفكر، بدون الطبعة والتاريخ.

١٨٨ ـ **النشر في القراءات العشر**، أبو الخير محمد بن الجزري، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ.

١٨٩ ـ **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، برهان الدين إبراهيم البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ.

١٩٠ ـ **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م.

١٩١ ـ **النكت في إعجاز القرآن**، علي بن عيسى الرماني، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، الطبعة الرابعة، بدون تاريخ.

١٩٢ ـ **نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز**، فخر الدين الرازي، تحقيق: د. بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

١٩٣ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

١٩٤ ـ **هداية العارفين أسماء المؤلفين والمصنفين**، إسماعيل باشا البغدادي، دار العلوم الحديثة.

١٩٥ ـ **الواضح في علوم القرآن**، د. مصطفى ديب البغا، ومحيي الدين مستو، دار الكلم الطيب، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ.

١٩٦ ـ **الوافي بالوفيات**، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٩٧ ـ **الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

فِهْرِسُ مَوْضُوعَاتِ ٱلْكِتَابِ

الباب الثاني
مباحث إعجاز القرآن عند ابن عاشور

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع | **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**



مُقَدِّمَةُ كرسِيِّ القُرْآنِ الكَرِيمِ وَعُلُومِهِ

يُعَدُّ العلامة محمد الطاهر بن محمد بن محمد بن عاشور التونسي من كبار عُلماء الإسلام المتأخرين في القرن الهجري الماضي، حيث كانت ولادته بتونس في جمادى الأولى عام ١٢٩٦هـ وكانت وفاته في رجب عام ١٣٩٣هـ عن عمر يناهز أربعة وتسعين عامًا، وقد ترك مؤلفات تعتبر علاماتٍ فارقةً في عدة فنون صنّف فيها، ومن أعظمها دلالةً على تبحره في فنون العلم تفسيره الكبير (التحرير والتنوير)، الذي يُعَدُّ من مفاخر مصنفات المتأخرين في التفسير؛ حيث ظهرت فيه مَلَكَاتُه العلميَّةُ ظُهورًا جليًّا، دفع الباحثين بعده للعكوف عليه، ودراسته. وقد عاش طيلة عمره منهمكًا في التعلُّمِ والتعليم، وكانت غايةُ لذّتهِ مسامرةَ الأساتيذِ والإخوان في دقائق العلم ورقائق الأَدبِ، ولم يُحَبَّبْ إليه شيءٌ ما حُبِّبتْ إليه الخلوةُ إلى الكتابِ والقرطاس، متنكبًا كلَّ ما يجري حولَهُ من المشاغل، ولذلك ترك الكثيرَ من المؤلفات والرسائل النفيسة المليئة بالتحقيق، والجديد المفيد. وقد ارتقت به همته العالية إلى العناية بجملة من الفنون، كان موفقًا في الوقوف على دقائقها، بارعًا في استخلاص مقاصدها، متعاملًا مع مصادرها تعامل من تعددت مواهبه، واتسع أفقه

الفكري، وكان قديرًا على النظر والمشاركة والنقد لكل ما يقع تحت يده.

وتأتي هذه الدراسة عن (**إعجاز القرآن الكريم عند الإمام ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير**) ضمن تلك الدراسات المعاصرة التي كتبت عن تفسير ابن عاشور، وأرجو أن يجد القارئ فيها دلالةً على منهج ابن عاشور في تناول مسائل إعجاز القرآن، واستدلالاته على بعضها، وموقفه منها. وهذه تفيد الباحث في جمع أقواله ومذاهبه في مسائل إعجاز القرآن في كتاب واحد، وتقربها بين يدي طالب العلم ليتعرف على أقوال ابن عاشور الدقيقة، واستدلالاته العميقة على مسائل إعجاز القرآن التي تعد من أدق علوم القرآن وأعلاها.

نسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يرحم العلّامة المفسّر محمد الطاهر بن عاشور.

أ.د. عبد الرَّحمن بن مُعاضة الشِّهري
المشرف على الكرسيّ

كرسيّ القرآن الكريم وعلومه... في سطور

تعريف الكرسيّ:

كرسي القرآن الكريم وعلومه هو كرسي أبحاث ودراسات متخصص في الدراسات القرآنية وما يتصل بها، ورؤيته تحقيق الريادة في خدمة البحث العلمي في القرآن الكريم وعلومه، ودعم الباحثين المتخصصين في هذا المجال، ومقره قسم الدراسات القرآنية بكلية التربية بجامعة الملك سعود. وقد صدر قرار إنشائه بتاريخ ٦ ذي القعدة عام ١٤٣٢هـ.

ويشغل منصب أستاذ الكرسي معالي الشيخ الدكتور صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب المسجد الحرام بمكة المكرمة، وعضو هيئة كبار العلماء بالسعودية.

كما يشرف على الكرسي الأستاذ الدكتور عبد الرحمٰن بن معاضة الشهري أستاذ القرآن وعلومه بقسم الدراسات القرآنية بجامعة الملك سعود.

ويضم الكرسي في مجلسه العلمي ولجانه نخبة من أساتذة الدراسات القرآنية بجامعة الملك سعود، ويتعاون الكرسي في تنفيذ مشروعاته العلمية مع كافة الباحثين المتخصصين في الجامعات، وكذلك مع طلاب الدراسات العليا.

أهداف الكرسيّ:

- تطوير الدراسات المتصلة بالقرآن الكريم واستشراف مستقبلها.
- تطوير مقررات الدراسات القرآنية في الجامعات، والأساتذة المتخصصين في تدريسها.
- بناء المعايير والمؤشرات لتطوير الدراسات المتعلقة بالقرآن وعلومه.
- دعم مراكز البحوث والدراسات القرآنية وعقد الشراكات معها لتحقيق أهداف الكرسي.
- كشف الشبهات المعاصرة والمثارة حول القرآن الكريم والتصدي لها بالبحوث والدراسات والوسائل المناسبة، وتأهيل الباحثين.

من وسائلنا:

- إجراء الدراسات والأبحاث، وعقد المؤتمرات واللقاءات وحلقات النقاش.
- نشر الأبحاث والدراسات والرسائل العلمية.
- استقطاب الباحثين المتميزين في خدمة القرآن وعلومه وتأهيلهم.
- إصدار الموسوعات والمعاجم والدراسات والنشرات والمجلات العلمية.

للتواصل:

هاتف: ٠٠٩٦٦١١٤٦٧٤٧٤٤ جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٢٣٥٥٢١٣

بريد إلكتروني: quranchair@ksu.edu.sa

الموقع: http://c.ksu.edu.sa/quranchair تويتر: @quranchair

مبنى ١٥ ـ جامعة الملك سعود ـ كلية التربية ـ قسم الثقافة الإسلامية ـ ص.ب. ٢٤٢١٩٩ الرياض ١١٣٢٢